الكافي

في علوم البلاغة العربيّة
المعاني - البيان - البديع

تأليف

د. عيسي على العاكوب أ. على سعد الشتيوى

الجامعة المفتوحة

1993

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

الحمدُ لِلّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّه الهادي الأمين. اللهّم بكَ نستعين، وبكَ نستبين، وعليك نتوكّل.

أمّا بعد، فإنه ليس في مقدور أيّ مثقّف أن ينكر ما للدّرس البلاغيّ العربيّ من أهمية في إدراك بنْيِة الكلام العربيّ، والأسسِ التي ينهض عليها إنشاءُ نماذجه الممتازة. ولا نذيعُ سراً حين نذهب إلى القول إنّه توافر لهذا الدّرس – عبر ما يربو على ثمانية قرون – ذهنيّات موهوبة وضعت نصبَ أعينها أن تتبيّن تلك الأسرار التي تجعل ضرباً من الكلام مقدّماً مرموقاً موموقا. إذ تدلّ البداياتُ التي قُيِّض لنا أن نعرفها في مسيرة الحياة العقلية للإنسان العربيّ على أنّ هذا الإنسان كان راقياً عقليًا ووجدانيًا منذ أن استخفّته تلك الصّورُ الكلامية الرفيعة التي انطوى عليها شعرُ العرب وخطابتُهم وحِكمُهم وأسجاعهم قبل الإسلام. وحين بزغ فجر الإسلام كان العربيّ يعيش في صحرائه في متحفٍ لروائع الفنّ الأدبيّ العربيّ. وهى روائع أبدعتها قرائحُ أساطين أمثال امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة ولبيد وقُسّ بن ساعدة وسواهم. ويَشاء الحكيم الخبير أن يكون إعجاز أخرى الرسالات إعجازاً بيانيًا، وقف أمامه العربيّ مشدوهاً مبهوراً، ينطق باسمه الوليدُ بن المغيرة حين يقول عن

الذكر الحكيم : «إنّهُ لَيعلُو ولا يُعلى عليه». وشهادة العدوّ بالفضل لا تردّ في محكمة تبيّن الحقيقة الناصعة وتلمّس الطريقة النافعة. وطبيعيّ أن يضاعف التنزيلُ إحساسَ العربيّ المسلم بالجمال الذى لا يعدله جمال وبالرّوعة التى تجوز فوق الخيال. ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أنّ أسلوب الذكر الحكيم شكل بدءاً من منتصف القرن الأول الهجريّ أفقاً جماليًا عاليًا أسهم – مع عوامل أخر – في إذكاء الذهنية العربية الإسلامية في وجهتين :

– الأولى وجهة إبداعية فنّية تمثّلت في توق إلى محاكاة نماذج البيان العالي في الذكر الحكيم، وهو توقٌ وجد تعبيره في محاولات نُسبت إلى ابن المقفّع وغيره ممّن قيل إنّهم حاولوا مضاهاة البيان القرآنى. وأيًا كان القولُ في صحّة هذه المحاولات فإنّ ماهو حقيقة لايدانيها الشكّ أنّ الأفق الجمالي القرآنى كان ماثلاً في الذهنية العربية على مدى عدة قرون، وقد عمل في صورة الحافز المنشّط على الارتقاء بنماذج البيان الغربي جملة.

– الثانية وجهة درْسيّة جعلت همّها في محاولة الإجابة عن هذا السؤال : ما الذى يجعلُ بعض صور الكلام خيراً من بعض، ومن ثم : ما هذا الذى يجعل أسلوب القرآن الكريم «يَعلُو ولا يُعلى عليه»؟

وقد نصيب في القول إن السؤال عن ماهية البلاغة قد بدأ في أواخر القرن الهجريّ الأوّل ومطلع القرن الثاني. ثمّ إنهّ بين الجاحظ (ت255 هـ) وعبد القاهر الجرجانى (ت 471 هـ) تطوّر درسُ البيان العربيّ تطوراً كبيراً، أحتل فيه عبد القاهر عليا درجات السلّم. وقد ألّف – في جملة ما ألّف – كتابين في صميم الدّرْس البلاغيّ المتميّز : دلائل الإعجاز، أسرار

البلاغة والحق أنّ عبد القاهر كان، حتى وقت تأليفه الكتابَيْن، خيرَ من تلمّس أسسَ البيان العربيّ، وحدّد جماليّات الفنّ الأدبيّ عند العرب في دلالات التراكيب وفي التصوير البيانيّ المتمثل في التشبيه والمجاز والكناية. ثم جاء بعده عالم آخر لا يقلّ عنه، هو أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت626 هـ) الذى خصّ الدّرس البلاغيّ العربيّ بشطرٍ من كتابه القيمٌ «مفتاح العلوم». ويتمثّل إسهامه في تهذيب مسائل البلاغة وتركيب أبوابها وفق عقلية منطقية تتّسم بقدر كبير من التعمّق والتقصّي، وإن ضاعف ذلك الابتعادَ عن النصّ والإغراق في التجديد. وظلّ منْ جاء بعده يدور في فلكه ويعشو إلى ضوء ناره.

ومهما يكن، فإنّ ضرورة إلمام دارس العربية بقواعد البلاغة العربية تتجلّي في عدّة أمور :

1 - أنّ الإلمام بهذه القواعد يمكّن الدارس من إدراك حقيقة التفوّق الذى تخطى به العربية بين اللّغات جميعاً. ذلك أنّ جمهرة العرب والمسلمين يقولون بهذا التفوّق، لكنّ رأيهم هذا محكومٌ بنظرة عاطفية مبعثها احترامٌ لكتابِ الله وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام التي صيغت بهذه اللغة الكريمة لكنّ قليلين هم الذين يدركون حقًا جمال العربية وأسرارها وقدرتها التعبيرية العالية، ولعلّ نفراً محدوداً من المتحدّثين بالعربية اليوم يدركون أنّ العربية تعبرٌ من خلال الصياغة والتراكيب إلى جانب تعبيرها من خلال الدلالات اللغوية للمفردات، وهى تنفرد بهذا بين لغات الأرض، فيما نعلم.

2 - أنّ الإلمام بهذه القواعد يساعد المسلم، أو الدارس جملةً، على فهم

كتاب الله سبحانه وإدراك شيماء من الجمال والجلال في أساليبه. وما هذا بالمطلب الهيّن! فإنّه من هذه النقطة أنطلق ركبُ الحقّ على هذه الأرض، ومن هذه الومضة أشرقت الأرضُ بنور ربّها، ومن هذه الرحمة استظلّت الإنسانية بعدالة السماء، فالعربُ الذين غيّروا وجه الدّنيا في قليلٍ من السنين كان قد ازدهاهم قبل ذلك البيانُ القرآني الذي كان يأتيهم به محمّد عليه الصلاة والسلام، فإذا بهم يغدون فرسانَ النهار رهبان الليل؛ وما ذلك إلاّ لأنّ العربيّ فهم النصَّ القرآني فهماً خاصّاً جعله مستيقناً تماماً أنّ هذا الكلام ليس في طوق البشر، وأنّه من عند قيوّم السموات والأرض لا محالة، وأنّ الأوامر والنّواهي التي ينطوي عليها ينبغي أن تنفّذ عليها ينبغي أن تنفّذ بأقصى قدر من الدقّة. ولا نخال ذلك يغيب عن دارس لأسلوب الّذكر الحكيم مقارنٍ بين صورته المكيّة وصورته المدنيّة، ففي مستطاعنا القول دون حرج إن التنزيل المكيّ خاصة صاغ نفوس المسلمين الأوائل صياغةً جديدةً بعد أن اقتلع منها نوازع الشّرك والوثنيّة، وأعدّها لتلقّي التّنزيل المدني في أسلوبه الهادئ الرزين الجامع بين وداعة الإيمان وبرْد اليقين.

3 - أنّ الإلمام بهذه القواعد يمكّن المدرِّس أو الباحث من توصيل ما يريد توصيله من فِكَر إلى الآخرين، وكذا إدراك حقيقة ما يريده الآخرون فيما يحاضرون ويؤلّفون. وقد نكون غير مخطئين إن نحن قلنا إنّنا نستخدم في لغتنا المحكيّة معظم القواعدِ البلاغية دون قصدٍ إلى ذلك، لكنّنا حين نشرع في المحاضرة والتّأليف نجد صعوبة بالغة في ذلك؛

لانشغالنا بضرورة أن يأتي كلامنا فصيحاً؛ ممّا هو على قدر كبير من الصعوبة بالنسبة إلى معظمنا.

4 – أنّ الإلمام بهذه القواعد يبصّر جمهرة العرب والمسلمين بقيمة هذه اللغة. وحين يعرفون هذه القيمة يلزمون هذه اللغة ويعضّون عليها بالنواجذ وفقَ قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : «يابن عبّاس، عرفتَ فالزمْ». وحين يلزمون جميعاً هذه اللغة ويؤدّون لها ما لها من حقوق عليهم يكونون قد قوّوا آصرة من أقوى الأواصر تشدّ بنيانهم وتسدُّ كيانَهم، وهي آصرة اللغة الواحدة الأثيرة إلى القلوب، التي شاء سبحانه أن تكون لغة خطابه للبشر.

وقد هيّأ الله – سبحانه – أن نُعدّ هذا الكتابَ لدارسي اللغة العربية من طلبة أقسام اللغة العربية في الجامعات ومن سواهم ممّن ينشدون تعرّفَ البيان العربيّ والوقوفَ على أسراره. وراعينا أمراً نراه على قدر كبير من الأهمية، وهو إيضاحُ القاعدة البلاغية وإبانة الأساس الذى قامت عليه أو استنبطت منه، وأكثرنا من الشواهد والأمثلة التي تنتصر للقاعدة وتشدّ أزْرَها. وآثرنا أن تكون الشواهدُ موزّعةً بين الذكر الحكيم وروائع الشعر العربيّ. وعمدنا في الأعمّ الأغلب إلى تلخيص القضيّة البلاغيّة المعروضة بعد تفصيل القول فيها ممّا يساعد على التّحصيل. وختمنا كلَّ مبحث بطائفةٍ لا بأس بها من الأسئلة تمثّل لمادّة البحث المقدّمة، وأثبتنا إجابات هذه الأسئلة على الترتيب الذى جاءت عليه الأسئلة نفسها. ولدينا يقين من أنّ مثل هذا المسلك سيجعل الدارس أقدرَ على التمكّن من إدراك المعلومة المقدمة وأجرأ على ممارسة القاعدة في تضاعف ما ينشىء من الكلام،

وواقع الحال أنّ الدّارس كان ماثلاً أمامنا عند إثبات كلّ معلومة نسوقها في هذا الكتاب، فهو الهدف الأول والهدف الأخير.

ونستطيع أن نقول مطمئنّين إنّ هذا الكتاب قد أتى على كلّ مباحث ما عُرف في عصرنا بـ «علوم البلاغة العربية»؛ ومن هنا جاءت تسميتنا إيّاه : «الكافي في علوم البلاغة العربية».

وقد ضمنّا الكتابَ مقدّمةً عن دلالة كلّ من الفصاحة والبلاغة جعلناها بمثابة التمّهيد لعرض قضايا البلاغة العربية. وجعلنا الكتاب نفسه في ثلاثة أقسام، أطلقنا على كلّ منها أسم «كتاب»؛ ومن هنا كنتَ أمام: الكتاب الأول في علم المعانى، والكتاب الثاني في علم البيان، والكتاب الثالث في علم البديع، وفي مباحث خاصة كان لنا إسهامٌ واضح المعالم في الحديث عن جماليّات كلّ محسِّن معنويّ ولفظيّ، مما لا يظفر به كتاب آخر، فيما نعلم.

وقد حرصنا على أن نقدّم للدارس مفصّلاً لعناصر المادّة المقدَّمة في كلّ مبحث قبل البدء بالمبحث نفسه، ممّا يمكن أن يسمّى فهرساً داخلياً، فضلاً عن الفهرس الشامل في نهاية الكتاب.

وإن بقيت لنا من حكمة نقولها هنا فهى أنّ هذا الكتاب جاء ثمرةَ أُلفةٍ وتآخ استمرّا أربع حجج كنّا فيها ندرّسُ علوم العربية في قسم اللغة العربية في جامعة الجبل الغربي (الزنتان)، وكان هاجسنا واحداً، يشهد الله، وهو خدمة لغة القرآن الكريم ورفعُ راية البيان العربيّ. وإن ما ننشده نشدان البدوى لضالّته هو أن يفيد محبّو العربية من هذا الجهد المتواضع، «وما ذلكّ على الله بعزيز».

اللهم، أجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيّامنا يوم نلقاك. والحمدُ لله أولاً وآخراً

غرّة رمضان المبارك ١٤٠٢ هـ

٢٢ – النوار ١٩٩٣ م

المؤلفـــان

إطـــلالة على تاريخ التأليف البــلاغي
عنـــد العـــرب

موجز تاريخ التأليف البلاغي عند العرب :

عُرفتْ الأحكامُ الجمـاليّة على إبداعـات الشّعـراء ومـدى إصـابتـهم الأغراضَ التي يقصدون إليها في القول، قبلَ الإسلام بغير يسير من الزّمان. فإنّ الأخبار تذكر أنّ النّابغة الذّبياني كانت تُضربُ له قبّةٌ أدَم في سوق عكاظ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرض عليه أشعارَها، فيُصدر عليها أحكامَه التي تصوّر الدّرجةَ التي بلغها تجويدُ الشّاعر. وحديثه مع الأعشى وحسّان والخنساء مشهور متداول. وأيّاً كان حظُّ أمثال هذه الرّوايات من الصّحة ففيها إشارة إلى أنّ الرعيل الأوّل من العلماء الذين روَوا أشعارَ العرب في جاهليتها كانوا على شبه يقين من أنّه كان بين عرب الجاهلية مَنْ ينظر في الأشعار ويفعِل ملكته النّقدية في تمييز جيّدها من رديئها. وإن لم يتجاوز ذلك الانطباعاتِ الذوقية الأوّلية التي يُعوزها في معظم الأحوال التّعليلُ والتّفسير. وليس لنا طبعاً أن نطلب من القوم ما لا يُنتظر من أمثالهم.

وما نخاله صحيحاً كلَّ الصّحة أنّ العرب الذين حلّ التنزيلُ بين ظهرانيهم أدركوا قدراً هائلاً من جماليّات البيان العالي في أسلوب القرآن الكريم، وهو ذلك القدر الذي يجعل منهم بُصراءَ بموالج الكلام ومخارجه، ومدركين بعض مناسبات التراكيب للأحوال التي تُقال فيها.

ومنذ مطلع النّصف الثّاني من القرن الهجريّ الأول تقريباً يلحظ الدّارسُ إندياج دائرة الأحكام الجمـاليّة على روائع الشعر العربيّ. إذ يخبرنا المؤرّخون عمّا يشبه «المنتديات الأدبيّة» أو المجالس التي تضمّ في جنباتها عدداً من جهابذة الفنّ الشعري وأساطين البيان. وما حديث

اجتماع جرير والفرزدق وكثيِّر وجميل ونُصَيب في ضيافة السيِّدة سكَينة بنت الحسين بن عليّ في المدينة وحكمها على نماذج من أشعارهم بالحديث المرجَّم. وكذا الشأن في الأحكام التي أصدرها ابنُ أبي عتيق، ناقد الحجاز، على أشعار عمر بن أبي ربيعة وسواه.

وبدءاً من آخر القرن الهجريّ الأول تقريباً كنتَ تلحظ التفاتَ أنظار العلماء قبل كلّ شيء إلى تبيُّن مزيّة القرآن الكريم على كلّ قول، والبحثِ عن مصدر الخلاَبة والروعة في آي الذكر الحكيم؛ حتى تطوّر ذلك فيما بعد إلى الاستدلال على ماهية الإعجاز البياني في كتاب اللّهِ سبحانه. وطبيعي أن يعمل ذلك كلُّه على توجيه الأذهان إلى معرفة الخاصّيات الأسلوبية لأنواع الكلام، وتغيّر الدلالات تبعاً لأنواع المقال، والمزايا التي تنفرد بها الصّورُ الكلامية المختلفة. وكان من ذلك كلّه بداياتٌ لما يشكّل اليومَ «علوم البلاغة العربية». وإليك بعضَ النّقاط المضيئة في الطريق الذي سلكه البحثُ البلاغيّ العربّي حتى آل إلى صورته التي هو عليها اليوم :

- *في القرنين الثاني والثالث الهجريّين* برز في ساحة البحث البلاغي ثلاثةُ أساتيذ أغنَوا هذا البحث بمؤلّفات على قدرٍ كبير من الأهمية. وهؤلاءهم:

1 - أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى (ت 209 هـ) :

وهو لغويّ بصريّ، تتلمذ على يونس بن جيب شيخ سيبويه، وتتلمذ عليه نفرٌ من علماء العربية الكبار كأبي عبيد القاسم بن سلاّم وأبي حاتم والمازني.

ويتمثّل جهدُه في البلاغة العربية في مصنّفه المسمّى «مجاز القرآن»،

الذي عرض فيه طرائق تأدية المعاني في القرآن الكريم، أو ما يسمّى «الأساليب». والمجازُ عنده أعمّ كثيراً مما تفهمه منه اليوم.

2 – أبو عثمان عمرو بن بحرا الجاحظ (ت 255 هـ) :

وهو رأسٌ من رؤوس الاعتزال، وصاحب قلم سيّال أثرى المكتبة العربية بأنفس ماتتباهى به. والجاحظ عبقريّةٌ عربية تركت من المؤلّفات الجمَّ الغفير. وينطوي كتابُه الرائع «البيان والتبين» على ما يُعدّ أصولاً ممتازة لعلم البلاغة. فقد ضمّنه حديثاً عن الفصاحة والبلاغة والطبّع والصّنعة ونماذج من البيان العالي في كلام العرب الفصحاء وأشعارهم وخطبهم وأسجاعهم إلى نبذ من كلام الأعراب.. وكان في تضاعيفه مدافعاً ممتازاً عن بلاغة العرب وبيانهم. ويُنسب إليه أيضاً كتابٌ في «نَظْم القرآن» لم يُظفر به إلى اليوم، فيما نعلم. ويوحي العنوان بانتساب هذا المصنّف إلى فئة الكتب المهتمة بطرائق التعبير، كما لا تخلو كتبه الأُخر من حديث عن البيان وآلاته.

3 – أبو العبّاس عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل (ت 296 هـ) :

تتلمذ على شيخي المدرستين : المبرِّد وثعلب، واحتلّ في الشعر منزلا عليّا، وكان من أدباء عصره الذين تجتلهم الأعينُ شرقاً وغرباً.

ألّف كتاب «البديع»، وجمع فيه سبعة عشر نوعاً بديعياً. وقال في مفتتحه : «وما جمَع قبلي فنونَ البديع أحدٌ».

– في القرن الرابع الهجري

نهض بأعباء الدّرس البلاغي ثلاثة أعلام أيضاً، وهم :

1 – قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) :

وهو مؤلّفُ كتاب «نقد الشعر»، الذي عرض فيه حدَّه للشعر، وأسباب تقديمه، والنعوت المستحسنة لكلّ من اللفظ والوزن والقافية، وخصّ الترصيع بعناية خاصّة. ثم عرض للمعاني التي يدلّ عليها الشّعرُ والمستجاد في كلّ معنى. وأضاف إلى ما ذكر ابن المعتز من أنواع البديع ثلاثة عشر نوعاً هي : التقسيم، والترصيع، والمقابلات، والتّفسير، والمساواة، والإشارة، وائتلاف اللفظ مع الوزن، والتمثيل، والتوشيح، والإيغال، وائتلاف المعنى مع الوزن، وائتلاف القافية، والإرداف.

أمّا كتابه «جواهر الألفاظ» فقد جمع فيه ألفاظاً وعبارات مترادفة مع تساوقها في الوزن أو القافية، أو في الاثنين معاً. وذكر في مقدّمته طائفةً من الأنواع البديعية.

ويُنسب إليه كتاب ثالث هو «نقد النّثر»، وقد عرض فيه لكثير من الأنواع.

2 – أبو الحسن علىّ بن عبد العزيز الشهير بالقاضى الجرجانى (ت366 هـ) :

شاعر مبدعٌ، وناقد بصير، ألّف في نقد الشعر كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه». وهو من الكتب القيّمة في بابه، وقصد من تأليفه الحدّ من غلواء الهجوم على المتنبي من جانب ناقدي شعره. وقد عرض لأخطاء

فحول شعراء الجاهلية وأثبت بعض النماذج المستجادة لديه من أشعار العرب. وركّز اهتمامه على شواهد الاستعارة الحسنة والقبيحة، وعرض لضروب من الجناس والتقسيم، ومثّل لكلّ منها، وأوضح كثيراً من محاسن الشعر وعيوبه، ووقف عند التشبيه، وعرض بعض نماذجه الممتازة، وأنهى الكتاب بالحديث عن السرقات الشعرية.

3 - *أبو هلال الحسَن بن عبد الله العسكريّ* (ت 395 هـ) :

وهو مؤلّف كتاب «الصّناعتين» أي صناعة المنثور وصناعة المنظوم. وقد ضمّن كتابه حديثاً عن البلاغة والاختلاف في المراد منها. وجعل الكتاب أبواباً تناول فيها : تمييز جيّد الكلام من رديئه، ومعرفة صناعة الكلام، وحسن السّبك وجودة الرّصف، والإيجاز والإطناب، والسّرقات الشعرية، والتشبيه، والسجع والازدواج. وفي مجال البديع أضاف إلى ما أتى به سابقوه سبعه أنواع هي : التشطير، والمجاورة، والتطريز، والمضاعفة، والاستشهاد، والتلطّف، والمشتق.

- *في القرن الخامس وفي أواخر الرابع* يصادفنا أربعة علماء كان لهم فضل كبير على الدّرس البلاغي، وهؤلاء هم :

1 - *القاضي أبو بكر محمد بن الطّيّب الباقلاني* (ت 403 هـ) :

وهو مؤلّف كتاب «إعجاز القرآن» الذي قصد منه أن يبيّن جوانب الإعجاز البياني في كتاب اللّه سبحانه. وعرض، فيما يتصل بالبلاغة، للاستعارة، وحسن التشبيه، والغلوّ، والمماثلة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والإيغال، والتوشيح، والتكافق، والكناية، والتعريض، والعكس، والتبديل، والاعتراض، والرجوع، والتذييل،

والاستطراد،والتكرار. وذكر لكلّ نوع من هذه الأنواع شواهد وأمثلة.

2 - *أبو الحسن محمد بن الطاهر المعروف بالشريف الرّضيّ (ت 406 هـ) :*

ألّف فيما ينتسب إلى العلوم البلاغة كتابين رائعين هما : «تلخيصُ البيان عن مجازات القرآن» و«المجازات النّبوية». وقد جمع في الأخير طائفة من كلام المصطفى عليه الصلاة والسلام مما لم تُسبَق إليه. ويدير حديثه فيه حول الدلالة الوضعية للّفظ، ثمّ الدّلالة المجازية التي أكسبه إيّاها الاستعمال اللاحق.

3 - *أبو عليّ الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) :*

ألّف كتاب «العُمْدَةَ في محاسن الشعر وآدابه». وقد ضمّنه طائفةً من الآراء في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه. وعرض لفضل الشعر، ومَنْ رفعه الشعرُ ومَن وضَعَه، ومن قضى له ومن قضى عليه، وشفاعات الشعراء، واعتداد القبائل بشعرائها ، والفأل والطيرة في الشعر. وخصّ بأبواب مستقلّة كلاً من البلاغة، والإيجاز، والبيان، والنّظم، والبديع، والمجاز، والتّمثيل والتّشبيه، والإشارة وأنواعها، والتّتبيع، والتّجنيس، والتّصدير، والمطابقة، والمقابلة، والموازنة، والتقسيم... الخ.

4 - *الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ):*

صنّف في البلاغة كتابين من أجود ما كتب في الموضوع إلى اليوم، وهما :

«دلائلُ الإعجاز» و«أسرارُ البلاغة». وإليه يعود الفضلُ في تفصيل كثير من المباحث فيما يُعرف اليوم باسم «علم المعاني» و«علم البيان»، على نحو

لاتجد نظيراً له فيه. وعن صنيع الجرجاني في أسرار البلاغة يقول المستشرق هلموت ريتر محقّق الكتاب في مقدّمته القيّمه له باللغة الانجليزية: «وهكذا فإنّ الكتاب رائعةُ الأدب العربيّ، لا من حيث مضمونُه وتحليله العميق للإبداع الشعري فحسب، بل من حيث أسلوبه أيضاً».

والحق أنّ ما أتى به الشيخ عبد القاهر في الدلائل والأسرار خليقٌ بأن يجعل منه واضعَ أساسِ البنيان لعلمي المعاني والبيان.

– *وفي القرن السادس* جار الزّمان بنابغة عصره الذي أضاف إلى البلاغة العربية ما يزدان بهِ جيدُها إلى اليوم. وذلكم هو جارُ اللّه محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ).

والزمخشريّ هو صاحب تفسير القرآن الكريم المسمّي بـ «الكشّاف»، ومؤلّف كتاب «أساس البلاغة». ويُعدّ الكشّاف خيرَ مصدرٍ لدراسة أسرار العربية وأساليبها في الحقيقة، والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، بل يعدّ كشفاً في الدرس البلاغي التّطبيقيّ.

أما كتابه الثّاني «أساس البلاغة» فقد انفرد في نوعه، وعمد فيه الزمخشريّ إلى موادّ اللغة العربية واحدة فواحدة، يوضح في كلّ مادّة الاستعمالات الحقيقية لها ثم يبيّن تطوّرها الدلاليّ بطريق المجاز. وقد استحق الزمخشريّ أن يقال فيه وفي السكاكي : «لولا الأعرجانِ لجُهلت بلاغةُ القرآن».

– *في القرن السابع* يتقدّم لخدمة البلاغة العربية عالمان كبيران أسهما في تطوّر الدّرس البلاغي على نحو واضح، وهما أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت 626 هـ) وضياء الدين بن الأثير الجَزَري (ت 637 هـ).

أمّا السكاكي فقد كان متأثراً بالدرس الفلسفي الذي شبّ على تلقّيه وأولع به كثيراً فترك مياسم واضحة في كلّ ما ترك من مؤلّفات. وكان مأخوذاً بضرورة أن يكون التعريف الذي يقدّمه لأية قضيّة جامعاً مانعاً، كما يقول أهل الاستدلال.

ومهما قيل في شأن الاتجاه المنطقي المسرف في تناوله للبلاغة، فإنه يظلّ - بأهلية تامّة - صاحبَ السّبق إلى دراسة علوم البلاغة بوصفها مادّة علمية لها أصول وقواعد وضوابط. وقد أسدى للبلاغة ماظلّت مدينةً له به إلى اليوم : حين حدّد الأنواع وضبطها على نحو دقيق، وأرجع كلّ فرع إلى أصله مما لا يُبقي زيادةً لمستزيد. وقد جاء إسهامه الممتاز هذا في تضاعيف كتابه «مفتاح العلوم» الذي أودعه خلاصة رائعة لعلم الصرف، وعلم النحو، وعلوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وعلم الاستدلال (المنطق)، وعلم العروض والقافية.

وإن أُخذ على الرجل شيءٌ فهو أنّه مال إلى التّجريد ونأى نسبيًا عن النصوص الحيّةِ الممثّلة للقواعد؛ ممّا جعل الدارسين في العصور التالية يأنسون في أسلوبه أثارةً من جفاف المنطق وبرودة التعقيد.

وأمّا ضياء الدّين بن الأثير، فقد ألّف فيما له صلة بالبلاغة كتابه المشهور «المثَلُ السّائر في أدب الكاتب والشاعر» وكتاباً آخر هو «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور». وقد تضمّن «المثل السائر» مقدّمة ومقالتين، انطوت المقدّمة على حديث عن أصول البيان، وتضمّنت المقالتان الحديث عن فروع البيان، وقد خصّص الأولى للصناعة اللفظية والثانية للصناعة المعنوية. أمّا «الجامع الكبير» فقد انطوى على كثير من

المباحث البلاغية. وقد سمّى ضياء الدين مباحث البلاغة جميعاً «علم البيان».

- *وفي القرن الثامن* شهد تاريخُ البحث البلاغي انعطافاً نحو الشرح والتعليق والإيضاح، يجعل بعض مصنّفات السابقين أساساً يُبنى عليه ويضاف إليه. وفي طليعة مَنْ نهج هذا المنهج في التأليف البلاغي في هذا القرن الإمامُ جلال الدين قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت 739 هـ) . وقد بدا له أنّ التأليف بين طريقتي عبد القاهر في «الدلائل» و«الأسرار» والسكاكي في «المفتاح» يمكن أن يفيد الدرسَ البلاغي كثيراً. وهكذا باشر عمله بتلخيص القسم الثالث من «مفتاح العلوم» للسكاكي، وضمّنه ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ورتّبه على نحو يجعله أقربَ تناولاً. وأغنى ذلك بكثير من الفوائد التي انطوت عليها كتبُ القوم. وسمّى ملخّصه «تلخيص المفتاح»، وعُرف اختصاراً بـ «التلخيص». وبعد الانتهاء من التلخيص رأى أنه بالغ في الاختصار حتى كادت الفائدة المرجوّة تذهب، فوضع كتاباً آخر أطلق عليه اسم «الإيضاح». ومما قاله في مقدّمته : «أمّا بعد، فهذا كتابٌ في علم البلاغة وتوابعها ترجمتهُ بالإيضاح، وجعلتُه على ترتيب مختصري الذي سمّيتهُ تلخيص المفتاح، وبسطتُ فيه القول؛ ليكون كالشرّح له، فأوضحتُ مواضعه المشكلة، وفصّلتُ معانيَه المجملة، وعمدت إلى ماخلا عنه المختصَر مما تضمّنه مفتاح العلوم، وإلى ماخلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإلى ماتيسّر النظر فيه من كلام غيرهما،

فاستخرجتُ زبدةَ ذلك كلّه وهذّبتُها ورتّبتُها.. ».

وقد توقّف الإبداعُ في التأليف البلاغي عند النقطة التي انتهى إليها الخطيب، وتقاصرت همم القوم عند اختصار كتاب مسهَب أو إطالة كتابٍ مختصر. وتلك حال جميع شرّاح «تلخيص المفتاح» على كثرتهم.

أمّا في عملنا في هذا الكتاب فقد اعتمدنا «التلخيص» وجعلناه الأساسَ الذي بنينا عليه في المادّة العلمية وفي الترتيب، وأضفنا إلى ذلك إضافات استمددناها من بطون المصادر.

الفصاحة والبلاغة
تحديد وبيان

تمهيد في معني الفصاحة والبلاغة :

لا غنى لدارس البلاغة العربيّة عن الإلمام بمفهوم كلّ من الفصاحة والبلاغة؛ لأنّ الكلام المتحقّق بهاتين الصفتَيْن صنفٌ ممتازٌ من الكلام، والمتكلّم المتحلّي بهاتين الخَلّتين ظافرٌ بشَرَف لايدانيه شرف. ومن هنا قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : «أنا أفصحُ العربِ بَيْدَ أنّي مِنْ قُرَيش».

الفصـــاحة :

أمّا الفصاحة - لغةً - فتدلّ على جملة معانٍ، تدور جميعاً في فلك البيان والوضوح؛ إذ تقول العرب : يومٌ فِصْحٌ ومُفْصِحٌ، أي لاغيمَ فيه ولاقُرّ. وأفصحَ اللّبَنُ، أي ذهبتْ رَغْوتُهَ أو انقطع اللُّبَأ عنه. وأفصح الصُّبحُ: استبان. وأفصحَ الرجلُ : بيّن. وفي سياق الحديث عن الكلام والمتكلّم يقولون : الفصاحة : البيان. واللفظُ الفصيحُ : ما يدُرَك حُسْنُه بالسّمع. وفصُح الأعجميُّ : تكلّم بالعربيّة وفهُم عنه، أو كان عربيًا فازداد فصاحةً.

ويستفاد من الدلالة اللغويّة في الأمثلة السابقة أنّ الفصاحة تعني : الانكشافَ والظهورَ والوضوح في الأشياء. أمّا في الصّنْعة الكلامية فتعني انكشاف دلالة الكلام، وظهور حُسْنه لمتلقّيه.

وعند البلاغيّين يوصف بصفة البلاغة ثلاثة أشياء :

الكلمةوالكلاموالمتكلّم.

فيقال : كلمةٌ فصيحةٌ، وكلامٌ فصيحٌ، وكاتبٌ فصيحٌ، وشاعرٌ فصيحٌ. وإليك تفصيل القول في كلّ منها :

فصاحة الكلمة :

تعني فصاحة الكلمة عند البلاغيين براءتَها من خمسة أشياء يعدّونها عيوباً :

أولاً – تنافر الحروف : وهو وصف في الكلمة ينشأ عنه ثقلُ الكلمة على اللّسان وعسرُ النّطق بها. وغالباً ما يكون مبعث ذلك تقارب مخارج حروف الكلمة. على أنّ التنافر ضربان :

(أ) شديد يصعب معه النّطقُ بالكلمة، كألفاظ «الظّشّ» بمعنى الموضع الخشن، و«الهُعْخُعْ» وهي كلمة جاءت في قول قول أحد الأعراب وقد سئل عن ناقته فقال : «تركتُها ترعى الهُعْخُعَ». وقد تكون كلمة «الهعخع» مخترعةً للتدليل على ثقل بعض نماذج الكلم. فقد ذهب بعضُهم إلى القول إنّ هذه الكلمة «معاياةٌ، ولا أصلَ لها».

(ب) خفيف لا يأنس النّاطق بالكلمة المنطوية عليه صعوبة كبيرة في نطقها، كلفظ «مُسْتَشْزَرات» في قول امرىء القيس يصف شعر حبيبته :

غدائرُهُ مُسْتَشْـزَراتٌ إلى العُلا مَمضِلُّ العِقاصُ في مثنّى ومرسَلِ

«مستشزرات» أي مرفوعات. يصف الشاعر شَعْر ابنة عمّه بالغزارة فيذكر أنّ غدائره مشدودة على الرأس، وأنّ مجموع الشعر منه عِقاصٌ أو غدائر، ومنه مُثنّى (مفتول)، ومنه مرسَل دون فتْل، وأنّ العِقاص تغيب في الأخيرَيْن. ومراد الشاعر على الجملة : وفورُ شَعْرها، وجمال وضعه. وقد

لاحظ بعض الدارسين أنّ في صوت كلمة «مستشزرات» تصويراً دقيقاً لمعناها؛ أي إنّ التفشّي الذي نلحظه في صوت الشين وانتشار الهواء وامتلاء الفم عند النطق به توحي بانتشار الشّعَر وتشعيثه وذهابه في كلّ وجهة.

ثانيا ـ الغرابة : وهي أن تكون الكلمة حُوشيّة غير ظاهرة المعنى. ومصدر الغرابة أمران :

(أ) عدم تداول الكلمة في كلام العرب الفصحاء؛ مما يقضي التّنقيب عن معناها في معاجم اللغة. وقد تسعف المعاجم ببيان معنى الكلمة الغريبة، كالذي نجده في كلمتي «تَكَأْكَأْتُم» و«افرَنْقعوا» اللتين جاءتا في قول عيسى بن عمر النّحوي، وقد سقط عن دابّته، فاجتمع عليه النّاس فقال: «مالَكُمْ تَكَأْكَأْتمْ عليَّ كتَكَأْكُئِكُمْ على ذي جِنَّة، افرَنْقعُوا عنّي». ومعنى تَكَأْكَأتمُ » اجتمعتُم» ومعنى «افرَنْقُعوا » انصرفوا. وكالذي نجده في كلمة «رَخَاخ» في قول العرب : «نحنُ في رَخَاخٍ من العيش» أي : رَغَدٍ وهناءة. وربّما لاتُسعف المعاجم ببيان معنى الكلمة الموسومة بهذه الصفة، كما في كلمة «جَحَلّنْجَع» التي جاءت في قول أعرابّي :

– مِنّ طمْحَةٍ صبيرُها جحلّنْجع –

ويبدو أنه لم يعثر على معنى لهذه الكلمة حتى الآن.

(ب) صعوبة إدراك المراد منها في السّياق الذي ترد فيه، مثل كلمة «مسرّجاً» في قول العجّاج :

أيّامَ أبدَتْ واضحاً مفلّجا   أغرّ برّاقاً وطَرْفاً أدْعَجا

ومقلةً وحاجباً مُزَجّجا   وفاحماً ومَرْسَناً مُسَرَّجا

فقد وصف الشاعر حاجبَ محبوبته بأنّه مدقّق طويل، وشَعْرَها بأنّه حالكٌ كالفحم، وأنفَها «المَرْسَنِ» بأنّه «مُسَرَّج». ويصعب على المتلقّي أن يدرك بدقة ما يريد الشاعر بهذه الصفة «مسرَّج». وهذه الصعوبة جعلت المفسّرين القدماء يذهبون إلى التّأويل : فقال فريق إنّ الشاعر شبّه أنف محبوبته في الدقة والاستواء بنوع من السيوف يُعرف بـ «السُّرَيجيّ»؛ نسبةً إلى حدّاد مشهور يسمّى «سُرَيْجا». وذهب فريق آخر إلى أنّه شبّه أنفها في البريق واللمعان بالسِّراج. ومهما يكن، فإنّ الكلمة غير ظاهرة المعنى؛ وهي من ثمّ غريبة مفتقرة إلى صفة الفصاحة.

ثالثاً – مخالفة الوَضْع : وهي أن تكون الكلمة مخالفة لاستعمال الواضع الأول سواء أكانت مخالفة للقياس الصرْفي أ لا. ومما جاء مخالفاً للوضع والقياس معاً كلمة «بُوقَات» في قول المتنبي يمدح سيف الدولة الحمدانّي :

فإنْ يكُ بعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ   ففي الناس «بُوقاتٌ» لَهَا وطُبولُ

و«بوقات» في البيت جمع «بُوق» بمعنى المزمار. وعلى الجملة فكلمة «بوقات» هنا غير فصيحة؛ لمخالفتها ما ثبت عن واضع الألفاظ للمعاني ومخالفتها القياس الصّرفي؛ إذ يقضي كلٌّ منهما بأن تجمع على «أبواق».

ومثلها كلمة «حنَات» جمع «إحْنَة» في قول الطِّرِمّاح :

وأكرهُ أنْ يعيبَ عليّ قومي   هِجايَ الأرذلينَ ذوي «الحِنَات»

أراد بالحِنات الأحقاد. لكنّ هذه الكلمة غير فصيحة؛ لمخالفتها ماثبت عن الواضع ومخالفتها القياس الصّرفي؛ إذ يقضي كلٌّ منهما بأن تُجمع على«إحَن».

وتظلّ الكلمة غير فصيحة عندما توافق القياس، ولكنّها تخالف ما ثبت عن الواضع، كالفعل «يَأبِي» مضارع «أبَى»؛ إذ هو فصيح لمخالفته ما ثبت عن الواضع، حيث الثابت عنه «يَأبى» بفتح الباء لا بكسرها، هذا رغم موافقته للقياس الصّرفي.

رابعاً – الكراهة في السّمع : وهي أن يكون بنية الكلمة من أصوات يشكّل التئامُها صيغة لفظية تأنفها الأذواق وتمجهّا الأسماع، مثل كلمة «النُّقاخ» (أي الماء العذب) في قول الشاعر :

وأحمق ممّنْ يكرعُ الماءَ قال لي : دَعِ الخمرَ ، واشربْ مِنْ نُقاخٍ مبرَّدِ

ومثل كلمة «الجِرِشّى» (أي النفس) في قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

مباركُ الاسمِ أغرُّ اللّقَبْ كريمُ «الجِرِشّى» شريفُ النَّسَبْ

فكلمتا «النُّقاخ»و«الجِرِشّى» مما لا يستسيغه الذوق.

خامساً – الابتذال : وهو أن تكون الكلمة سوقية أبلاها التكرارُ ولاكتها الألسنُ حتى مجّها الذوق وعافها الطبع السليم. ومنْ ذلك الفعل «تَفَرْعَنَ» في قول أبي تمام:

جلَيْتَ والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صفحتِهِ وقد تَفَرْعَنَ في أفعالِهِ الأجَلُ

فالفعل «تَفَرْعنَ» المشتق من اسم «فِرْعَوْن» من ألفاظ العامة؛ إذ من عادتهم أن يقولوا : «تَفَرْعن فلانٌ». ومن ذلك أيضاً كلمة «قابري» في قول

أبي تمّام :

قد قلتُ لمّا لجَّ في صدِّهِ : اعطفْ على عبدِكَ ياقابري

يقول ابن سنان الخفاجي : «قابري من ألفاظ عوامّ النّساء وأشباههنّ».

ومعنى قابري : قاتلي ومدخلي القبر.

وجملة القول أنّ فصاحة الكلمة تعني كما يقول بعضهم :

أن تكون ليّنةً سهلة النطق تتجاوز أصواتها تجاوزاً هادئاً تتجاوب فيه وتتلاقى أنغامها، وأن تكون مألوفةً جرت على الألسنة ورنّت أصداؤها في محافل الشعر والأدب، وأن تكون واردةً على قواعد تصريف الكلمات.

فصاحة الكلام :

يريد البلاغيون بفصاحة الكلام أمرين :

1 – فصاحة مفرداته؛ بسلامتها من عيوب الكلمة التي تقدّم ذكرها.

2 – تآلف هذه المفردات فيما بينها وتساوقها وسهولة إدراك العقل معانيها.

ويرون أنّ ذلك مشروط ببراءة الكلام من ستّة عيوب :

أولاً – تنافر المفردات داخل السياق : وهو وصف في كلمات التركيب الواحد، ينشأ عنه تعثُّر اللسان في النطق به؛ لصعوبة تدفّق كلماته على اللسان مجتمعةً. ومصدره : إمّا تجاور كلمات متقاربة الحروف، وإمّا تكرار كلمة واحدة. وقد تبيّن البلاغيون أن تنافر المفردات على ضربين :

(أ) شديد الثِّقَل، كعجز هذا البيت :

وقـــبرُ حـرب بمـكانٍ قـفرٌ   وليـس قـربَ قـبرِ حرْبٍ قبرُ

فكلمات الشطر الثاني متنافرة تماماً، حتى إنّ اللسان ليجهد في النطق بها.

ومثله قول الشاعر :

- في رَفْعِ عَرْشِ الشَرعِ مِثْلُك يَشْرَعُ -

(ب) خفيف الثقل، كصدر هذا البيت لأبي تمّام يعتذر لممدوحه :

كريمٌ متى أمدَحْهُ أمْدَحْهُ والورى   معـي وإذا مالُمــتُه لمتُهُ وحـْدي

قوله : «أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ» يثقل على اللّسان النطق به.

ثانياً - ضعف التأليف : وهو أن يكون تركيب الكلام مخالفاً للمشهور من قوانين النحو. ومن ذلك وصلُ الضميريْن، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف، كما في قول المتنبي :

خلَتِ البـلادُ منَ الغـزالةِ ليلَـها   «فأعاضَنَهـاكَ» اللّهُ كي لاتحـزنا

الغزالة : الشمس. أراد : خلت البلاد من الشمس ليلاً فعوّضها الله عن الشمس بك، لكي لا تحزن. وقوله في عجز البيت «أعاضهاك» مخالفٌ للمشهور من قوانين النحو، التي تقضي بالفصل بين الضميرين في مثل هذه الحال. ومن ثمّ هذا الكلام غير فصيح لضعف التأليف فيه.

ومن ضعف التأليف الإتيان بالضمير قبل ذكر مرجعه لفظاً ورتبةً

وحكماً، كما في قول حسان بن ثابت يرثي مطعم بن عديّ :

وَلَوْ أنّ مجداً أخلدَ الدهرَ واحِداً   من النّاسِ أبقى مجدُه الدهرَ مطعَما

ففي عجز البيت أتى الشاعر بالضمير (الهاء في مجده) قبل ذكر مرجعه«مطعما». وهكذا فعجز البيت غير فصيح لضعف التأليف فيه.

ثالثاً – التعقيد اللفظيّ : وهو أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه لعدم ترتيب ألفاظه على ترتيب معانيه. ومبعث ذلك في الكلام تقديمٌ أو تأخير أو حذف، أو غير ذلك مما ينشأ عنه صعوبةٌ فهم المراد. وهو على ضربين :

(أ) شديد، كالذي يتراءى في قول الفرزدق يمدح إبراهيم المخزوميّ خال هشام بن عبد الملك :

وما مثِلُهُ في النـاسِ إلاّ مملَّكاً   أبـو أمـِّهِ حـيٌّ أبـوهُ يقـارِبُهْ

كلّ الذي أراد الشاعر أن يقوله هو : ليس مثلُ هذا الممدوح في الناس في الناس حيٌّ يقاربه في الفضائل إلاّ ملكاً هو ابن أخت هذا الممدوح. ومصدر خفاء دلالة البيت عدم ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعاني في الذهن؛ وذلك بسبب :

(أ) وجود فاصل كبير بين البدل «حيّ» والبدَل منه «مثله».

(ب) تقديم المستثنى «مملّكاً» على المستثنى منه «حيّ».

(جـ) الفصل بين المبتدأ والخبر «أبو أمّه – أبوه» بـ «حيّ»

(د) الفصل بين الصفة «حيّ» والموصوف «يقاربه» بـ «أبوه».

ويذهب نفر من الباحثين إلى أنّ الفرزدق - الشاعر الفحل الخبير بطبائع اللغة وعوائد التراكيب - إنما قصد إلى هذا التعقيد تهكّماً بالمدح والممدوح. وعداء الفرزدق لبني أميه معروف.

ومن صوره أيضاً قول الشاعر يصف داراً بالية :

فأصبحتْ بعدَ خطَّ بهجتِها كأنّ قفراً رسومَها قلَما

والترتيب الصحيح على هذا النحو : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأنّ قلماً خطَّ رسوقها.

(ب) خفيف، كالذي يرسم لك ملامحه قول المتنبي :

جَفَخَتْ وهمْ لايجفخونَ بِها بِهِمْ شِيَمٌ على الحسَبِ الأغرِّ دلائلُ

أراد : جفخت (افتخرت) بهم شيمٌ دلائلُ على الحسب الأغرّ، وهم لا يجفخون بها. وواضح أنّه فصل بين الفعل «جفخت» والفاعل «شيم» بجملة «وهم لا يجفخون بها»، وفصل بين الموصوف «شيمٌ» والصّفة «دلائلُ» بالجارّ والمجرور، وبين الفعل «جفخت» والجار والمجرور المتعلقَيْن به «بهم» بالجملة «وهم لا يجفخون بها».

ومثله قول الفرزدق :

إلى مَلِكٍ ما أمُّـهُ مِنْ محاربٍ أبوهُ، ولا كانتْ كليبٌ تصاهِرُهْ

وأصل هذا التركيب : إلى ملك أبوهْ ما أمُّه من محاربٍ

ونخلص من هذا إلى القول : التّعقيد اللفظي هو عدم وضوح دلالة الكلام لخلل في نظمه، والتّراكيب التي تنطوي عليه غير فصيحة؛ لكونها لا تشفّ عن معانيها.

رابعاً – التعقيد المعنويّ : وهو أن يكون الكلام خفيّ الدلالة على المراد لتعثّر انتقال الذهن من المعنى اللغوي للكلمة إلى المعنى الكنائي المقصود. والمثال التقليدي لذلك بيت العبّاس بن الأحنف :

سأطلبُ بُعْدَ الدّار عنكمْ لتقربوا   وتسكبُ عيناايَ الدّموعَ لتجمُدا

يشير الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ معنى البيت : «إنّي اليومَ أطيبُ نفساً بالبعد والفراق، وأوطنُها على مقاساة الأحزان والأشواق، وأتجرّع غُصَصَها وأتحمّل لأجلها حزناً يُفيض الدموعَ من عينيّ؛ لأتسبّب بذلك إلى وصلٍ يدوم ومسرّة لا تزول، فإّ الصبر مفتاحُ الفَرَج، ولكلّ بداية نهاية، ومع كلّ عسْرٍ يُسْرا». ومعنى التحملّ في سبيل الوصول أمرٌ معروف عند العرب حتى قال عروة بن الورد:

تقول سليمى لو أقمتَ بأرضينا   ولم تدرِ أنّى للمُقامِ أطوف

وإلى اليوم تقول العامّة «كلّما جعتَ أكلتَ طيّبا». وفي عجز البيت كنايتان : كنّى بسكْب الدموع الكآبة والحزن الناشئين عن فراق الأحبّة، وهي كناية واضحة وصحيحة؛ لأنّ العادة كذلك. ثم كنّى بجمود العين عن الفرح والسرور الناشئين عن دوام اللقاء، وهذه الكناية غامضة وغير صحيحة؛ لأنّه لا يُنتقل من المعنى اللغويّ لجمود العين – أي شحّها بالدموع عند إرادة البكاء – إلى المعنى الكنائي وهو السرور الناشيء عن اللقاء. والمحصلّة أنّه أراد التعبير بجمود العين عن معنى السرور فأخطأ السبيل" لأنّ العرب تستخدم جمود العين لتعبّر عن عدم بكائها وسكبها للدمع عندما يريد منها صاحبُها ذلك، ولا تعبّر بجمود العين عن السرور كما فعل ابن الأحنف. وعند العرب تعبيران جميلان عن حالين للعين عند إرادة البكاء على عزيز :

أن تنهلّ الدموع عند إرادة البكاء ويسمّون هذا «الإسْعاد»؛ كأنّهم يشيرون إلى مساعدة العين وإسعافها بالدمع المطلوب. أن لا تنهلّ الدموع وتنضب مع إرادة الإنسان ذلك ويسمّون هذا «الجمود». ولذلك قالت الخنساء:

أعينيَّ جُودا ولاتجمُدَا ألا تبكيانِ لصَخْرِ الندى؟

وجملة القول أنّ التعقيد المعنويّ هو خفاء دلالة الكلام على المراد منه؛ لخلل مبعثه عدم قدرة الذهن على الربط بين الدلالة اللغوية والدلالة الكنائية المرادة من العبارة.

خامساً – كثرة التكرار، ومثالها قول المتنبي:

وتُسعدني في غمرةٍ بعدَ غمرةٍ تبُوحٌ لها منها عليها شواهِدُ

وصف فرسه بسلاسة العدو وسهولته حتى كأنّا تعوم في الماء. ولها: جار ومجرور متعلّقان بمحذوف خبر مقدَّم. و«منها» حالٌ من شواهد و«عليها» جار ومجرور متعلقان بـ«شواهد»، و«شواهد» مبتدأ مؤخر.

والشاهد في عجز البيت، حيث أخلّ تكرار الضمير بفصاحة شطر البيت. ومثل هذا قول الشاعر:

إنّي وأسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لقائلٌ: يا نَضْرُ نصراً نصرا

وواضح أنّ تكرار مادة لغوية واحدة في كلّ شطر من أشطار البيت يحرمه صفة الفصاحة.

سادساً – تتابع الإضافات، ومثاله قول ابن بابَك يخاطب حمامةً:

حمامةَ جَرْعى حَوْمةِ الجَنْدلِ اسْجَعي فأنتِ بمرأى من سعادَ ومسْمَع

يسأل الشاعر حمامة هذا الموضع أن تسجع وتطرّب إعجاباً بمحبوبته وسروراً بها؛ لأنها في هذا الموضع الذي تراها فيه سعاد وتسمع صوتها.

والشاهد في صدر البيت، حيث أضاف حمامة إلى «جرعى» (وهي أرض ذات رمل عديمة النبت)، وأضاف «جرعى» إلى حومة (معظم الشيء)، و«حومة» إلى «الجندل» (الأرض ذات الحجارة). ومثل هذه الإضافات المتتابعة مخلّ بفصاحة الكلام.

وجملة القول أنّ فصاحة الكلام تعني :

فصاحة مفرداته وسلامته من تنافر كلماته مجتمعةً ومن ضعف التأليف وتعقيد الألفاظ والمعاني، ونأيه عن كثرة التكرار وتلاحق الإضافات.

فصاحة المتكلّم :

يعرّف الخطيب القزوينيّ فصاحة المتكلّم بأنها:

مَلَكَةٌ يُقتدَر بها على التعبير عن المقصود بلفظٍ فصيح.

ويعني ذلك أن يكون المتكلّم قادراً دائماً على التعبير عمّا يشاء من الأفكار والمقاصد في الوقت الذي يشاء، بألفاظٍ فصيحة. ويُفهم من السياقات التي تخلع فيها العرب هذه الصفة على المتكلّم أنّ الفصيح عندهم هو ذلك المتكلّم القادر على التصرّف في فنون الكلام متى شاء ذلك وبأداء لغويّ فصيح.

وقال إنّ الفصاحة تقتضي أمرين أساسيّين: صفاء في الذهن يدرك المناسبة بين الفِكَر، ثم يُسْراً في تشكيل هذه الفِكَر في قوالب كلامية تشفّ

عن هذه الفكر وتُبين عنها خير إبانة؛ فقولنا فصيحة يعني أنّها مُبينة.

البـــلاغة:

البلاغة – لغةً – بلوغُ الرجل بعبارته كنْهَ ضميره، تقول: بلّغ عبدُ الحميد أي: صار قادراً على التعبير عمّا يريد. وتخلع العربُ صفة البلاغة على اثنين: الكلام، والمتكلّم. فتقول: هذا كلامٌ بليغ وغايةٌ في البلاغة، كما تقول: هذا متكلّم بليغ، ولم يُسمع عن العرب وصفها الكلمة الواحدة بالبلاغة.

وهناك تفصيل القول في بلاغة الكلام وبلاغة المتكلّم:

بلاغـة الكـــلام :

يقول الخطيب القزوينيّ:

البلاغة في الكلام مطابقتهُ لمقتضي الحال مع فصاحته.

وفي التعريف ثلاثة أشياء تستدعي التحديد وهي: الحال، ومقتضى الحال، مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

(أ) الحـــــال :

يراعي البليغ في كلامه طبيعة من يسوق حديثه إليه والظّرف المحيط به الجوّ النفسيّ الذي يعيش تحت وطأته. ونحسّ نحن المتحدثين العاديين بأثر ذلك في كلامنا؛ إذ نُعِدّ كلامنا دائماً على نحوٍ يناسب فيه الإطار الذي يقال فيه. ويأخذ كلامُنا صوراً مختلفة تبعاً لطبيعة من نتكلّم معهم؛ فكلامنا مع الوالديْنِ غير كلامنا مع الأشقّاء، وكلامنا مع معلّمينا غير كلامنا مع زملائنا، وكلامنا مع الذكيّ اللمّاح من زملائنا نكتفي فيه بالإشارة السريعة، ومع متوسط الذكاء نعمد إلى الشرح والتبسيط، ونمعن في ذلك

حين يُملى علينا أن نحدّث من لم يؤتَ خطأً من الإدراك السريع. وكثيراً مانردّد في مواقف الفهم والإفهام: اللبيب يفهم من الإشارة، الحرّ تكيفيه الإشارة ... الخ. هذه الأوضاع التي نقدّم فيها كلامنا وتؤثّر في صياغتنا إيّاه وفي صبٍّ في قوالب خاصّة تسمّى «أحوالاً» أو «مقامات» أو سياقات».

ويعرّف البلاغيّون الحال بأنه:

الأمرُ الحاملُ للمتكلّم علي إيراد كلامه فى صورة خاصّة – أو الأمرُ الدّاعى لأنّ يعتبر المتكلّم فى كلامه خصوصية ما.

(ب) مقتضي الحـــال :

ويعرّفه البلاغيون بأنّه :

الكلام الكلى الموسوم بطابع خاص

ويعني هذا التعريف أنّ الذين نقّبوا في كلام البلغاء وفي البيان العالي في القرآن الكريم، تبيّن لهم أنّ للكلام صوراً خاصّة صياغات محدّدة هيئات ثابتة، وأنّ كلّ صورة وصياغة وهيئة تستخدم في حال خاصة ومقامٍ محدّد إطار معين.

وتبيّن لهم بعد ذلك ترابطٌ متين بين هذه الصور والصياغات والهيئات الكلامية وبين الأحوال المقامات التي تقال فيها، فخلصا من ذلك إلى القول إنّ هذه الأحوال الخاصة والمقامات المحدّدة هي التي اقتضت تلك الصور والصياغات والهيئات الكلامية؛ ومن ثمّ سمّا تلك الصور والصياغات والهيئات مقتضيات كلامية للأحوال؛ لأنّ هذه الأحوال أو المقامات هي التي أملتها. وإليك التمثيل لذلك :

- الكلام المؤكد بأية طريقة من طرق التأكيد هو مقتضى حال الإنكار عند المتلقّي؛ أي إنّ صورة التأكيد في الكلام هي أمرٌ تقتضيه حال الإنكار عند المتلقي.

- الكلام الموجز المختصر هو مقتضى حال الذكاء عند المتلقّي؛ أي إنّ صورة الاختصار في الكلام هي أمر يستدعيه الذكاء عند المتلقّي.

- الكلام المطنب المسهب هو مقتضى حال الغباء وصعوبة الفهم عند المتلقّي. وعلى الجملة فالكلام المؤكد، والكلام الموجز، والكلام المطنب، وغير ذلك مما لا حصر له من صور الكلام، هذه جميع:ا مقتضيات أملتها أحوال خاصة وعادات يعرفها المتكلّمون عند من يوجّهون إليهم كلامهم. وهيئات كلامنا كلّها استجابات لتصوّرنا لحال من نكلّمهم، ومن هنا جاءت الحكمة : كلّموا الناس على أقدار عقولهم. وشأن البليغ شأن الطبيب الذي يتعرّف داء مريضه فيعطيه «قائمة الدواء» المناسبة. وصفوة القول أنّ مقتضى الحال هو :

كيفية كلاميّة يعرفها المتكلّمُ، ويعرف الحالَ التى تقتضيها عند المخاطب، وتبقي في ذهنه في صورة فكرة كامنة وتصوّر عقليّ، حتي إذا جاءت الحال التى تقتضيها أثناء التخاطب أخرج كلامه وفقاً لها. وقانونها العام : لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام.

(جـ) مطابقة الكلام للمقتضى :

وهي ظهور كلام المتكلّم وفقَ الصورة التي تقتضيها الحال التي يقال فيها، أي تطبيق المتكلّم في كلامه ما تفرضه عليه حالُ مخاطبة من مقتضى، أي كيفية خاصّة.

وإليك مثالاً يجعلك على المحجة الواضحة إن شاء الله :

قال بشّار يذكر جاريته ربابة :

رَبَابةُ ربّةُ البيتِ ... تصبُّ الخلَّ في الزيتِ

لها عشرُ دجاجاتٍ ... وديكٌ حَسَنُ الصّوتِ

وقال مفتخراً

إذا ما غضبْنا غضبةً مُضَرِيّةً ... هتكْنا حجابَ الشمسِ أو قطرتْ دَمَا

إذا ما أعرنا سيّداً من قبيلةٍ ... ذرا منبرٍ صلّى علينا وسلّما

لن يغيب عنك التباين الواضح بين هذين القولين من حيث البساطة والوضوح وتناول المعاني العادية وإيثار الوزن الأكثر غنائية في خطاب بشّار لجاريته، ومن حيث الجزالةُ الفخامةُ والقوة وإيثارُ الوزن الأكثر رزانة ثقلاً في بيتي الفخر. وإنّك لتتساءل بعد هذا : لِمَ هذا الاختلاف بين الكلامين، ما سبب مباينة الصورة الألى للثانية ؟

يقول منطق البلاغة وقانونها العام : إنّ كونَ جارية بشّار إنساناً بسيطاً يرضى بالقليل، وتروقه كلمة ثناء محبّب أياً كانت صورتها، «حالٌ» أو «مقامٌ» لمخاطب بشّار.

وهذه الحال من السّذاجة والبساطة والابتهاج باليسير تقتضي كلاماً ظاهر المعاني، عاديَّ الفِكَر، تدركه جارية مثل «ربابة» بيسر فتُسرّ له وتبتهج به وهو عندها خير من معلّقة من المعلقات. ومن ثمّ فالكلام المبسّط الظاهر المعانى العاديّ الأفكار هو «مقتضى حال» الخطاب الموجّه لإنسانٍ ثقافته محدودة، وإهتمامه لا يتجاوز آفاق خدمة سيده وتلبية مطالبه وإدخال

السرور إلى قلبه. وهذا المقتضي هو قانون لغويّ يختزنه ذهن المتكلّم ولا يستخدمه إلا عند الشرع بالكلام، أي إنّه في حالة كمون. أمّا ظهور كلام بشّار على الصورة التي ظهر عليها في البيتين - أي تنفيذ قانون المقتضى - فهو «مطابقة لمقتضى الحال». وفي مقابل بيتي ربابة كان التفاخر والتباهي والتعالي «حالاً» في بيتي الفخر، وهي حال تقتضي كلاماً قويّ الألفاظ فخم المعاني حافلا بصور الكبرياء والقوة والأنفة. ومثل هذه الكيفية للكلام «مقتضى حال» متكلّم جائش النفس ثائر الخواطر دواؤه كلام له هذه الكيفيّة. أمّا ظهور كلام بشّار على الصرة التي ظهر عليها - أي تطبيقه قانون المقتضى الذى يعرفه جيداً - فهو «مطابقة لمقتضى الحال».

وعليك أن تعلم جيدا أن مقتضي الحال هذا - أو الاعتبار المناسب كما يسمّي أحياناً - يختلف باختلاف الحال وفقاً للقانون البلاغيّ العام : لكلّ مقام مقال؛ الذي يساوي القول: لكلّ حالٍ مقتضي. ويصبحُ العكسُ وهو أن تقول: لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام؛ الذي يساوي القول: لكلّ مقالٍ حالٌ يقال فيها. فحال الإنكار عند المخاطب مقتضاها الكلام المؤكد، وحال الذكاء عند المخاطب مقتضاها الكلام الموجز، وحال البلادة والغباوة مقتضاها الكلام المطنّب الموضّح، وحال الاعتذار من المخاطب مقتضاها الكلام المسهب المليء بالمسوّغات والأعذار التي تسلّ الضغينة، وتحمل على الإعتاب والصفح... وهكذا...

تفاوت مراتب البلاغة :

تتباين درجات البلاغة علوّاً وانحطاطا. وفي هذا يقول الخطيب القزويني : «ولها طرفانِ : أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه، وأسفلُ وهو ما إذا

غيرٌ الكلام عنه إلى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات؛ وبينهما مراتبكثيرة».

مـهـمـا يكن، فـإنّ ارتفـاع شـأن الكلام في الحسن والقبـول إنما يكن بمطابقته لمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب، وذلك بعد أن يكون أداؤه – لغته – فصيحاً مبيناً خير إبانة ضمن شروط الفصاحة التي عرفتَها..

بين البـلاغة والفصـــاحة :

يذهب البلاغيون إلى أنّ البلاغة هي تطبيق الكلام علي مقتضي الحال مع فصاحته، وهكذا فـشـرط الكلام البليغ أن يسلم من العـيـوب المخلّة بفصاحة وفصاحة أجزائه. وينتج على هذا أنّ البلاغة أعمّ من الفصاحة؛ إذ كلُّ كـلام بليغٍ فـصيح لا مـحالة، وليس كلّ كلام فـصيح بليغـاً، فقـد يكون فصيحاً لكنه غير مطابق لمقتضى الحال. وهكذا نبين الاثنين علاقة عموم وخصوص.

بلاغـــة المتـكلّم :

بلاغة المتكلّمَ عند البلاغيين – ملَكَةٌ في النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كـلام بليغ : مطابق لمقتضى الحال، وسليم من نواقض الفصاحة، في أيّ معنى قصده. والملكات عندهم هي الصفات الراسخة التي تحصل بتكرار الشيء.

هذا والمتكلّم البليغ أخصّ من الفصيح؛ لأنّ المتكلم البليغ مَنْ يتـحلّى بملكة الإتيـان بالكلام البليغ، قـد عـرفنا أنّ الكلام البليغ ينبـغى أن يكون فصيحاً، أمّا المتكلّم الفصيح فقد يفقد صفة البلاغة بأن يأتى بكلام فصيحٍ

ولكنه غير مطابق لمقتضى الحال. وقد سئل عربيّ : ما هذه البلاغة فيكم؟ فأجاب : «شيء تجيش به صدورُنا فتقذفه على ألسنتنا». ويفهم من هذا أن البلاغة تشمل التفكير في المعاني التي تعتمد في الذهن وتهيئتها إعدادها، ثم اختيار القوالب الكلامية التي تصوّر هذه المعاني خير تصوير مراعًى في صياغتها شرطا البلاغة الأساسيّان : مطابقة مقتضى الحال، والفصاحة. ويصف البحترى بلاغة محمد بن عبد الملك الزيّات فيقول :

ومعانٍ لو فصّلتْها القوافي هجّنتْ شِعْرَ جَرْوَلٍ لبيدِ
حُزْنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبْن ظلمةَ التعقيدِ
وركِبْن اللفظ القريبَ فأدركْـ ـنَ بـهِ غايةَ المراد البعيدِ

الأمران اللذان يتوقّف عليهما حصول البلاغة :

الأول – تشكيل المعنى المراد بصورة أداء كلاميٍّ مناسب للحال التي يقال فيها، حتى لا يؤدّى المعني المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال بأداء لغويّ غير فصيح.

والسؤال الحاسم هو : كيف يتأتّى لنا تجنّب العيوب المخلّة بالفصاحة وتحقيق شروط البلاغة؟

كان الأجداد يكتسبون الفصاحة والبلاغة بالعيش بين ظهراني الفصحاء الأبيناء في مجتمع يقيم كبير وزن لمن يسوّي كلامه وينفي عنه أقذاء الرطانة والهُجنة. وهم من ثمّ يرضعونها مع حليب أمهاتهم يتنفّسونها مع أنسام صحرائهم. أمّا اليوم وقد بَعُدَ بنا العهد عن صفاء اللغة وضجّت مجتمعاتنا بالرطانة، فثمة وسائل تمكّننا من تنمية ملكة الفصاحة والبلاغة

عندنا وتحاشي العيوب التي تزري بمنطقنا. وإليك بيان ذلك :

1 – الغرابة – ونتجنّبها بالاطلاع على علم متن اللغة وتتبع الكتب المتداولة والإحاطة بمعاني المفردات المأنوسة. وبذلك يكون في مقدرنا إدراك ماهو غريب حوشيّ واجب نفيه من كلامنا.

2 – المخالفة – ونتجنّبها بالإحاطة بما ثبت عن الواضع في معاجم اللغة، وبمعرفة علم التصريف الذي تكفّلت قواعده بإيضاح صيغ المفردات طرائق استعمالها.

3 – ضعف التأليف والتعقيد اللفظي – ونتجنّبهما بالإلمام بقواعد علم النحو؛ إذ شأنه بيان طرق استعمال المركبات على النحو الصحيح.

4 – التنافر – ويدرك بالذوق السليم المقوّى بالمِران والدُّرْبة؛ فهو الذي يتحسّس ما في الألفاظ المفردة والتراكيب من صور التنافر أو التآلف.

5 – الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد بالصورة اللفظية المناسبة، وممكّننا منه دراسة «علم المعاني» وفهم مقاصده وتوجيهاته.

6 – التعقيد المعنوي – نتعرّفه بدراسة «علم البيان»؛ فمن استوعب مفردات هذا العلم استبان السبيل المثلى لعرض المعاني واضحة بيّنة لا تشكو تعقيداً ولا عوجاً ولا أمْتا .

7 – خلوّ الكلام من المحسّنات والجماليّات التي تخلع عليه فخامة ورواء تزيده طلاوة وبهاء – ويعرف بدراسة «علم البديع»، فمن ألمّ بمباحثه عرف وجوه تحسين اللفظ والمعنى كما ستعرف ذلك إن شاء الله.

علــوم البلاغـــة :

تعرف العلوم الثلاثة الأخيرة - التي أشرنا إليها قبل قليل - بأنّها «علوم البلاغة» ويسمّيها كثيرون «علم البيان»، كما يسمّيها بعضهم «علم البديع». وهناك فريق من الدارسين يسمّي العلم الذي يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد «علمَ المعاني» ويسمّي البيان والبديع «علمَ البيان».

أمّا نحن فقد آثرنا التسمية المشهورة لمجموع هذه العلوم، وهي «علوم البلاغة» وبدأ لنا أن نسمّي كتابنا :

الكافي في علوم البلاغة العربية - المعاني - البيان - البديع

تفاؤلاً بأن يكون - إن شاء الله - كافياً لطالب العلم وراغب الغُنْم. وسيأتيك حديث هذه العلوم مرتبة هكذا : علم المعاني - علم البيان - علم البديع.

أسئلة وإجاباتها فصاحة الكلمة

- حدّد ما أخلّ بفصاحة الكلمات الموضوعة بين قوسين في الأبيات والعبارات الآتية :

1 - وما أرضى لمقلتيه بحلم إذا انتبهت توهّمهُ (ابتشاكا)[١]

2 - لم يلقّها إلاّ بشكّةِ باسلٍ يخشى الحوادث حازمٍ (مستعْددِ)

3 - إنّ بنيَّ للئامٌ زَهَدَهْ ماليَ في صدورهمْ منْ (مَوْدَدَه)

4 - يومٌ (عصبْقب)[٢] و(هلّوف)[٣] ملأ السَّجْسَجِ[٤] طلاً

5 - قد قلتُ لمّا (اطلخمّ)[٥] الأمر وانبعثتْ عشواءُ تاليةٌ (غُبْساً)[٦] (دَهَاريسا)[٧]

6 - لا نسب اليومَ ولا خُلَّةً (إتسعَ) الفتقُ على الراقعِ

7 - كتب بعض أمراء بغداد رقعةً طرحها في المسجد الجامع حين مرضت أمّه فقال: صينَ امرؤٌ ورُعِيَ دعا لا مرأةٍ (إنْقَحْلة)[٨]، (مُقْسَئِنَّة)[٩]: فقد مُنِيتْ بأكل الطُّرْموق[١٠] فأصابها من أجله (الاستمصال)[١١] أن يمنّ اللّهُ عليها (بالاطْرِغْشاشَ)[١٢] و(الابْرِغْشاش)[١٣].

---

(١) الابتشاكُ : الكذب والخلط في كلّ شيء. (٣،٢) عَصبْصَبَ وهِلَّوْف : شديد البرد في الاثنين.
(٤) السَّجسج : الأرض التي ليست بسهلةٍ لا صلبة. (٥) اطلخمّ : أشتدّ وعظم.
(٦) الغُبْسُ : جمع أغْبَس وغبساء : الشديد الظلام. (٧) الدّهاريس : جمع دَهريس بمعنى الداهية.
(٨) إنْقَحْلَة : ييبس جلدها على عظمها. (٩) مُقْسَئِنَّة : ُبيرة وعاسية. (١٠) الطُّرمُوق : الخُفَّاش.
(١١) الاستمصال : الإسهال. (١٢) الاطْرِغْشَاش : التماثل للشفاء (١٣) كسابقة.

8 – فأيقنت أنّي عند ذلكَ ثائرٌ غداَتئذٍ، أو هالكٌ في (الهوالكِ)

9 – قال امرؤ القيس :

«ربَّ جَفْنة (مُثْعَنْجرة)(١٤) وطعنة (مُسْتحْنِفرَةٍ)(١٥)، وخطبةٍ مستحضرةٍ، وقصيدةٍ محبَّرةٍ، تبقى غداً بأنقرة».

10 – وأحمق ممّنْ يكرعُ الماءَ قال لي دَعِ الخمرَ أشربْ مِن (نُقَاخٍ)(١٦) مبرَّدِ

الإجـابات :

1 – كلمة «الابتشاك» غير فصيحة لغرابتها؛ إذ هي قليلة الاستعمال.

2 – كلمة «مُسْتَعْدِد» غير فصيحة لمخالفتها القياس؛ فالقياس أن تكون «مستعدّ».

3 – كلمة «مَوْدَدَة» غير فصيحة لمخالفتها القياس؛ فالقياس أن تكن «مودّة» بالإدغام.

4 – عَصَنْصَب وهِلَوْف غير فصيحتين لغرابتهما؛ إذ هما قليلتا الاستعمال.

5 – كلمة «اطلخمّ» غير فصيحة؛ لغرابتها غلظها في السمع. ومثلها «دهاريس».

6 – كلمة «إتّسع» غير فصيحة لمخالفتها القياس؛ إذ القياس «اِتّسع» بهمزة وصل

---

(١٤) صفة للجفنة بمعنى السائلة. (١٥) مسحنفرة : النافذة بسرعة. (١٦) عَذْبٍ

7 – كلمة «إِنْقَحْلَة» غير فصيحة لغرابتها وتنافرها. وكلمة «مقسئنّة» غير فصيحة لغرابتها. وكلمات «الاستمصال» و«الاطرغشاش» و«الابرغشاش» غير فصيحة أيضاً لغرابتها وتنافرها؛ إذ هى قليلة الاستعمال ثقيلة النطق.

8 – كلمة «الهوالِك» غير فصيحة لمخالفتها القياس؛ إذ القياس «الهالكين».

9 – كلمة «مثعنجرة» غير فصيحة لتنافرها، ومثلها «مسحنفرة»، وهما قليلتا الاستعمال وثقيلتان في النطق.

10– كلمة «نُقَاخ» غير فصيحة لغرابتها؛ إذ هى قليلة الاستعمال وحشية.

أسئلة وإجاباتها حول فصاحة الكلام :

- حدّد ما أخلّ بفصاحة الكلام فيما يأتي :

1- نكـنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ   تعالَ فإنْ عاهـدتَني لا تخونُني

2 - كادَ لو ســاعدَ المقـدور ينتصرُ   لمّـا رأى طـالبُوهُ مصـعَباً ذُعروا

3 - كنّـا وكـنتَ ولكـنْ ذاكَ لـم يكن   لوكـنتَكنتَكتمتَالسّــرَّكنتَكمـــا

4 - أدّوا إليـهِ الكَيّــلَ كيلاً بصاَغْ   لـمّا عصـى أصـحابهُ مصعباً

5 - لِمثلِي عنـــدَ مثلــهمُ مُـقــامَ   ولــمْ أرَ مِـثْــلَ جـيراني ومثلي

6 - وعــافَ عــافي العُرْفِ عِرْفانَهُ   وازورَّ مَـــنْ كانَ لـــهُ زائـــراً

7 - وأبــوكَ والثّقــلانِ أنت محــمّدٌ   أنّى يكـــون أبَــا البرايـــا آدمٌ

8 - يرضى المعاشرُ منكَ إلاّ بالرّضا   والمجدُ لا يرضى بأن ترضى بأنْ

9 - مِنْ أنّها عَمــلُ السّيوف عواملُ   ولذا اسـمُ أغطية العيون جفونُها

10- زهــيراً على ماجرَّ مِنْ كلّ جانبِ   ألا ليتَ شِعْرى هَلْ يلومَنّ قــومهُ

الإجـــابات :

1 - في البيت تعقيد لفظى؛ إذ إنّ التقدير : نكن يا ذئبُ مثلَ منْ يصطحبانِ.

2 - في البيت ضعف التأليف؛ لأنّ الهاء في «طالبوه» تعدد على مصعب وهو متأخر لفظاً ورتبةً.

3 – في البيت تنافر الكلمات، الناشيء عن تكرار لفظ «كنت».

4 – في البيت ضعف التأليف؛ لأنّ الهاء في «أصحابه» تعود على مصعب المتأخر لفظاً ورتبةً

5 – في البيت تنافر في الكلمات؛ مصدره تكرار لفظ «مثل».

6 – في البيت تنافر في الكلمات؛ مصدره التكرار. ومعنى هذا البيت : انصرف عنه من كان يزوره، وكره طالب معروفه معرفته.

7 – في البيت تعقيد لفظي، ناشيء عن الفصل بين المبتدأ والخبر وهما : أبوكَ آدم، وتقديم الخبر على المبتدأ والثقلان أنت»؛ وتقدير الكلام : كيف يكون آدمُ آبا البرايا وأبوكَ محمد والثقلان أنت؟

8 – في البيت تنافر في الكلمات؛ مصدره تكرار لفظ «ترضى».

9 – في البيت تعقيد لفظيّ؛ إذ إنّ تقدير الكلام هكذا : لأنّ العيون عوامدُ عملَ السيوف سمّيت أعطيتها جفناً.

10– في البيت ضعف التأليف؛ لأنّ الهاء في «قومُه» تعود متأخر لفظاً ورتبة.

الكتابُ الأوّل

علم المعاني

مقدمة في تعريف علم المعاني ومباحثه :

- تعريف علم المعاني :

يقول السكّاكي في تعريف هذا العلم :

هو تتبّعُ خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليُحترزَ بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على مايقتضي الحالُ ذكرَه .

وعرّفه الخطيب القزوينيّ بالقول :

هو علمٌ تُعْرَف بهِ أحوالُ اللّفظ العربيّ التي بها يطابق مقتضى الحال.

وليس ثمّة تباين بين التعريفين فيما يبدو لنا . وفي مقدورنا تبسيط التعبير عن دلالتهما المشتركة بالقول إنّ علم المعاني هو العلم الذي يعرّفنا صياغة العبارة صياغةً تناسب تماماً المقام الذي تقال فيه، وتعبرٌ تعبيراً دقيقاً عن القصد الذي نبتغيه. ذلك أنّ « مهارة الأديب، ونبوغ الشاعر، وعبقرية اللغة، كلّ هذا يكمن فيما بين الكَلِم من ترابط وصلات، فحذِق الأديب الشاعر يظهر في مقدرته الفائقة على صياغة كلم اللغة صياغة بصيرة واعية، تصف كلّ خاطرة من خواطر نفسه، وتُفصح عن كل فكرة تومض في كيانه، أو شعور يختلج في مطاويه، وعبقرية اللغة تكمن في مرونتها، وطواعيتها وإفادتها دقيقَ المعاني، بوجوه وفنون الصياغة، فتصف بهيئة الكلمة وتشير بخصوصية التركيب »

« د. محمد أبو موس : دلالات التراكيب »

وعلى نحو أوضح نقول :إنّ علم المعاني هو الذي يقول لنا – مثلاً – إنّ تنكير الخبر في الجملة الإسمية يناسب حالاً خاصة ومقاماً متميزاً، وتعريفه يناسب حالاً أخرى، وإنّ «إذا» تستخدم في الشرط عند كون المتكلّم متأكداً من حصول الشرط و«إنْ» تستخدم عند كونه غير متأكّد. فقانوناه الأساسيّان :

لكلّ مقام مقالٌ، ولكل كلمةٍ مع صاحبتها مقامٌ.

– مباحث علم المعاني :

يبحث علمُ المعاني في أحوال اللفظ، أو صياغاته التي يكون فيها مستجيباً لمقتضى الحال. وغنيٌ عن الذكر أن «علم النحو» يدرس أحوال اللفظ من تنكير وتعريف، وتقديم وتأخير، وحذفٍ وذكر ... الخ. لكنّه يدرسها من وجهة مغايرة لما عليه الأمر في علم المعاني، فهو يتبيّن جواز التقديم وامتناعه ووجوبه، وجواز الحذف وامتناعه ووجوبه، ويتكلّم على التعريف التنكير التأكيد وعدمه، لكنها لا يعالجها من حيث إنّها تلبّي مطلباً فنّياً يقتضيه المقام وتستدعيه الحال، فقد تكفّل بذلك علم المعاني .

ويتناول علمُ المعاني ثمانية مباحث هي :

– أحوال الإسناد الخبريّ.

– أحوال المسند إليه .

– أحوال المسنَد .

– أحوال متعلّقات الفعل .

- القَصْـر .

- الإنشاء .

- الفَصْل والوصْل .

- الإيجاز الإطناب والمساواة .

وسيـأتيك حديثُها - إن شـاء الله - علـى النحـو الذي يشـرح الصّدر ويُزيل النُّفْر .

المبحث الأول - أحوال الإسناد الخبري

ويتضمّن :

- طرفا الكلام : المسند إليه والمسند .
- النسبة بين هذين الطرفين .
- تقسيم الكلام تبعاً للنسبة على خبر وإنشاء .
- الفروق الأساسيّة بين الخبر والإنشاء .
- احتمال الخبر للصّدق والكذب .
- الخبر الصادق والخبر الكاذب .
- الإسناد الخبريّ « تعريفه » .
- صور طرفي الإسناد .
- مواضع المسند إليه والمسند في سياق الجملة العربية .
- قصد المخبرِ في إلقاء الخبر .
- خروج الخبر عن غرضيه الأساسيين .
- أحوال متلقّي الخبر .
- أحوال متلقّي الخبر تحدّد صيغ الخبر الملقى إليه : المقال .
- إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر .
- مؤكّدات الخبر .

طرفا الكلام : المسند إليه والمسند :

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « مختصرُ كلِّ أمرٍ أنّه لا يكون كلامٌ من جزء واحد، وأنّه لابدّ من مسنَدٍ إليه ومسنَدٍ ».

هذه حقيقة الحقائق التي يعيها كلّ عاقل؛ فلكلّ كلام تامّ طرفان : المسند إليه والمسند. تقول : محمدٌ صادق فيكون « محمد » مسنداً إليه و«صادقٌ» مسنداً. وتقول : «جاء الصيفُ» فيكون «الصيفُ» مسنداً إليه، و«جاء» مسنداً. وتقول : «اقرأْ يامحمد» فيكون «الفاعل الضمير المستتر أنت» مسنداً إليه، و«اقرأ» مسنداً. هذا ويسمّي البلاغيون المثبَتَ له «مسنداً إليه» أو محدَّثاً عنه، ويسمّون المثبَتَ «مسنداً» أو «حديثاً» .

- النسبة بين الطرفين :

في الأمثلة المتقدمة لابدّ من وجود رابط يربط بين طرفي الكلام التامّ. وهذا الرابط يسمّى «النسبة»؛ أي نسبة شيء إلى آخر. ففي المثال الأول نسبنا الصدق إلى محمد، وفي المثال الثاني نسبنا المجيء إلى الصيف، في المثال الثالث نسبنا القراءة الى محمد على جهة طلبنا قيامه بها. النسبة هي : تعلّق أحد الطرفين بالآخر على سبيل الحكم به عليه ايجاباً أو سلباً، أو على سبيل الطلب .

وإذا أدركنا هذا نقول إنّ هذه النسبة على ثلاثة أنوا ع من حيث الجهة التي توجد فيها :

1 – النسبة الكلاميّة – وهى تعلّق أحد الطرفين بالآخر تعلّقاً نفهمه من الصيغة الكلاميّة، أو هى مؤدى الكلام أو معنى الكلام .

2 – النسبة الذهنيّة – وهي تعلّق أحد الطرفين بالآخر تعلّقاً يقوم في ذهن المتكلم ، أو هي التصور الذهني للمتكلم حول تعلّق أحد الطرفين بالآخر .

3 – النسبة الخارجية – وهي تعلّق أحد الطرفين بالآخر تعلّقاً قائماً في الخارج .

بيان ذلك أنّ قولنا :

«الشّجرةُ مُزْهِرةٌ »

يتضمّن ثلاثة أنواع النسبة المشار اليها، وهي :

– نسبة كلاميّة تتمثل في معنى إزدهار الشجرة، أو نسبة الإزدهار إلى الشّجرة التى فهمناها من هذا القول أو الجملة .

– نسبة ذهنيّة تتمثل في تصوّر إزدهار الشجرة، أو نسبة الإزدهار إلى الشّجرة، تلك النسبة القائمة في ذهن المتكلّم أو تصوّره .

– نسبة خارجية تتمثّل في ازدهار الشجرة الحادث في الواقع العياني المشاهد .

- *تقسيم الكلام تبعاً للنسبة إلى خبر وإنشاء :*

الكلام تبعاً لنسبته نوعان :

الأول - ما له نسبة خارجية أو صورة واقعية يمكن أن يتعرّفها الآخرون؛ أي ذلك الكلام الذي له واقعٌ يحاكيه، ويصوّره، ويتحدث عنه؛ ويسمى هذا الكلام «خبراً»؛ لأن المتكلّم في هذا الضرب من الكلام يخبر بشيء له وجودٌ خارجيّ.

الثاني - ماليس له نسبة خارجية أو صورة واقعيّة يمكن أن يتعرّفها الآخرون؛ أي ذلك الكلام الذي لا واقع له يحاكيه. ويسمّى هذا الكلام «إنشاداً» لأن المتكلم يبتدئه ابتداء، أو ينشيء معناه بلفظٍ من عنده، ولا يصوّر فيه شيئاً له وجود خارجيّ. وابتغاء مزيد إيضاح إليك القول في :

الفروق الأساسية بين الخبر والإنشاء :

1 - الخبر قول يحتمل الصدق الكذب لذاته؛ لأنّه صيغة كلامية تحكي نسبةً حاصلة في الواقع أو غير حاصلة. فقول المتكلّم: «الشّجرةُ مزهرةٌ» يحتمل أن يكون صدقاً، وذلك حين تكون الشّجرة المعنية مزهرة حقيقةً في الواقع المعاين. ويحتمل أن يكون كذباً، وذلك حين تكون الشّجرة المعنية غير مزهرة في الواقع المعاين. وكلّ الأخبار تحتمل الصدق والكذب لذاتها، كقولنا: السماءُ صافيةٌ، والليلةُ مقمرةٌ، والوطنُ عزيزٌ، وجاء الحقُّ، وزهق الباطلُ، واتّحدَ العربُ.

أما الإنشاء فنقول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ لأنه صيغة كلاميّة لا تحكي نسبة خارجيّة ، بل هو إنشاء معنىً بلفظٍ يقاربه في الوجود.. فقولنا: «ادرسْ ياأحمد» إنشاءٌ، يعني: طلبت الدراسة منه. هو لا يحتمل الصدق الكذب؛ لأنه ليس له نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه.

2 – حصول معنى الخبر لا يتوقّف على النطق به؛ فمعنى قولك: «أحمدُ ناجحٌ» – وهو نسبة النجاح إلى أحمد – حاصلٌ سواء نطقتَ بهذا الخبر أم لم تنطق به. أمّا حصول معنى الإنشاء فمتوقّف على النطق به؛ فمعنى قولك: «ادرسْ يا أحمد» – وهو طلب حصول الدراسة منه – متوقّفٌ على النطق بهذا الطلب .

3 – مدلول الخبر يراد به أن يكون حكاية عن أمرٍ حاصل في الواقع، أو يراد منه مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية. فقولنا: « السماءُ صافيةٌ» خبرٌ يراد منه أن يحكي أمراً حاصلاً في الواقع هو صفاء السماء.

أما مدلول الإنشاء فيراد به إيجاد أمرٍ لم يحصل، أو إنشاء معنى بلفظٍ يقاربه في الوجود. فقولك: «هل رأيتَ أحمدَ ؟» إنشاءٌ لا يراد منه حكاية لرؤية حاصلة منك لأحمد، بل المراد به طلب إحداث مدلوله؛ أي الاستفهام عن الرؤية: هل حصلتْ منك لأحمد. وعلى الجملة نقول:

النِّسَبُ الخبريّةُ حاكيةٌ لأمرٍ حاصلٍ في الواقع، والنِّسَبُ الإنشائيّةُ موجِدةٌ لمعناها بألفاظِها.

أسئلة وإجاباتها حول الطرفين والنسبة :

حدِّد طرفي الإسناد، والنسبة بينهما بأنواعها الثلاثة في العبارات الآتية :

1 - « محمّدٌ رسولُ الله» .

2 - « ما كانَ محمّدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ»

3 - تكلَّمْ يا غلامُ .

4 - لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلَه .

5 - «هَلْ أتاكَ حديثُ الغاشيةِ ؟ »

6 - ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً !

الإجـــابات :

1 - الطرفان هنا هما : محمدٌ ورسولُ اللّهِ. وتعلُّق الرسالة بمحمد - عليه الصلاة والسلام - هو النّسبة. وهذا التعلّق، تبعاً لفهمه من الكلام، نسبةٌ كلاميّة؛ وتبعاً لقيامه في ذهن المتكلّم نسبة ذهنيّة، وتبعاً لحصوله في الخارج نسبةٌ خارجيّة.

2 - الطرفان هما : محمد، عليه الصّلاة والسّلام، والأبوّة. وتعلُّق الأبوّة بمحمد - عليه الصّلاة والسّلام - من حيث سلْبُها عنه هو النسبة. وهو تبعاً لفهمه من الكلام نسبة كلاميّة، وتبعاً لحضوره في الذهن نسبة ذهنية، وتبعاً لحصوله في الخارج نسبة خارجية.

3 - الطرفان هما : التكلّم الفاعل الضمير المستتر «أنت». وتعلّق التكلّم بالفاعل من حيث طلبه منه هو النسبة. وهو تبعاً لفهمه من الكلام نسبة كلاميّة، وتبعاً لقيامه في ذهن المتكلّم نسبة ذهنية، وتبعاً لقيامه في نفس المتكلّم نسبة خارجية.

4 - الطرفان هما : لا تنه، الفاعل الضمير المستتر «أنت». وتعلّق النهي بالفاعل من حيث طلب عدم حصوله منه هو النسبة. وهذا التعلّق تبعاً لفهمه من الكلام نسبة كلامية، وتبعاً لحضوره في ذهن المتكلّم نسبة ذهنية وتبعاً لقيامه في نفس المتكلم واتصافها به نسبة خارجية .

5 - الطرفان هما : أتاك، وحديث الغاشية، وتعلّق الإتيان بحديث

الغاشية من حيث طلب فهم حصوله منه هو النّسبة. وهو تبعاً لفهمه من الكلام نسبة كلاميّة، وتبعاً لحضوره في ذهن المتكلم نسبة ذهنيّة، وتبعاً لقيامه في نفس المتكلم واتصافها به نسبة خارجيّة.

6 – الطرفان هما : الشباب ويعود، وتعلّق العودة بالشّباب من حيث طلب حصولها على جهة التمنّي هو النسبة. وهو تبعاً لفهمه من الكلام نسبة كلاميّة، وتبعاً لحضوره في ذهن المتكلّم نسبة ذهنيّة، وتبعاً لقيامه في نفس المتكلم نسبة خارجية .

أسئلة وإجاباتها حول الجمل الخبرية والإنشائية :

– حدد في العبارات الآتية الجمل الخبريّة الجمل الإنشائيّة، مع بيان المسند إليه المسند في كلّ منها :

لا تكنْ صلْباً فتُكسرَ. إن للشباب نشوةً. إنّ الشّبابَ جنونٌ برؤه الكِبَر. لا يُغلب من كان اللّهُ معه. لا تصاحب الأشرار. صبراً جميلاً. شتّان مابين زيدٍ وأخيه. أحسنْ إلى الناس. هل قابلت صديقك ؟. الصبرُ جميلٌ .

الإجابات :

– لا تكن صلباً فتكسر: هذه الجملة إنشائية، المسند إليه فيها اسم كان الضمير المستتر «أنت»، والمسند خبر كان «صلباً» .

– إنّ للشباب نشوةً : هذه الجملة خبرية، المسند إليه فيها اسم إنّ المؤخر

«نشوةً» والمسند خبرها «متعلق الجار» .

- إن الشباب جنونٌ بُرْؤُه الكِبَر : هاتان الجملتان خبريتان، المسند إليه فيهما هو «الشباب - برؤه» ، والمسند هو «جنونٌ - الكِبَر ».

- لا يُغلَب مَنْ كان اللهُ معه : جملة خبرية، المسند إليه فيها نَائب الفاعل «مَنْ»، والمسند هو الفعل «يغلب».

- لا تصاحب الأشرارك جملة إنشائية، المسند إليه فيها ضمير الفاعل «أنت»، المسند هو الفعل «تصاحب».

- صبراً جميلاً: جملة إنشائية، المسند إليه فيها الضمير المستتر في صبراً وتقديره «أنت»، والمسند «صبراً».

- شتَّان مابين زيدٍ وأخيه : جملة خبرية، المسند إليه فيها الفاعل وهو لفظ «مَا» والمسند «شتان».

- أحسن إلى الناس : جملة إنشائية، المسند إليه فيها الضمير المستتر في أحسن «أنت»، والمسند «أحْسن».

- هل قابلتَ صديقك : جملة إنشائية، المسند إليه فيها التاء في «قابلتَ»، والمسند «قابل» .

- الصبرُ جميلٌ : جملة خبرية، المسند إليه فيها المبتدأ «الصبر»، والمسند هو الخبر «جميل».

احتمال الخبر للصدق والكذب :

في تمييزنا «الخبرَ» بأنّه قولٌ يحتمل الصدق والكذب لابدّ من الانتباه إلى أن هذا الاحتمال يُنظَر فيه إلى «الجملة الخبرية نفسها» بصرف النظر عمّن قالها وعن الواقع؛ ولذا يضع البلاغيون قيد «لذاته» عند تعريف الخبر. ومبعث هذا التنبيه أنّنا حين ننظر إلى المُخْبِر أو إلى الواقع تكون بعض الأخبار صدقاً لا محالة وبعضها كذباً لا محالة. فأخبار الله تعالى، وأخبار رسله، والبديهيات المقرّرة نحو: السماءُ فوقَنا، والأرضُ تَحتنا، والحليبُ أبيض.. هذه جميعاً أخبار صادقة لا تحتمل كذباً البتّة. عكس هذا أخبارُ المتنبّئين في دعوى النبوّة وأقوالنا المخالفة للقانون الثّابت كقولنا: الجهلُ نافع، والعلمُ ضارٌّ، والأرضُ ثابتة؛ فهذه جميعاً أخبارٌ كاذبة لا تحتمل صدقاً البتّة. ومختصر القول أنّ احتمال الصدق والكذب في الأخبار يُنظَر فيه إلى الكلام نفسه بقطع النّظر عن خصوص المخبر أو خصوص الخبر .

الخبر الصادق والخبر الكاذب :

أسلفنا أنّ الكلام الخبريّ نسبةٌ كلاميّة ونسبة خارجيّة، وأنّ نِسَب الخبر حاكيةٌ لأمرٍ حاصل خارجاً. ونتقدّم من هاتين المقدّمتين إلى القول :

إذا طابقت النسبة الكلاميّة النسبةَ الخارجيّة كان الخبر صادقاً، كما إذا كانت الشجرةُ مزهرةً حقيقة في قولنا «الشجرةُ مزهرةٌ» .

وإذا لم تطابق النسبةُ الكلاميّة النسبة الخارجيّة كان الخبر كاذباً، كما إذا كانت الشّجرةُ غيرَ مزهرةٍ حقيقة في مثالنا السابق. وجملةُ القول أنّ :

صدق الخبر مطابقته للواقع الذي يحاكيه

وصدق الخبر عدم مطابقته للواقع الذي يحاكيه

وهذا رأيُ الجمهور، وهو المرجّح، وفي المسألة آراء لانشاء الخوض فيها

الإسناد الخبري :

يعرّف البلاغيون الإسناد الخبريّ بأنّه :

ضمُّ كلمة أو مايجري مجراها إلى أخرى أو مايجري مجراها، بحيث يفيد الحكمُ أنّ مفهوم إحداهما ثابتٌ لمفهوم الأخرى أو منفيّ عنه .

كأن تقول: «المتنبي شاعرٌ» و«ابن المقفّع ليس بشاعر». ففي المثال الأول إسناد خبريّ ضممتَ فيه كلمة «شاعر» إلى حكمة أخرى هي «المتنبي». وحكمك هذا أفاد أنّ مفهوم «الشاعريّة» ثابتٌ لـ «المتنبي». وفي المثال الثّاني إسناد خبريّ ضممتَ فيه كلمة «ليس بشاعر» إلى كلمة أخرى هي «ابن المقفع». وحكمك هذا أفاد أنّ مفهوم الشاعريّة «منفيٌّ عن «ابن المقفّع».

بقي أن نشير إلى أن الكلمة المضموم إليها أو المحكوم عليها أو المخبرَ عنها تسمى «مسنَداً إليه». والكلمة المضمومة أو المحكوم بها أو المخبرَ بها تسمّى «مسنَداً». والنّسبة بينهما تسمّى «إسناداً». ولا يختلف مدلول الإسناد عن مدلول «النّسبة».

أمّا مايجري مجرى الكلمة - ممّا جاء في تعريف الإسناد قبل قليل - فيعني الجملة الواقعة موقع المفرد أو المؤوّلة بمفرد .

صُور طرفي الإسناد :

يأخذ طرفا الإسناد أربع صور :

1 - أن يكونا مفردَيْن، كقولهم في المثل : «الحقُّ أبلجُ والباطلُ لَجْلَجٌ»، وقولهم: «آن الأوانُ»، و«قُضِي الأمرُ».

2 - أن يكونا جملتين، مثل: «لا إلهَ إلاّ اللّهُ ينجو صاحبُها من النّار».

3 - أن يكون المسند إليه مفرداً حقيقة المسند جملةً، كقولهم في المثل: «يَداكَ أوْكَتَا، وفوكَ نَفَخ».

4 - أن يكون المسند إليه جملةً والمسندُ مفرداً حقيقةً، كقولك: «عاش الوطن شعارُنا على الزّمنِ».

مواضع المسند إليه والمسند في سياق الجملة :

أسلفنا أن المسند إليه المسند هما ركنا الجملة الأساسيّان. ونقول ههنا إنّ لهما مواضع يحتلاّنها في سياق الجملة العربية. وهاك مفصّل القول :

أولاً – مواضع المسند إليه وهي :

1 – فاعل الفعل التامّ أو شبهه، كقولك: «طلعَ البدرُ المضيءُ نورُهُ»، فكلّ من «البدر» و«نورُه» مسندٌ إليه؛ لأنّ الأوّل فاعل الفعل التامّ «طلع»، والثّاني فاعل شبه الفعل التّام «المضيء»، وهو اسم فاعل.

2 – نائب الفعل، كلفظ «الأمر» و«الأمور» في قوله سبحانه: «وقُضِيَ الأمرُ وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ».

3 – المبتدأ الذي ذُكِر خبرهُ، كلفظ «الحقّ» و «الباطل» في قولك: «الحقُّ فائقٌ والباطلُ زاهقٌ».

4 – ما أصله المبتدأُ، كأسماء الأدوات الناسخة، مثل لفظ الجلالة «اللّه» في قوله سبحانه: «وكان اللّهُ عليماً حكيماً»، وكهذا اللفظ في قوله سبحانه: «إنّ اللّهَ كانَ لطيفاً خبيراً»، وكالمفعول الأول لظنّ وأخواتها، منه لفظ «السّاعة» في قوله سبحانه: «وما أظُنُّ السّاعةَ قائمةً» والمفعول الثاني لـ«أرى» وأخواتها، ومنه لفظ «الحقّ» في قولك: «أريتُكَ» الحقَّ واضحاً».

ثانياً: مواضع المسنَد، وهي:

1 – الفعل التامّ كلفظ «جاء» في قوله سبحانه: «إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ».

2 – اسم الفعل، كقولك: «هيهاتَ الحياةُ الهانئةُ»، و «شتّان مابين باطلِهم وحقّك»، و «إيه يا أحمد».

3 – المبتدأ المكتفي بمرفوعه عن الخبر، كلفظ «راغبٌ» في قوله سبحانه: «أراغبٌ أنتَ عن آلهتي ياإبراهيمُ»، ولفظ «مُهان» في قولك: «مامُهانٌ أخوهُ كريمٌ» .

4 – خبر المبتدأ، كلفظ «داحضة» في قوله سبحانه: «حُجّتُهُمْ داحِضَةٌ عندَ ربِّهم».

5 – ما أصلهُ خبرُ المبتدأ، كأخبار الأدوات الناسخة، مثل لفظ «أمّةً» في قوله سبحانه: «كانَ الناسُ أمّةً واحدةً»، ولفظ «واقع» في قوله سبحانه: «إنَّ الدينَ لواقِعٌ»، وكالمفعول الثاني لظنّ وأخواتها، مثل «عَمْراً مجتهداً»، والمفعول الثالث لـ «أرى» وأخواتها، مثل «واضحاً» في قولك: «أريتُك الحقَّ واضحاً».

6 – المصدر النائب عن فعل الأمر، كلفظ «صبْراً» في قولك: «صبراً على نوائبِ الدّهرِ»، ولفظ «ضرباً»، في قولك : «ضرباً العدوَّ».

قصدُ المخبرِ من إلقاء الخبر :

يقول السّكاكي : «إن حكم العقل حالَ إطلاق اللّسان هو أن يُفرغ المتكلّم في قالب الإفادة ماينطق به تحاشياً عن وصْمَة اللاّغية، فإذا اندفع في الكلام مخبراً لزم أن يكون قصدُه في حكمه بالمسند للمسنَد إليه في خبره ذاكَ إفادتَه للمخاطب». ومهما يكن، فإنّ المخبِر يقصد بإلقائه الخبرَ على مخاطبة واحداً من أمرين :

الأول - إعلام المخاطب بالحكم الذي تضمنته الجملة الخبريّة حين يكون جاهلاً به. ويُسمّى هذا الحكمُ الذي يُقصد إعلام المخاطب به «فائدة الخبر». كأن تقول لمن يجهل نجاح أخيه: «نجحَ أخوكَ». فأنت هنا تقصد إعلامه بالحكم الذي تضمّنه الخبر، وهو «نجاح أخيه». وكأن تقول لمن يجهل زمان قدومك: «قدمتُ البارحة». وكلُّ خبر قصدتَ أن تفيد فيه مخاطبتك بحكمٍ يجهلك تكون قد قصدتَ فيه إفادتَه» فائدةَ الخبر». وسمّي هذا الحكم «فائدة الخبر»؟ لأنّه المقصود بالخبر والمستفاد منه.

الثاني - إعلام المخاطب أنّ المخبر عالمٌ بالحكم الذي دلّت عليه الجملة الخبرية، حين يكون المخاطب عالماً بالحكم ولكنّه يجهل أنّ المتكلّم يعلمه أيضاً. كقولك لمن حفظ القرآن الكريم: « قد حفظتَ القرآن الكريم». وكأن تقول لمن حقّق نجاحاً كبيراً في سباق الدرّاجات: «حقّقتَ اليومَ نجاحاً كبيراً». وكقولك لمن أجهد نفسه في عمل ما «أجهدتَ نفسكَ». وأنت في هذه الأمثلة جميعاً تقصد إفادته أنّك عالمٌ بالحكم، وهو «حفظه

القرآن الكريم»، و«تحقيقه نجاحاً كبيراً»، و«إجهاد نفسه». ويسمّى علمُ المخبر بالحكم «لازم الفائدة»؛ لأنّ كلّ من أفدته حكماً لزم أن تفيده أنّك عالمٌ به أيضاً.

خروج الخبر عن الغرضين السابقين :

يحدث ألاّ يكون قصدُ المخبر إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة الخبرية ولا إفادته علم المتكلّم بهذا الحكم، بل يكون مراد المخبر غرضاً آخر يتبيّن من سياق الكلام، تدلّ عليه القرائن. على أنّ أهمّ الاغراض التي يخرج إليها الخبر :

1 – الاسترحام والاستعطاف. كقوله سبحانه: «إنّي لِمَا أنزلتَ إليَّ مِنْ خيرٍ فقيرٌ».

2 – تحريك الهمّة إلى أمرٍ يجب تحصيله. كقول القائل: «من سعى رعى ومَنْ لزِمَ المنامَ رأى الأحلامَ».

3 – إظهار الضعف، كما في قوله سبحانه حكاية عن زكريّا عليه السّلام: «ربِّ إنّي وَهَنَ العظمُ منّي واشتعلَ الرأسُ شيباً».

4 – إظهار التحسّر على شيء محبوب، كما في قوله سبحانه حكايةً عن امرأة عمران: «ربِّ إنّي وضعتُها أنثى». فأمّ مريم لا تريد الإعلام بمضمون الخبر ولا بلازمه؛ لأنّها تخاطب الباريء – سبحانه – وهو تعالى عليمٌ بكلّ شيء؛ وإنما تريد التعبير عن تحسّرها لخيبة رجائها

في ولادة ولدٍ تهبه لبيت المقدس.

5 – الفرَح بمقبل الشماتة بمدبر. كما في قوله سبحانه: «جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ».

6 – التّوبيخ، كقولك لمسلمٍ تاركٍ للصّلاة : «الصّلاةُ عمادُ الدّين». فأنت لا تريد إعلامه بمضمون هذا الخبر، وهو كون الصّلاة أساس الدين، فهو يعرف ذلك، بل تقصد تقريعه على تركه ما هو خليق بأن يتمسّك به.

7 – التّذكير بين المراتب من التّفاوت، كقوله سبحانه: «لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ غيرِ أولي الضّرَرِ والمجاهدونَ في سبيل اللّهِ».

ومثله قولي من قصيدة أتذكّر فيها بلدي «الرّقّة» :

ليسَ كلُّ البلدانِ خلْقاً سواءً   مثلَما ما الزمانُ خلقٌ وحيدُ

8 – التحذير، كقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «أبغض الحلالِ إلى اللهِ الطلاقُ».

9 – الفخر، كقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إنّ اللهَ اصطفاني من قريش».

10 – المدْح، كقول الفرزدق في مدح عليّ زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما:

يغضي حياءً ويُغضى مِنْ مهابتِهِ فما يكلَّمُ إلاّ وهو يبتسمُ

11 – الحضّ على الصبر، كقولك لمن لم يحقّق ما أراده: «الخيرُ فيما اختاره اللّه». و«أنت شابٌّ في أوّل عمرك».

12 – إظهار العجز، كقولهم: «العينُ بصيرةٌ، واليدُ قصيرةٌ». و«اللّهُ غالبٌ».

13 – التّهديد، كقولهم: «أنا وراءكَ والزّمن طويلٌ». و«يأتي الامتحانُ».

والصّحيح أنّ الأغراض التي يخرج إليها الخبر كثيرة كثرة بالغة، المرجع في إدراكها الذوق الحسّاس المميّز المدرِك لمجيء الصيغة الخبرية في غير إرادة إفادة مضمون الخبر أو لازمه.

أحوال متلقّي الخبر (المخاطب) :

اللغة وسيلتنا المثلى للاتصال بالآخرين وإعلامهم بما نريد التّعبير عنه من مقاصد الكلام المختلفة. في التواصل الكلامي هناك دائماً ثلاثة عناصر أساسية:

المُرْسِل – الرّسالة – المتلقّي

أمّا المرسل فهو منشيء الكلام أو المعبِّر بالكلام الذي يرمي إلى إعلام المتلقي بما يريد.

وأمّا الرّسالة فهي المادة الكلاميّة التي يوجّهها المرسلُ إلى المتلقي. قد

تبيَّنَا أن قصد المخبرِ أحد أمرين: إفادة المتلقي (المخاطب) مضمون الجملة الخبريّة «فائدة الخبر» أو لازم هذا المضمون «لازم فائدة الخبر». الرسالة أداة توصيل هذا القصد.

وأمّا المتلقّي (المخاطب) فهو مَنْ يقصد المرسلُ توجيه الرسالة إليه. هذا المتلقي ينبغي أن يفكِّر فيه المرسل قبل أن يوجّه كلامه إليه ويتبين موقفه إزاء مضمون الخبر الذي يلقيه إليه، ثم يصوغ خبره الموجّه إليه صياغة دقيقةً، على نحو يكون فيه مكيَّفاً بكيفيّة مخصوصة، كما يقول السكاكي، مناسبة لموقفه العقليّ إزاء الخبر الذي يلقيه إليه. إذ لكلّ مقامٍ مقال، أو لكلّ حالٍ من أحوال المتلقي مقالٌ مكيّفٌ بكيفيّة مخصوصة من جانب المرسل.

وقد تبيّن البلاغيون أنّ المتلقي (المخاطب) إزاء الخبر الذي يلقى إليه واحدٌ من ثلاثة :

1 - أن يكن خالي الذهن تماماً من الخبر غيرَ متردّدٍ فيه ولا منكر له.

2 - أن يكون دارياً للخبر متردّداً فيه، طالباً الوصول إلى اليقين فيه.

3 - أن يكون منكراً للخبر المراد إلقاؤه إليه معتقداً عكسَ ماتلقيه إليه.

وهذه - على الحقيقة - صورٌ لذهن متلقي الخبر يتصوّر المرسل أو المتكلّمّ أنّ متلقيّه على واحدة منها. وهو يستشف ذلك استشفافاً أو يتراءى له من مقدّمات أو قرائن أحوال.

أحوال متلقّي الخبر تحدّد صِيَغ الخبر الملقى إليه - أي : «لكلّ مقامٍ صيغة مقال»

تبيّنّا في تعريف علم المعاني - عند السكّاكي - أنّه عبارةٌ عن تتبّع خواصّ تراكي البلغاء في الإفادة والاستحسان. وقد دلّ تتبّعُ تراكيب البلغاء وتراكيب البيان العالي في كتاب الله سبحانه على أنّ بعض التراكيب أكثر إفادةً وأكثر قبولاً عند المتلقين في مقامات خاصة وأحوال محدّدة. ويقول قانون علم المعاني إنّ إفادة الكلام (بلاغته) وجماليّته تتوقفًا على مناسبته للمقام الذي يقال فيه أو لحال متلقيّه. ومادامت أحوال المتلقي ثلاثاً فإنّ صيَغ الخبر الملقى إليه ثلاثٌ أيضاً؛ وتُختار له الصيغة المناسبة لحاله. وإليك توضيحُ الأمر :

1- المتلقي الخالي الذهن من الخبر الذي لم يسمع به قبلُ يُلقى عليه الخبرُ خالياً من أدوات التأكيد؛ لعدم حاجته إلى التأكيد، فإنّ من طبيعة النفس أن تتلقى الأخبار التي لا علمَ لها بها بالقبول والتصديق. ولذلك قال الشاعر :

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى　　فصادفَ قلباً فارغاً فتمكّنا

مثال ذلك قولك لمن لا يعلم نجاحَ أخيه «نجحَ أخوكَ». تلقي إليه الخبر هكذا خلِواً من التّأكيد. ومثله قوله سبحانه: «المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدّنيا» و قوله سبحانه : «والفتنةُ أ شدُّ من القتْلِ» ، وقوله

سبحانه: «والله خيرٌ وأبقى» ويسمّى هذا الضّرب من الخبر «الخبر الابتدائي» لأنه الصيغة اللغوية أو الكيفية اللغيّة المخصوصة المطابقة لحال متلقّ تبده بالخبر ابتداءً.

2 – المتلقّي المتردّد في الخبر، الذي يطلب الوصول إلى معرفته وتبيّن حقيقته يُستحسن أن يؤكد له الخبر الملقى إليه بأداة تأكيد واحدة، ليُزال التردّد من نفسه ويُقوّى الحكم في ذهنه .

مثال ذلك قولك لمن سمع بنجاح أخيه ولكنّه متردّد في تصديقه طالبٌ تبيُّن حقيقة الأمر: «قد نجحَ أخوكَ»؛ تلقي إليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد هو «قد». وقوله سبحانه: «إنَّ الصّلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكَرِ، وكذكْرُ الله أكبرُ» ؛ فالجملة الأولى مؤكدة بـ «إنّ» والثانية بـلام الابتداء». وكذا قوله سبحانه: «قدْ بَدَتِ البغضاءُ مِنْ أفواهِهِمْ». ويسمّى هذا الضّربُ من الخبر «الخبر الطّلَبيّ»؛ لأنّه الصيغة اللغوية أو الكيفيّة اللغويّة المخصوصة المطابقة لحال متلقّ متردّدٍ طالبِ معرفة الحقيقة.

3 – المتلقي المنكرِ للخبر المراد إلقاؤه إليه، المعتقد خلافَه، يجب تأكيد الخبر له تأكيداً يتناسب مع درجة إنكاره له؛ لإزالة هذا الإنكار. وذلك كقولك لمن ترامى إليه نبأ نجاح أخيه، فأنكر هذا النجاح معتقداً رسوب أخيه لسبب من الأسباب: «إنَّ أخاكَ لناجحٌ»؛ تلقي إليه الخبر مؤكّداً بمؤكّدين: «إنّ» و«اللام المزحلقة». ومثل ذلك قوله سبحانه: «إنما توعدونَ لصادقٌ. وإنَّ الدينَ لواقعٌ»، وقوله سبحانه: «إنّ عذابَ ربِّكَ لواقعٌ»، وقوله سبحانه: «أهؤلاءِ الذينَ أقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ إنَّهُمْ

لَمَعَكُمْ». ويسمّى هذا الضربُ من الخبر «الخبر الإنكاريّ»؛ لأنّه الصيغة اللغويّة أو الكيفيّة اللغويّة المخصوصة المطابقة لحال متلق منكِرٍ لمضمون الخبر.

ومما يصوّر لك تحديد أحوال المتلقيّ لصيغ الخبر الملقاة إليه ماروَوا من أنّ أبا إسحاق الكنديّ مضى إلى أبي العبّاس المبرّد يسأله: «إنّي لأجد في كلام العرب حشوا. فقال أبو العبّاس: أين وجدتَ ذلك؟. قال: أجدهم يقولون: «عبدُ الله قائمٌ»، ثمّ يقولون: «إنّ عبدَ الله قائمٌ»، ثم يقولون: «إنّ عبد اللّه لقائمٌ»؛ فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد. فأجاب أبو العبّاس: بل المعاني مختلفةٌ؛ فالأوّل إخبارٌ عن قيامه، والثّاني جوابٌ عن سؤال سائل، والثّالث جواب عن إنكار منكرٍ؛ فقد اختلفت الألفاظ لاختلاف المعاني. فما أحار الكنديّ جواباً».

وهكذا نخلص إلى القانون البلاغي الحاسم الذي يعلن:

يجب أن يأتي الإسنادُ في الجملة الخبريّة مطابقاً لحال المتلقّي :

خالياً من التأكيد للمتلقّي الخالي الذهن .

مقوّىً بمؤكدٍ واحدٍ للمتلقيّ المتردّد .

مؤكّداً بأكثر من مؤكدٍ للمتلقّي المنكِر .

ويسمّى البلاغيون إخراجَ الكلام على الوجوه المذكورة إخراجاً للكلام على مقتضى ظاهر الحال. وقد يخرج الكلام على خلاف هذا المقتضى، كما سيأتيك .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

ينبغي أن يُعلم أنّ المرسل (المتكلّم) قد يصرف النّظر عن ظاهر حال المتلقّي ويراعي أمراً آخر غير ماظهر له من حال المتلقيّ لسبب من الأسباب. والأسباب التي يلحظها المتكلمّ في المتلقيّ وتجعله يخرج كلامه له على خلاف مقتضى الظاهر أساسها دائماً تصرّف المتلقيّ تصرّفاً يخالف مقتضى علمه بالخبر. فإنْ تردّد المتلقي في مضمون الخبر أو إنكاره له يترتب عليه تصرّف لائق أو مناسب لكلّ منهما، أي إنّه ينبغي أن يعمل. بمقتضى علمه. ولكنه ربّما لا يعمل بمقتضى هذا العلم فيُلقي إليه المتكلّم خبره على خلاف مقتضى حاله؛ أي يعامله على أساس تصرّفه لا على أساس علمه. ويقول البلاغيون: إنّ كمالَ العلمِ بمضمون الخبر حصول مقتضاه فإذا لم يحصل، لم يحصل كمالُ العلم. وخير مايصرّ لنا ذلك قول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام لابن عبّاس: «يابن عبّاس، عرفتَ مَالزَمْ» فالمعرفة – أو العلم - تقتضي اللزوم أي التنفيذ لمقتضاها، إن لم يعمل العالم بما علم عُدّ جاهلاً ويعامل في الخطاب معاملة الجاهل.

ويتّخذ إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر صوراً متعدّدة، إليكَ القولَ في أهمّها :

1 – تنزيل العالم بفائدة الخبر أو بلازمها، أو بهما معاً، منزلة الجاهل بذلك لعدم عمله بمقتضى علمه، كقولك لطالب يعرف قرب موعد الامتحان ولا يستعدّ لذلك: «الامتحانُ على الأبواب». عرف ولم يعمل. بمقتضى ماعرف فنزّلته منزلةَ من لم يعرف، وألقيت عليه الخبر رغم

معرفته له؛ توبيخاً له وتقبيحاً لمسلكه. وكقولك لمن يعترض على إسرافك في الإنفاق: «المالُ مالي». وكقولك لمن يلومك على البكاء على عزيز: «الدمعُ دمعي والعيونُ عيوني». ومن تنزيل العالم بلازم فائدة الخبر منزلة الجاهل أنّ صديقاً لك ساعدك في أمرٍ فشكرتَ له صنيعه، لكنّ ذلك الصديق المحسن دأب على إخبار الآخرين. بمساعدته إياك. إذ ذاك تقول له: «ساعدتَني، أوقّعُ لك بالعشرة». فمقتضى الظاهر ألاّ تلقي إليه الخبر البتّه لعلمه به، ولكنّه عندما لم يعمل بمقتضى ماعلم أحوجك إلى أن تنزّله منزلة الجاهل توبيخاً وتقريعاً.

2 – تنزيل خالي الذهن منزلة السّائل المتردّد، إذا تقدّم في الكلام مايشير إلى جنس الخبر، كقوله سبحانه: «ما أبرّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأمّارة بالسّوء». جاء الخبر مؤكّداً رغم أنّه موجّه إلى خالي الذهن الذي لا ينبغي أن يؤكّد له الخبر. ومبعث هذا الإخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر أنّه تقدّم فيه مايلوّح لخالي الذهن هذا بالخبر ويومىء له إليه، وهو قوله «وما أبرّىء نفسي». ومن ثم صار المتلقي الخالي الذهن يتطلّع إلى هذا الخبر تطلّع الطالب له المتردّد بشأنه المتسائل: لماذا لا يبرّىء نفسه، وهل لذلك من سبب؟. ومثله أيضاً قوله سبحانه في خطاب نوح عليه السّلام: «ولا تخاطبْني في الذين ظلموا إنّهُمْ مغرقون». لما أمر الباريء – سبحانه – نبيَّه أولاً بصنع الفلك، ونهاه ثانياً عن مخاطبته بالشفاعة فيهم، صار نوح – عليه السلام – في مقام السّائل المتردّد، وإن لم يكن سائلاً متردّداً حقيقةً، وأُخرج له الخبر مؤكّداً هكذا: «إنّهم مُغرقون» على خلاف مقتضى الظاهر. ومنه أيضاً قوله سبحانه: «ياأيّها الناسُ اتّقوا ربّكم إنّ زلزلةَ السّاعةِ

شيءٌ عظيم». وقوله سبحانه: «إذ يقولُ لِصاحِبِه لا تحزَنْ إنَّ اللّهَ معنا».

3 - تنزيل غير المنكرِ منزلةَ المنكَرَ إذا لاح عليه شيء من أمارات الإنكار، كقولك لمن يؤذي جارَه «إنّ فلاناً لجارُك». فهو عالم بذلك غير منكر له ولكنّ سلوكه إزاء جاره سلوكُ المنكرِ، فخوطب بالكيفيّة اللغويّة المخصوصة المطابقة لحال المنكر. ومنه في الذكر الحكيم قوله سبحانه: «ثمّ إنكُمْ بعدَ ذلكَ لَميّتونَ». أكد إثبات الموت تاكيدين وإن كان مماً لا يُنكره أحدٌ؛ وذلك لتّنزيل المخاطبين منزلة من ينكر الموت إنكاراً شديداً لتماديهم في الغفلة وعدم الإعداد لما بعد الموت؛ ومن ثمّ أُخرج لهم الكلام على خلاف مقتضى الظاهر. وقوله سبحانه: «وأنّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها»، وقوله سبحانه في خطاب المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إنّكَ لا تُسمِعُ الموتى ولا تُسمعُ الصُمُّ الدّعاءَ».

ومنه في الشعر قول حَجَل بن نَضلَه القيسي (وهو من أولاد عمّ شقيق):

جاءَ شقيقٌ عارضاً رُمْحَه إنّ بني عمِّك فيهمْ رماحْ

فإنّ هيئة مجيء شقيق مظهراً شجاعته، قد وضع رمحه عرضاً كفعل من لا يقيم أي وزن لمن هم أمامه من الفرسان، دليلٌ على أنّه يعتقد أن لا رمح فيهم، بل كلّهم عُزْلٌ لا سلاح معهم. وجليٌ أنّه لا ينكر حقيقة أنّ في بني عمّه رماحاً، لكنّ مجيئه على هذه الصورة يوحي بذلك. ومن ثمّ عومل على أساس منظره لا على أساس مَخْبَره؛ فخوطب مخاطبة المنكر؛ حيث أكدّ له القول بـ «إنّ».

وكذا قول طرفة بن العبد :

لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكا لطِّوَلِ المُرض وثِنْياهُ باليدِ

4 – تنزيل المتردّد في الخبر منزلة المنكر، كقولك لمن يتردّد في مجيء أخيه من السفر، ولكنّه يرجّح عدم مجيئه: «إنّ أخاكَ لقادمٌ». ألقيت إليه صورة الخبر التي تلقى إلى المنكر، رغم أنّه غير منكر بل متردّد فحسب؛ لأنّه يرجّح عدم مجيء أخيه، فصار بمنزلة المنكر لمجيئه.

5 – تنزيل المنكرِ منزلة المتردّد، كقولك لمن ينكر فضل العلم: «إنّ العلمَ نافعٌ». ألقيتَ إليه صورة الخبر المناسبة للمتردّد رغم أنّه منكِر؛ لأنّ إنكاره ضعيفٌ يزول بأدنى تأكيد.

6 – تنزيل المنكرِ منزلة خالي الذهن حين يكون أمامه من الأدلّة مالو تأمّله لترك الإنكار، كقوله سبحانه مخاطباً منكري الوحدانيّة: « وإلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ». أُلقيتْ إلى المنكرين صورة الخبر المناسبة لخالي الذهن (الخلوّ من التأكيد» لكثرة الأدلّة الماثلة أمام المنكرين على هذه الوحدانيّة، التي لو كان منهم أدنى تأمّل لها لعزفوا عن إنكارهم. ومن هذا قوله سبحانه يخاطب المؤمنين والمنكرين: «يسبّحُ للهِ مافي السموات ومافي الأرضِ المَلِكِ القُدّسِ العزيزِ الحكيم» وقوله سبحانه: «لَهُ مُلْكُ السَمَواتِ والأرضِ وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ».

إضافات وفوائد :

1 – يعني التوكيد في المقام الذي نحن فيه تمكين الحكم في النّفس تقريره وتقويته، على نحو يزيل شكّ المخاطب فيما تخبره إيّاه، ويجعله أكثر اطمئناناً إلى ماتلقيه عليه. والتّوكيد المراد هنا هو توكيد الحكم،

لا توكيد المسند إليه ولا توكيد المسند.

2 – يؤكد الحكم الذي تؤدّيه الجملة الأسمية بـ «إنّ» أو بـ «إنّ اللام»، أو بـ «إنّ واللام والقسم». تقول: «إنّه أخي، وإنّه لأخي، والله إنّه لأخي. ويؤكّد الحكم الذي تؤدّيه الجملة الفعلية بـ «قد» أو بـ «قد والقسم». تقول: قد أثارني حديثُك أمسِ، ولقد أثارني حديثُك أمس.

3 – أشهر أدوات التوكيد هي: إنَّ، أنَّ، لام الابتداء، نونا التوكيد الثقيلة الخفيفة، القسم، أمّا: حرف الشرط التّفضيل، أحرف التنبيه، أحرف الزيادة، ضمير الفصل، تقديم ماهو فاعل في المعنى كقولك: أحمد يدرِّس اللغة العربية. السّين وسوف الدّاخلتان على فعل في مقام وعد أو وعيد، قد التحقيقيّة، تكرير الفغي، إنما.

4 – الجملة الأسميّة آكدُ من الجملة الفعليّة؛ فحين يراد الإخبار وحده يؤتَى بالفعليّة، وحين يراد التّأكيد يُعمد إلى الاسميّة وحدها، أو مع غيرهاحسب درجة الحاجة إلى التأكيد.

أسئلة وإجاباتها حول أغراض الخبر:

حدّد غرض الخبر فيما يأتي :

1- هناءً محاذاكَ العزاءَ المقدَّما فما عَبَسَ المحزونُ حتيّ تبسّما

2- أصبتُ بسادةٍ كانُوا عيوناً بِهِمْ نُسقى إذا انقطع الغمام

3- إلهي، عبدُكَ العاصي أتاكا مقِراً بالذنوبِ وقد دعاكا

4 - الباطلُ مخصومٌ وإن قُضي له، الحقُّ مُفْلِجٌ وإن قُضي عليه.

5- أ- أنتَ نجحتَ (لمن يعلم ذلك) ب - أخوكَ نجح (لمن لا يعلم)

جـ- «لا يمسُّه إلاّ المطهَّرونَ»

6 - «وماربُّكَ بغافلٍ عمّا يعملُ الظالمونَ».

7- ذهبَ الشبابُ فماله من عودةٍ وأتى المشيبُ فأينَ منه المهرَبُ

8 - أ- قيمة كلّ امرىء ما يحسن، ب- الجزاء من جنس العمل.

9 - ذهب الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ وبقيتُ في خلْفٍ كجِلدِ الأجربِ

10-لا يستوي كسلان ونشيط. ب- «كلُّ مَنْ عليها فانٍ» جـ- الشمسُ طالعةٌ (تقال للعاشر).

الإجابات:

1- الفرح بالمقبل ونسيان المدبر.

2- التأسّف والتحزّن على فقدان أولئك السادة.

3- الخشوع والضعف .

4 – التنشيط وتحريك الهمّة نحو مجانبة الباطل والتزام جادة الحقه.

5– أ– إفادة المخاطب لازم الحكم. ب– إفادة المخاطب حكم الخبر.

جـ– إفادة المخاطب حكم الخبر.

6 – تهديد المخاطب على مايرتكبه من المظالم.

7– التأسّف والتحسّر على الشباب الذاهب.

8 – أ و ب– التنشيط وتحريك الهمّة نحو العمل الصالح.

9 – التأسّف التحسّر على مافات.

10– أ– التذكير بما بين المراتب من التفاوت. ب– وعظ المخاطب وإرشاده.

جـ– توبيخ المخاطب على عثرته في وضح النهار.

أسئلة وإجاباتها حول نوع الخبر (1)

– حدّد فيما يأتي نوع الخبر، وبيِّن ماجرى من الأخبار على مقتضى الظاهر وماجرى على خلافه، واذكر المؤكد إن كان موجوداً:

قال سبحانه: «ولكُمْ في القِصاصِ حياةٌ ياأولي الألباب».

1- وإنّي لحلْوٌ تعتريني مرارةٌ وإنّي لترّاكٌ لما لم أعوِّدِ

2- وإنّي لمزجاءُ المطيِّ على الوجى وإنّي لترّاكُ الفِراش الممهَّدِ

3- وما أبرِّيء أخي، إنّ ابنَ آدم خطّاء.

4- يا طالبَ الرزقِ في الآفاقِ مجتهداً اقصرْ عناكَ فإنَّ الرّزقَ مقسومُ

5- إنّ القِمار لرِجْسٌ (في خطاب مسلم).

6- لا تراوغْ في الحَقّ؛ إنّ المبطلَ مخذولٌ.

7- ماإنْ ندمتُ على سكوتي مرّة ولقدْ ندمتُ على الكلام مراراً

8- وإنيّ لصبّارٌ على ماينوبني وحسبكَ أنّ الله أثنى على الصَّبرِ

9- إنّ شفاءَكَ لقريبٌ إن شاء الله (لمريضٍ تردّد في شفائه)

10- فما الحداثةُ عن حلْمٍ بمانعةٍ قد يوجدُ الحِلْمُ في الشبّابِ والشّيب

أسئلة وإجاباتها حول نوع الخبر (2)

- حدّد فيما يأتي نوع الخبر، وبيّن ماجرى من الأخبار على مقتضى ظاهر الحال وماجرى على خلافه، واذكر المؤكد إن كان موجوداً:

1- إنَّ الغنــيَّ منَ الرِّجالِ مُكَرَّم   وتراه يُرجى مالديه ويُرغَبُ

2- إنّ الحياة لثوبٌ سوفَ نخلعهُ   وكلُّ ثوبٍ إذا مارثَّ ينخلِـعُ

3- قال سبحانه: «ثمَّ إنَّكُمْ بعدَ ذلكَ لميِّتون».

4- قال سبحانه: «وجعلنا نومَكُمْ سُباتاً. وجعلنا الليلَ لِباساً. وجعلنا النهارَ معاشاً».

5- أما دونَ مصر للغني متطلَّبُ   بلى إنّ أسباب الغنى لكثير

6- قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ من البيانِ لَسحراً وإنّ من الشعر لحكمةً أو حكما».

7- ألا في سبيل المجد ماأنا فاعلُ   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائِلُ

8- قال سبحانه: «لئِنْ أنجيتَنا مِنْ هذه لنكونَنَّ من الشاكرينَ».

9- وإنيّ لقوّالٌ لذي البـثّ مرحبا   وأهلاً إذا ماجاءَ مِنْ غيرمرصَدِ

10- ولقد نصحتُكَ إنْ قبلت نصيحتي   والنُّصْحُ أغلى مايباعُ ويوهَبُ

- الإجابات:

الجملة	نوع الخبر	المؤكدات	نوع جريان الخبر: علي مقتضي الظاهر أو على خلافه
1- إنّ الغنيّ .. مكرّم	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردّد
- وتراه يرجي	ابتدائيّ		جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال
2-إنّ الحياةَ لثوب	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهرالحال بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر
- وكلّ ثوبٍ .. ينخلع	ابتدائيّ		جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال
3- «ثمّ إنكم.. لميّتون»	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل العالم منزلة المنكر لغفلتهم عن الموت
4- «وجعلنا.. وجعلنا..	طلبيّ	تكرير «جعل»	جارٍ على غير مقتضى ظاهرالحال بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردّد
5- إنّ أسباب الغنى لكثير	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على مقتضى ظاهر الحال، لأنه فى خطاب متردّد
6- إنّ من البيان لسحرا	إنكاريّ	»	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر
- وإنّ من الشعر لحكمة	»	»	» » » » » » » »
7- ألا فى سبيل المجد ماأنا فاعل	طلبيّ	ألا	يحتمل الجريان على المقتضى ومخالفته
8- لئنْ أنجيتَنا.. لنكوننَ	إنكاريّ	لام القسم-لام التوكيد-نون التوكيد	» » » » »
9- وإنيّ لقوّالٌ	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على خلاف مقتضي الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة المنكر
10-فما الحداثة بمانعةٍ	»	لام القسم - قد	يحتمل الجريان على المقتضى والمخالفة.

- الإجابات:

الجملة	نوع الخبر	المؤكدات	نوع جريان الخبر: علي مقتضي الظاهر أو على خلافه
1- «ولكم في القصاص حياة»	ابتدائيّ		جارٍ على مقتضى ظاهر الحال.
2- وإنّي لحلوٌ	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جار على غير مقتضى ظاهر الحال، بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر
- وإنّي لترّاكٌ	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	» » » » » » » » »
- وإنّي لمزجاء	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	» » » » » » » » »
3- وما أبرّئ أخي، إنّ..	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردد
4- اقصر عناك؛ فإنّ الرزق..	طلبيّ	إنّ	» » » » » » » » »
5- إنّ القمارَ لرجسٌ (لمسلم)	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل العالم بالحكم منزلة المنكر
6- لا تراوغ في الحق، إنّ المبطل	طلبيّ	إنّ	جارٍ على مقتضى الظاهر بتنزيل الخالى الذهن منزلة المتردد
7- ما إنْ ندمتُ	طلبيّ	إنْ الزائدة	» » » » » » » »
- لقد ندمتُ	إنكاريّ	لام القسم - قد	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل الخالى الذهن منزلة المنكر
8- وإنّيَ لصبّارٌ	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر
9- إنّ شفاءكَ لقريب	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل المتردد منزلة المنكر
10-فما الحداثة بمانعةٍ	طلبيّ	الباء الزائدة	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردّد

المبحث الثانى - أحوال المسند إليه

ويتضمَّن:

- حذف المسند إليه
- ذكر المسند إليه
- تعريف المسند إليه :
- إيراد المسند إليه ضميراً
- إيراده علَماً
- إيراده اسمَ إشارة
- إيراده اسماً موصولاً
- إيراده معرَّفاً بـ «ألْ»
- إيراده معرّفاً بالإضافة
- تنكير المسند إليه
- تقييد المسند إليه :
- إيراد المسند إليه متبوعاً بوصف
- إيراده مؤكَّدًا
- إيراده مبدَلاً منه
- إيراده متبوعاً بعطف بيان
- إيراده متبوعًا بعطف نَسَق
- إيراده معقباً بضمير فصل

- تقديم المسند إليه
- تأخير المسند إليه
- تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه:
  - وضع المضمَر موضع المظهَر
  - وضع المظهَر موضع المضمَر
- تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في غير المسند إليه:
  - الالتفات
  - أسلوب الحكيم
  - القـلْب
  - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي
  - التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل
  - مخالفة السياق في صيغ الأفعال

حذف المسند إليه:

المسند إليه أحدُ ركني الجملة الأساسيين، بل هو الرّكن الأعظم الذي يؤسّس عليه أيّ كلام ذي دلالة. ولما كان مدار حُسْن الكلام وقبحه – كما يقول السّكاكي – على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعدم انطباقه عليه، أثرت أساليب البلغاء طيّ ذكر المسند إليه في الأحوال والمقامات التي تقتضي ذلك. وقد نبّه عبد القاهر على جمالية الحذف هذه فقال: إنّه لعجيبُ الأمر شبيبة بالسحر، فإنّك ترى به ترْكَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصّمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتمّ مايكون بياناً إذا لم تُبِث». *ومهما يكن، فإنّك ينبغي أن تكون على ذكر من أن المسند إليه يحذف لأغراض كثيرة، نذكر لك منها:*

1- الاحتزاز عن العَبَث بناء على الظّاهر، لدلالة القرينة عليه وعلم السامع به. كأن تقول: «حَضَرَ» تريد «الأمير»، إن كان ثمّة قرينة لفظيّة أو حاليّة تدلّ على ذلك.وتقول العربُ: «أرسلتْ»، وهم يريدون «جاء المطر» ولا يذكرون السماء، ولكنّهم لايقولون هذا إلاّ إبان سقوط المطر. ومن ثمّ فإن قرينة الحال هي الدالّة على المحذوف، ولدلالتها عليه يكون ذكره عَبَثًا.

2- تخييل العدول إلى أقوى الدّليلين من العقل واللفظ. ويعني ذلك أنّه يُعتمد في تعرّف المسند إليه إمّا على اللفظ وذلك حين يذكر، وإمّا على العقل وذلك حين يحذف، لكنّ دلالة العقد أقوى من دلالة اللفظ؛ ولذلك يعمد البلغاء أحياناً إلى حذف المسند إليه لإيهام أنّ العقل هو الدّالّ عليه. وذلك كما تقول: "استُشهيد»، وأنت تريد «المجاهد»، إذا كانت هناك قرينة تدلّ على أنّ الذي استشهد هو«المجاهد». وكما تقول «طيّب»،

وأنت تريد «صديقك»، إذا كانت هناك قرينة تدلّ على أنّ من وصفته بهذه الصفة هو «الصّديق»

3- ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب ضجر أو سآمة، كقوله سبحانه : «فصلّتْ وجهَهَا وقالتْ عجوزٌ عقيمٌ »، لم تقل : «أنا عجوزٌ»؛ لما تحسّه من ضيق الصدر وصعوبة إطالة القول لتذكّرها ماهي عليه من العقم والكِبَر. ومن هذا قول الشاعر:

قال لي " كيفَ أنتَ؟ – قلتُ : عليلُ   سَهَرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلُ

لم يقل الشّاعر: أنا عليلٌ وحالي سهر دائم؛ لضيق صدره عن الإطالة بسبب الهموم التي استولت عليه أو تباريح الهوى التي استبدّت به.

4- الحذَر من فوات فرصة، كما يقول رجلٌ لصائد : «غزال» يريد «هذا غزالٌ»؟ حذف المسند إليه «هذا» مخافة فوات الفرصة بإطالة الكلام. وكقولك لمن يقف على سكّة الحديد والقطار قادمٌ: «قطار»؛ أي: « هذا قطار».

5- اختبار تنبّه السماع إلى المسند إليه عند قيام القرنية الدالّة عليه، كقولك: «نورٌ مستفادٌ من نور الشمس» تريد القمر، وكقولك: «قاهر الصّليبيين» تريد: «صلاح الدين الأيوبي»، وكقولك: «كيدهنّ عظيم»، تريد: النساء.

6- إشعار أنّ في تره تطهيراً له عن لسانك أو تطهيراً للسانك عنه والأول كقولك « رافعُ راية التّوحيد» و«هادمُ دعائم الشّرك» تريد المصطفى عليه الصّلاة والسّلام. وقد حذفتَه ن لفظك صوناً له عن لسانك؛ تعظيماً له. والثّاني كقولك: « مخذولٌ مطرود» و«لَعنَه الله» تريد «إبليس اللعين»، وقد حذفته صوناً للسانك عنه؛ تحقيراً له.

7- تأتّي الإنكار وتيسُّره عند الحاجة، كأن يحضر إليك جماعة بينهم واحد خصمٌ لك، فتقول لشخصٍ آخر يجلس معك: «لئيم خسيسٌ» تريد«الخصم». حذفتَ المسند إليه ليتيسّر لك الإنكار عندما يلومك على سبِّه؛ إذ تقول :«ماعنيتك، بل أردتُ شخصاً آخر».

8- تعيّن المسند إليه، ويتعيّن في الحالات الآتية:

أ- ألاّ يصلح المسند إلاّ للمسند إليه، كقوله سبحانه : « عالمُ الغيبِ والشّهادةِ الكبيرُ المتعال». «عالمُ» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو؛ ولأنّ هذا الخبر لايكون إلاّله سبحانه جاء الكلام على الحذف. وفي ذلك قوّة دلالة على الوحدانيّة والجلال. وكقوله سبحانه: «يخرجُ الحيَّ من الميّتِ ويخرجُ الميّت من الحيِّ ويُحيي الأرضَ بعد موتِها».

ب- أن يكون المسندُ كاملاً في المسند إليه، كقولك: «دينُ التّوحيد» تريد الإسلام، و«فيلسوفُ الشعراء»، تريد المعريّ، و«هادمُ اللذّاتِ» تريد لموت. حذفتَ المسند إليه في المواضع الثلاثة لتعيُّنه من خلال اكتمال الصفات المذكورة فيه.

جـ - أن يكون المسند إليه معهوداً بين المتكلّم والمتلقّي، كقوله سبحانه : «واستوتْ على الجوديِّ » أي السفينة، وهي معهودة في الكلام المتقدّم في قوله سبحانه: «واصنَعِ الفُلْكَ بأعيُننا». وقوله سبحانه: « حَتَّى تَوارت بالْحَجاب» أي الشمس.

9- ادّعاء تعيُّن المسند إليه، كقول: وهّابُ الألوف»، تريد «الأمير». حذفت المسند إليه لتعيّنه أي تفرّده بهذا الفعل ذلك. ومنه قوله سبحانه حكاية عن ملأ موسى عليه السلام: «فقالوا ساحرٌ كذّابٌ»؛ إي هذا ساحرٌ كذّاب. وهم يريدون بهذا الحذف الزعم أنّ قولهم «ساحر» لايُفهم منه

حين يُطلق إلا موسى عليه السلام؛ ادّعاءً لتعيّنه بهذه الصفة.

10- تعجيل المسرّة بالمسند، كقولك: «دينارٌ» أي هذا دينار. وقولك: «ناجحٌ»، أي: أنا ناجحٌ.

11- اتباع الاستعمال الوارد على ترك نظائره لقصد إنشاء المدح أو الذمّ أو الترحّم، كقولهم في المدح:«الحمدُ لله أهلُ الحمدِ» برفع «أهل»؛ أي: هو أهلُ الحمد وفي الذمّ: « أعوذ باللهِ من الشّيطانِ الرّجيمُ» برفع الرّجيم»؛ أي : هو الرّجيم. وفي التّرحم: «اللهمّ ارحمْ عبدَكَ المسكينُ» برفع «المسكين» ؛ أي : هو المسكين. ومنه لإنشاء المدح قول الشعر:

هُمُ حلُّوا منَ الشّرَفِ المعلّى ... ومِنْ كرمِ العشيرةِ حيث شاؤوا

بناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْمٍ ... دماؤهُمُ منَ الكلَبِ الشّفاءُ

أي : هم بناةُ مكارم.

ومنه لإنشاء الذمّ قولُ الأقيشر في ابن عمٍّ له موسرٍ سأله فمنعه، فشكاه إلى القوم وذمّه فوثب إليه ابنُ عمّه ولطمه:

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يلطمُ وجهَهُ ... وليسَ إلى داعي النّدى بسريعِ

حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينِهِ ... وليسَ لما في بيتِهِ بمُضيعِ

أي: هو سريعٌ، وهو حريصٌ.

وكثيراً مايحذفون المبتدأ بعد أن يذكروا الديار والمنازل، فيقولون: ربعُ كذا وكذا . قال حسان بن ثابت:

عفتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواءُ ... إلى عذراءَ منزلُها خلاءُ

ديارٌ مِنْ بني الحَسْحاسِ قفرٌ ... تعفّيها الرّوامسُ والسّماءُ

أى: هـي ديارٌ

وقال الآخر:

اعتادَ قلبَكَ من ليلى عوائدُهُ | وهاجَ أهواءَكَ المكنونةَ الطَّلَلُ
رَبْعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ بِهِ | وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤُهُ خَضِلُ

أي : هو بعٌ قواء.

يقول عبد القاهر عن هذا الضرب من حذف المبتدأ:

«ومن المواضع التي يطّرد فيها حذفُ المبتدأ القطعُ والاستئناف، يبدؤون بذكر الرجل ويقدّمون بعض أمره، ثمّ يدَعون الكلام الأول ويستأنفون كلاماً آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ.» وعن جماليّة الحذف في هذا الموضع والخلابة فيه يقول عبد القاهر:

وعن جماليّة الحذف في هذا الموضع والخابة فيه يقول عبد القاهر:

«فتأمل الآنَ هذه الأبيات كلّها [الأبيات التي ورد فيها الحذف] واستقرها واحداً واحداً، وانظره إلى موقعها في نفسك، وإلى ماتجده من اللطف والظّرف إذا أنتَ مررت بموضع الحذف منها، ثم فلّيتَ النفسَ عمّا تجد وألطفتَ النظر فيما تحُسّ به، ثمّ تكلّفْ أن تردّ ماحذفَ الشاعر وأن خرجه إلى لفظِك وقعه في سمعك، فإنّك تعلم أنّ الذي قلتُ كما قلتُ، وأن ربَّ حذفٍ هو قلادةُ الجيدِ وقاعدةُ التجويد».

12- إخفاءُ الأمر عن غير المخاطب نحو قولك: « أقْبَلَ» تريد: أقبلَ عليٌّ، مثلا.

ذكر المسند إليه:

قلنا قبل إنّ المسند ركنُ الجملة الأساسيّ، وإذا كان ذكرُ أيّ لفظٍ دالّ في الكلام أمراً لامحيد عنه ابتغاء الإفادة التّامّة فإنّ ذكر المسند إليه أمرٌ واجب ولايحذف مالم يكن ثمّة قرينة تدلّ عليه عند الحذف. ويُلحظ في أساليب البلغاء ترجيح الذكر في بعض المواطن رغم وجود القرائن الدّالة على المسند إليه المحذوف. فمقتضيات الأحوال هي ترجّح الذكر على الحذف رغم وجود القرينة، فلكلّ منزلةٍ معرضُها ولكلّ مقامٍ مقاله. *وإليك بعض الأغراض البلاغيّة التي ترجّح ذكر المسند إليه رغم وجود القرينة التي تيسّر الحذف:*

1- زيادة التقرير والإيضاح، كقوله سبحانه: « أولئكَ الذين كفروا بربِّهِمْ وأولئكَ الأغلالُ في أعناقِهِمْ وأولئكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالدونَ». تكررّ المسند إليه «أولئك» مع كلّ حكمٍ، رغم إمكانية الاستغناء عن الذكر في الجملتين اللاّحقتين؛ قصداً إلى تقرير المسند إليه وإيضاحه بذكره وبدلالة القرينة عليه، كمن يُمسِك بالمجرم الذي طال البحث عنه فيعلن على الأشهاد: هذا الذي قتل، هذا الذي نَهَب، هذا الذي سلَب.. الخ.

ومن صوره الرائعة في الشّعر قول ابن الدُّمَيْنة يخاطب صاحبتَه أُمَيْمَةَ:

وأنتِ التي قطّعتِ قلبي حَزازةً   وفرّقْت قَرْحَ القلبِ فهو كليم

وأنت التي كلّفتِني دبـج السُّرى   وجُونُ القطابا لجَلْهتَيْن جُثُومُ

وأنتِ التي أحفظتِ قومي فكلُّهمْ بعيدُ الرِّضا داني الصُّدودِ كظيمُ

ذكر ضمير محبوبته (المسند إليه) في كلّ بيتٍ، ليزيدها تقريراً وإيضاحاً، وليبيّن أنّ هذه التي قطّعت قلبه حزازةً هي نفسها التي كلّفته دبح السُّرى، وهي نفسها التي أحفظت قومه عليه. فتكرار «أنت» أفاد اختصاصها بكلّ من تقطيع قلبه وتكليفه دبح السّرى وإحفاظ قومه عليه.

2- الاحتياط لضعف التّعويل على القرينة، كأن تتحدّث عن العرب وبلائهم في نصرة الإسلام واتساع رقعة البلاد التي فتحوها... ثم تقول: «العرب حملة الرسالة»، تذكر المسند إليه «العرب»؛ لأن عهد المتلقي به قد طال فربّما نسيه لو أنك أغفلت ذكره فقلت:« حَملةُ الرسالة» بحذف المسند إليه.

وهكذا تذكر المسند إليه لضعف القرينة. ومثله أن تتحدّث عن «خالد ابن الوليد» وعزله عن قيادة جيش المسلمين وتولية أبي عبيدة مكانه ثمّ تقول: خالدٌ نعمَ القائد»، بذكر المسند إليه «خالد». تذكره لضعف تذكّر المتلقي له، إذ ربّما ظنّ الحديث عن أبي عبيدة لو قلتَ: «نعمَ القائد»، هكذا بحذف المسند إليه.

3- التّنبيه على غباوة السّامع وأنه لايستغني بالإشارة عن العبارة؛ ابتغاء وضمه بالبغاء أو لإهانته وتحقيره، كأن تقول لسامع القرآن يُتلى:

«القرآن كلامُ اللّهِ»، وكأن قولك: «قال أحمد كذا» في إجابة من سألك: ماذا قال أحمد؟

4- التلذّذ بذكره، ويكثر ذلك في النّسيب وللرثاء والمديح. فمنه في النسيب قول قيس:

ألا ليت لُبنى لم تكن لي خلّةً ولم تلقني لُبنى ولم أدرِ ماهيا

ومنه في الرثاء قول الخنساء:

وإن صخراً لكافينا وسيّدُنا وإنّ صخرا إذا نشتو لنحّارُ

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداة به كأنّه علَمٌ في رأسه نارُ

ذكرت اسم صخر «المسند إليه» ثلاث مرّات تلذّذًا بذكره.

ومنه في المديح قول الأخطل يمدح خالد بن أسيد:

ألاأيّها السّاعي ليدركَ خالداً تناة، وأقصِرْ بعضَ ماأنت تفعل

فهلْ أنتَ،إن مدَّ المدى لك خالدٌ مُوازنُه أو حاملٌ مايحمِلُ ؟

5- إظهار تعظيمه أو إهانته، الأول كقول أحدهم: حضرَ سيف الدولة في إجابة من قال: هل حضرَ *الأمير*؟. والثّاني كقول أحدهم: جاء *المنافق* في إجابة من قال: هل جاء سعيد؟. ذكرا لمسند إليه في الموضعين «الأمير» و«المنافق» لإظهار تعظيمه في المثال الأول، ولإظهار تحقيره في المثال الثاني.

6- التبرُّك بذكره، كأن يقول الموحِّد: «اللّهُ خالقُ كلّ شيء ورازق كلّ حيّ»، ذكر المسند إليه «اللّه» رغم وجود القرينة التي تمكّن من حذفه؛ تبرّكاً بذكره. وكأن تقول: « نبيُّنا عليه الصّلاة والسّلام قائلُ هذا القول» جواباً لمن قال : «هل قال هذا القول رسولُ اللّه عليه الصّلاة والسّلام؟»، تذكر المسند إليه «نبيّنا» رغم وجود القرينة التي تمكّن من حذفه كما يلوح من السؤال؛ تبرّكاً بذكره.

7- إظهار التعجّب من المسند إليه، وذلك حين يكون الحكم غريباً، كأن يكون لك صديق حميم اسمه «عليّ يقال لك إنّه ذكرك بسوء، فتقول متعجّباً:

«عليٌّ قال عنّي كذا؟».

8- الردّ على المتلقّي، كأن تقول: «أحمد نجح» رداً على من قال: «أحمد رسبَ».

9- بسطَ الكلام حيث يراد استمرار إصغاء السّامع؛ ومن هنا يطيل المحبون الحديث مع أحبّتهم، وقد قلت في هذا المعنى من قصيدة أخاطب فيها مدينة الرقة «جارة الشطّ»:

جارةَ الشطِّ، حدّثينا وزيدي فحديث العشّاقِ شوقاً يزيدُ

ومثال ذلك قوله سبحانه حكاية لكلام موسى عليه السلام: « هي عصايَ أتوكّأُ عليها وأهشّ بها على غنمي وليَ فيها مآرب أخرى»، وقد كان السؤال: «وماذلك بيمينك ياموسى؟» . إذا يكفي أن يقال في الإجابة «عصا»؛ لأنّ «ما» للسؤال عن الجنس. ويقول البلاغيون إن ذكر المسند إليه «هي» جاء حبًا في إطالة الكلام في حضرة الذّات الإلهية.

10- التّسجيل على السّامع بين يدي القاض حتى لايتأتّى له الإنكار، كأن يقول الحاكم لشاهد:هل أقرّ زيدٌ هذا بأنّ عليه لعمرو كذا وكذا؟» – فيقول الشاهد: نعم، زيد هذا أمرّ بأنّ عليه لعمرو كذا وكذا .». يذكر المسند إليه رغم وجود القرينة التي تمكّن من حذفه في السؤال؟ لئلاّ يجد المشهود عليه سبيلاً إلى الإنكار، كأن يقول للحاكم عند التّسجيل عليه كتابةً: إنّما فهم الشّاهد أنك أشرتَ إلى غيري، فأجاب بما أجاب، ولذلك لم أنكر ولم أطلب إبداء العذر فيه.

تعريف المسند إليه:

حقّ المسند إليه أن يأتي معرَّفاً؛ لأنهّ المحكوم عليه، المنسوب إليه، وكلّما

ازداد تعريفاً كان أتمّ دلالةً على المراد. يقول السكاكي: «وأمّا الحالة التي تقتضي تعريفه فهي إذا كان المقصودُ من الكلام إفادةَ السّامع فائدةً يُعتدّ بمثلها».

والتّعريف أضربٌ كثيرة ك يكون بالإضمار، وبالعلَميّة، وبالموصوليّة، وبالإشارة وبألْ المعرِّفة، وبالإضافة. وقلّ أن يخلو نوعٌ منها من مقاصد بلاغيّة. وإليك تفصيل القول في كلّ منها:

1- *إيراد المسند إليه ضميراً:*

يؤتى بالمسند إليه ضميراً حين يكون الحديث في أحد المقامات الثلاثة الآتية:

أ- مقام التكلّم، حيث يكون المتكّم متحدّثاً عن نفسه، وعليه عندئذٍ أن يقول «أنا». ومثال هذا قول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام:

أنا النبّيُّ لاكَذِبْ　　　أنا ابنُ عبدِ المطّلِبْ

ومنه قول بشّار:

أنا المُرعّثُ لاأخفى على أحدٍ　　　ذرّتْ بيَ الشّمسُ للقاصي وللدّاني

ب- مقام الخطاب، حين يخاطب المتكلّم إنساناً ماثلاً أمامه، وعليه عندئذ أن يقول «أنتَ». ومثاله قوله الشاعر:

يابنَ الأكارم من عدنانَ قد علموا　　　وتالد المجدِ بينَ العمِّ والخالِ

أنتَ الذي تُنزلُ الأيّام منزلَها　　　وتُمسِكُ الأرض منْ خسْفٍ وزلزالِ

وحقّ الخطاب - كما يقول السكّاكي - أن يكون مع مخاطب مشاهدٍ معيّن؛ لأنّ الخطاب هو الكلام إلى حاضر مشاهد، وهو معيّنٌ لامحالة

بالحضور المشاهدة. لكنّ البلغاء قد يخرجون عن هذا الأصل، ويستعملون ضمير الخطاب في غير مشاهد وفي غير معيّن:

1- يخاطب غير المشاهد حين يكون مستحضراً في القلب حتى كأنّه ماثل أمام العين، كقوله سبحانه:« أنتَ مولانا فانصرْنا على القومِ الكافرين»، وقوله سبحانه:«أنتَ وليِّي في الدُّنيا والآخرة».

ومنه في الشّعر قول الشّاعر:

جودي بقربِكِ أبلغْ كلَّ أمنيتي أنتِ الحياةُ وأنتِ الكون أجمعه

وقولي وأنا في الشّقيقة ليبيا أخاطب سوريا:

أي بلادي، وأنتِ مهوى فؤادي كيف أحيا والرّوحُ عنّي بعيد؟

2- يخاطب غير المعيّن حيث يراد تعميم الخطاب وتوجيهه إلى كلّ من يتأتّى خطابه، كأن تقولك « أنتَ تسأل ونحنُ نجيبُ». لاتقصد بعينه، بل كلّ من يتأتى خطابه؛ تريد أن الاستعداد للإجابة موفّر لكلّ من يسأل ولايختصّ به واحدٌ دون آخر. وقد يرد في مقام التّشهير والعيب كأن تقول:«فلانٌ لئيم، إن أكرمتَه أهانَك وإن أحسنتَ إليه أساء إليك». يقول السكاكي: «كأنّكَ قلتَ: إن أكرمَ أو أُحسِنَ إليه؛ قصداً إلى أنّ سوء معاملته لايختصّ واحداً دون واحد».

ومن خطاب غير المعيّن لتعميم الخطاب قول الشاعر:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرّدا

وقول زهير بن أبي سلمى:

تراهُ إذا ماجئتَه متهلّلاً كأنّك تُعطيهِ الذي أنتَ سائلُهْ

جـ – مقام الغيبة، وذلك عندما يكون المسند إليه في ذهن السامع لتقدّم مرجعه. ويأخذ تقدّم المرجع ثلاث صور:

أ– أن يتقدّم لفظاً، كقوله سبحانه: « واصبِرْ حتّى يحكمَ اللّهُ وهو خيرُ الحاكمينَ» فالمسند إليه الضمير «هو» عائد على لفظ الجلالة المتقدّم «الله». أو تقديراً، كقولهم: « نعمَ فتاةً هندُ»؟ عند الذين يجعلون «هند» مبتدأ مؤخرا والجملة قبلها خبراً مقدّما. فالمسند إليه (فاعل نعم الضمير المقدّر بـ«هي») يرجع إلى هند.

وجليّ أن هذا المرجع متقدّم على الضمير لأنه مبتدأ، متأخر لفظا.

ب– أن يتقدم معنىً، حيث يدلّ عليه لفظٌ سابق من جنسه أو تومى إليه قرينة حال:

– *الأول*، كقوله سبحانه: « اعدِلُوا هو أقربُ للتقوى»؛ حيث يرجع المسند إليه الضمير «هو» إلى «العدل» المفهوم من لفظ «اعدلوا». وكقوله سبحانه : «وإنْ قيلَ لكُمْ ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكمْ»؛ أي «الرجوع» المفهوم من قوله «ارجعوا».

– *الثاني*، كقوله سبحانه : « ولأبَوَيْهِ لكلِّ واحدٍ منهما السُّدسُ مما ترك إن كان له ولد»؛ فالمسند إليه (الضّمير فاعل ترك المقدَّر بـ«هو،») يرجع إلى «الميت»، وقد دلّت عليه قرينة حال هي أنّ المقام لبيان الإرث.

2- *إيراد المسند إليه عَلَماً:*

العَلَم هو ماوضع لشيء معيّن مع مايلازمه من مشـ ـصات تميزّه عمّا عداه، على نحو لايشاركه فيها سواه.

وعليك أن تكون على بيّنة من أنّ المقامات التي تقتضي مجيئَ المسند

إليه علَماً كثيرةً، نذكر لك منها أهمَّها:

1- إحضاره بعينه في ذهن السّامع ابتداءً باسم مختصٍّ به، ليمتاز عمّا عداه، كقوله سبحانه: « قلْ هوَ اللّهُ أحَدٌ». هو : ضمير الشأن مبتدأ أوّل. اللّهُ: مبتدأ ثانٍ، والجملة خبره. قال الخطيب القزويني:« جاء المسند إليه «الله» علَماً؛ لأجل إحضاره في الذّهن ابتداءً بجميع مشخّصاته التي قام عليها الدّليلُ كالقدرة ونحوها باسمٍ خاصٍّ به تعالى« . ومنه قوله سبحانه : «وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ».

ومنه في الشّعر قول الشاعر:

أبُوما لكِ قاصرٌ فقرَهُ   على نفسِهِ ومُشيعٌ غِناهُ

وقول الآخر:

اللّه يعلمُ ماتركتُ قتالَهُمْ   حتىّ علَوا فَرسي بأشقرَ مزبِدِ

2- قصد تعظيم المسند إليه أو إهانته، وذلك في:

أ- الألقاب، كأن تقول: « جاءَ صلاح الدين ووصلَ ذو الرّياستين» في مقام التعظيم، و«رحل عنّا أنفُ الناقة، وفارقنا صخر» في مقام الإهانة.

ب- الأسماء الصالحة لذلك، كقول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام:« أسلم سالمها الله وغِفارُ غفر اللّهُ لها».

جـ - الكُنى الصّالحة لذلك، كقولك: « أبو الفضلِ صديقُك» في مقام التّعظيم، و « أبو الجهلِ صاحبُك» في مقام الإهانة.

3- التفاؤل به، كقولك: جاءَ سرورٌ، وسلامٌ قادمٌ. تأتي بالمسند إليه علماً في الموضعين؛ للتفاؤل به.

4-التشاؤم به، كقولك: جاءَ حربٌ، وضرارٌ قادمٌ. تأتي بالمسند إليه علَماً في الموضعين، قصداً إلى التشاؤم.

5- التبرُّك به، كقولك: «اللّهُ أكرمني» في جواب مَنْ قال لك: «هل أكرمَك اللّهُ؟» «تأتي بالمسند إليه علَماً؛ لقصد التبرّك بذكر اسمه؛ ألم يقل سبحانه:«ألابذكرِ اللّهِ تطمئنُّ القلوبُ».

6- التلذّذ به – كقول الشاعر:

بالله ياظَبَياتِ القاعِ قلنَ لنا: ليلاي منكنّ، أم ليلى من البشَرِ؟

ذكرها الشّاعر في عجز البيت مرتين باسمها الظّاهر، وكان يمكنه في الثانية أن يقول «هي» لكنّه عدل إلى الاسم الصّريح تلذّذاً بذكر اسمها. وهذه عادة للشّعراء يكثرون من ذكر الاسم الصّريح لمن أحبّوا، وكأنّ مافي القلب تظهره عثرات اللّسان. ومن هنا قال المتنبي في تضاعيف مدح لعنصر الدولة:

أساميا لم تزدْهُ معرفةً إنّما لذّةً ذكرناها

7- التّسجيل على السّامع تقطع سبيل الإنكار عليه إن رام ذلك. كأن سأل القاضي الشّاهد: « هل ضرب زيدٌ عمْراً؟ « – فيجيب الشّاهد: نعم، ضربَ زيدٌ هذا عمرا». جاء بالمسند إليه باسمه الصريح، رغم إمكانية الإتيان بالضمير لتقدّم مرجعه؛ للتسجيل على المتّهم حتى لايتنصّل ممّا أمَرّ به عليه، فيقول: ماأرادني، بل أراد شخصاً آخر.

8- التّنبيه على غباوة السامع وعلى أنّه لايفهم إلاّ بصريح العبارة؛ كأن يسألك زميلٌ لك في الصّفّ: « هل داومَ أحمدُ اليومَ؟» – فتقول: «نعم، داوم أحمدُ اليومَ». تأتي بالمسند إليه علماً لتسم المخاطب بالبلادة

وبطء الإدراك.

9- الكناية بالعلَم عن معنى يصلح للكناية عنه، كقولك « أبو لهَب فعلَ كذا »، تريد كونه جهنّميًا. ذلك أنّ المركّب الإضافي في «أبو لهب» – قبل أن يصير علَماً – معناه : ملازم النّار وملابسها، ويلزم منه أنّه «جهنّمي»،وأنت حين تأتي بالمسند إليه علَماً هكذا « أبو لهب» تريد الانتقال من الملزوم «ملازمته النار» إلى اللازم «كونه جهنّميًا» ؟ فيكون مافعلته انتقالاً من الملزوم إلى اللازم؛ أي كناية. ويصلح العَلَمُ لهذا المعنى نظراً إلى معناه الوضعيّ قبل صيرورته علَماً على الذات.

3- *إيراد المسند إليه اسمَ إشارة :*

يأتي المتلّم بالمسند إليه اسم إشارة طريقاً لإحضار المشار إليه في ذهن السّامع، حين يكون المشار إليه حاضراً محسوساً ولكنّ المتكلّم والسّامع لايعرفان اسمه الخاصّ، ولا يعرفان أيضاً أي محدّد آخر من محدّداته، كأن تقول لمتلقّي كلامك: « أتعيرني هذا » وأنت تشير إلى شيء لاتعرف اسمه ولاوصفاً آخر من أوصافه. وهذه وظيفة اتصالية دنيا لاسم الإشارة، غايتها قدرٌ من الإفهام. ولا يقتصر استخدام المسند إليه اسم إشارة على تعيينه طريقاص لإحضار المشار إليه المجهول الاسم والصفات في ذهن السّامع فحسب، بل يستخدم لأغراض بلاغية ولطائف لاتكاد تنضبط، كما يقول السكاكي. ***وإليك أهمّ لطائف الإتيان بالمسند إليه اسم إشارة:***

أ– كمال تمييزه وتعيينه، وذلك في موضعين:

أ– في مقام المدح، حيث يكون تمييزه بالإشارة أعونَ على كمال المدح. كقول الفرزدق في زين العابدين علي بن الحسين بن عليّ بن أبي

طالب- رضي اللّه عنهم - عندما ادّعى هشام بن عبد الملك أنه لايعرفه:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خير عبادِ اللّهِ كلِّهِم هذا التقيُّ النقيُّ الطّاهُر العلَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهلَهُ بجَدِّهِ أنبياءُ اللَّهث قد خُتموا

ب- في مقام اختصاص المسند إليه بحكمٍ بديع مما يقتضي تمييزه بالإتيان به اسمَ إشارة، كقول ابن الرّاوندي:

كمْ عـاقلٍ أعيتْ مذاهــبُه وجــاهـلٍ تلقــاهُ مرزوقـا
هذا الذي تركَ الأوهامَ حائرةً وصيرُ العالِمَ النحْريرَ زِنديقا

جاء بالمسند إليه اسم إشارة في البيت الثّاني لتمييزه أكمل تمييز؛ لما اختصّ به من حكم بديع هو افتقار ذوي العلم واغتناء ذوي الجهل.

2- التّعريض بغباوة السامع وأظهار أنّ الأشياء لاتتميز لديه إلا بالإشارة الحسّية إليها، كقول الفرزدق يهجو جريراً ويفتخر عليه:

أولئكَ آبائي فجئني بمثلهمْ إذا جمعتنا ياقريا المجامعُ

جاء بالمسند إليه اسم إشارة؛ تعريضاً بغباوة جرير وإشارة إلي أنّه غبيٌّ بليد لايدرك إلاّ المبصَر.

3- بيان حال المسند إليه في القرب أو البعد أو التوسّط. مثال الأول قول جرير:

هذا ابنُ عمّي في دمشق خليفةٌ لو شئت ساقكُمُ إلّي قَطِينَنَا

جاء بالمسند إليه «هذا» اسمَ إشارة؛ لبيان قربه ومن ثم قرب مساعدته

4- تعظيمه بالقرب أو بالبُعد. الأول كقوله سبحانه: « إنَّ هذا القرآنَ يهدي لِلّتي هي أقومُ». جيء بالمسند إليه اسم إشارة للقريب؛ لتعظيم درجته بتنزيل قربه من النّفس وملابسته للروح منزلةَ قرب المسافة. والثّاني كقوله سبحانه حكاية عن امرأة العزيز مشيرةً إلى يوسف عليه السّلام: « فذلِكُنَّ الذي لمتُنَّنِي فيه». جيء بالمسند إليه اسمَ الإشارة الخاص بالبعيد؛ إشارة إلى ارتفاع منزلة يوسف في الحسن، رغم أنه كان حاضراً في المجلس. وكقوله سبحانه: « ذلِكَ الكتابُ لاريبَ فيه»؛ إيماءً إلى أنه في نهاية الكمال والعظمة وبعد الشأو. ووجه دلالة اسم الإشارة الخاص بالبعيد على التّعظيم هو أنّ العظيم في العادة ينأى عن النّاس ويبعد عنهم لعزّته ورفعة شأنه.

5- تحقيره بالقرب أو بالبعد. الأول كقوله سبحانه حكاية لما قال أبو جهل – قاتله اللّهُ – مشيراً إلى المصطفى عليه الصّلاة والسّلام: « أهذا الذي يذكرُ آلهتَكُمْ ». جيء بالمسند إليه اسم إشارة للقريب «هذا»؛ إشارة إلى إهانة المصطفى عليه الصلاة والسلام في زعمه الخبيث. والثاني كقوله سبحانه: «فذلكَ الذي يدعُّ اليتيمَ». جيء بالمسند إليه اسم الإشارة الخاصّ بالبعيد؛ إشارةً إلى أنّه لايُلتفت إليه ولايعرض للخاطر حتى إنّه كغير المشاهد البتّة؛ كلّ ذلك لتحقيره.

6- التنّبيه على أنّ المشار إليه المعقَّب بأوصاف جدير - من أجل تلك الأوصاف - بما يُكر بعد اسم الإشارة، كقوله سبحانه : « أولئِكَ على هدًى من ربِّهم وأولئِكَ هم المفلحون» بعد قوله سبحانه : « هدىً للمتّقينَ الذين يومنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاة وممّا رزقْناهم ينفقون. والذين يؤمنونَ بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزلَ مِنْ قبلِكَ وبالآخرةِ همْ يوقنون». المشار إليه هنا هو «المتقين»، وقد عُقِّبوا بأوصافٍ: الإيمان بالغيب، وإقام

الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله... وقد أشير إليهم بـ «أولئك» مع أنّ المقام للضمير لتقدّم مرجعه؛ إشارةً إلى أنّهم أحقاء . بسبب الأوصاف التي خلَعها عليهم - بما يجيء بعد اسم الإشارة من هداية في الدّنيا وفلاح في الآخرة.

ومثله في الشعر قول عروة بن الورد:

ولكنّ صُعْلوكاً صفيحةُ وجهِهِ ... كضوءِ سِراجِ القابس المتنوِّرِ

مُطِلاًّ على أعدائِهِ يزجرونَ ... ساحتهمْ زجرَ المنيحِ المشهَّرِ

وإنْ بعُدوا لايأمنونَ اقترابَهُ ... تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّرِ

فذلكَ إنْ يلْقَ المنيّةَ يلْقَها ... حميدًا وإنْ يستغنِ يوماً فأجدِرِ

ذكر له مجموعة من الخصال الفاضلة، ثمّ أشار إليه باسم الإشارة الخاصّ بالبعيد، رغم أنّ المكان للضمير لتقدهم مرجعه «صعلوكاً»؛ تنبيهاً على أنه جديرٌ بما بعد اسم الإشارة من ضروب المكافأة.

إيراد المسند إليه اسماً موصولاً :

يؤتى بالمسند إليه اسماً موصولاً لأغراض بلاغيّة كثيرة، نذكر لك أهمّها:

1- عدم علم المخاطب بالأحوال المختصّة به سوى الصّلة، كقولك:

«الذي كانَ معنا أمسِ رجلٌ عالِمٌ». جيء بالمسند إليه اسماً موصولاً؛ لأنّ المخاطب لايعرف من الأحوال المختصة به سوى أنّه كان معهما أمسِ.

2- استهجان التّصريح بالاسم الدالّ على ذات المسند إليه إن ثبت عُرْفاً

أنّه منفِّرٌ في معناه أو لفظه:

- فالأول، كقولك: «الذي يخرجُ من أحد السبيلَينِ ناقضٌ للوضوء»، حيث لم يُستسَغْ ذكر مايخرج من السبيلين لفحض معناه.

- والثّاني، كقولك : «الذي ربّاني أبي»، إن كان اسم الأب قبيحاً مثل «برغوث» أو«جحش» أو«كلْب»

3- زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام أي تأكيده وتثبيته، كما في قوله سبحانه: «وراودتْهُ التي هُوَ في بيتها عنْ نفسِه». لغرض المسوق له الكلام هو تقرير نزاهة سيدنا يوسف عليه السّلام. وكان يمكن الوصول إلي هذا التنزيه بذكر كلّ من الموصول وامرأة العزيز «زليخاء» لكنّ الموصول أدلّ على النّزاهة؛ لأنه التّعبير الذي مكّن من تصوّر تهالكها عليه وملاحقتها إياه؛ إذ هو في بيتها تكلّفه ماتشاء، وتلقاه في كلّ الأوقات ملحّةً مطالبة، ورغم ذلك كلّه استعصم، وكلأه الكالىء. أيوجد ثمّة تعبيرٌ آخر يقوم مقام «التي» في مطابقة مقتضى هذه الحال؟.

4- التّهويل تعظيماً أو تحقيراً. فالأوّل، كقوله سبحانه: «فغشيهُمْ منَ اليمِّ ماغشيَهُمْ»؛ أي غشيهم ماءً غزير يعزّ تقدير كميّته. جيء بالمسند إليه اسماً موصولاً؛ لجعله مبهماً، إذ في الإبهام تعظيم وتهويل لايؤدّيه التّصريح. وكقوله سبحانه: «إذْ يغشى السِّدْرَةَ مايغشى»؛ أي يغشاها أمورٌ عظيمة لاقبل للإفسات بتخيلّها. قال الزمخشري: « وقد عُلِمَ بهذه العبارة أنّ مايغشاها من الخلائق الدّالّة على عظمة اللّه وجلاله أشياءُ لايكتنهها النعتُ ولايحيط بها الوصف». والثّاني كقولهم: « من لم يدرِ حقيقةَ الحال قال ماقالَ». أي : الجاهل بالشيئ يقول في شأنه مايعنّ له.

5- تنبيه المخاطب على خطأ تصوّره أو تصوّر غيره. الأول كقوله سبحانه: «إنّ الذينَ تدعونَ من دونِ اللّهِ عبادٌ أمثالُكمْ». وكقول عبدة بن الطّبيب في جملة قصيدة يعظ بها أبناءه.:

إنّ الذين ترونَهَمْ إخوانَكُمْ   يشفي غليلَ صدورهِم أن تُصرعوا

جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً؛ لينبّه المخاطبين على خطئهم في حسبانهم هؤلاء أخوةً لهم مخلصين، ولايتأتى له ذلك لو قال إنّ القوم كذا....

والثّاني كقول عروة بن أذينة:

إنّ التي زعمتْ فؤادكَ ملّها   خُلقتْ هواكَ كما خلقتَ هوًى لها

جاء بالمسند إليه «التي» اسماً موصولاً للتنبيه على خطأ الغائبة في زعمها أنّ فؤاده ملّها، ولو أنّهُ، قال – مثلاً– إنّ فلانة خُلقت هواك لما تأتّى له هذا التنبيه.

6- تمكين الخبر في ذهن المخاطب بالإتيان بصلة غريبة مشوّقة إلى معرفة الخبر. وذلك كقول المعرّي:

والذي حارتِ البريّةُ فيهِ   حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

معنى البيت: إنّ الذي اختلف الناسُ في أمر بعثه وعودته بعد موته هو ذلك الحيوان الآدميّ الذي خلقه الخالق– سبحانه– من نطفةٍ أو من طينة آدم «وقد جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً الذي، وجاء في صلته بأمرٍ غريب؛ ليوجّه ذهن المتلقّي إلى ماسيأتيه من خبر المسند إليه بعد انتظار ورودهعليه.

7- الإيماء إلى نوع الخبر المحكوم به على المسند إليه، ويكون ذلك حين

تتضمّن صلة الموصول مايدلّ على نوع الخبر على الجملة؛ بحيث يكون في مقدور المتلقى تحديد نوعه العام بقليل من التأمّل. كقوله سبحانه :

« إنّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصّالحاتِ كانت لهمْ جنّاتُ الفِردَوْسِ نُزُلا».

فالإيمان وعمل الصالحات الذي انطوت عليه الصلّة يشير إلى أنّ الخبر من نوع عملهم؛ أي ضربٌ من الإثابة والجزاء الحسن. وكقوله سبحانه:

« إنّ الذينَ يستكبرونَ عنْ عبادتي سيَدْخلونَ جهنّمَ داخرينَ».

ومن هذا القبيل ماجاء في الحكمة: « مَنْ سعى رعَى، ومَنْ لزِمَ المنامَ رأى الأحلامَ». ومنه في الشعر قول الشاعر:

إنّ الذينَ تولّوا قتلَهُ سَفَهاً لاقَوا أثاماً وخُسراناً فما ربِحُوا

وحاصله كما يقول الخطيب القزويني: ***« أن يؤتي بالفاتحةِ علي وجه ينبِّهُ الفَطِنَ علي الخاتمة»*** .

8- الأيماء إلى تعظيم شأن الخبر أو تحقيره. فالأوّل كقول الفرزوق مفاخراً جرير بشرف المحتد:

إنّ الذّي سَمَكَ السّماءَ بنى لنا بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ

جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً سالذي»؛ للإلماع إلى تعظيم بيتهم، لأنّ الذي بنى لهم هذا البيت هو الذي رفع السماء؛ أيحاربُ العزّة سبحانه، ولايبني إلاّ ماكان عظيماً. والثّاني كقولك:« إنّ من لم يسمع بالعَروض نظمَ قصيدةً»؛ جئتَ بالمسند إليه اسماً موصولاً «مَنْ» للإطاع إلى تحقير شأن القصيدة؛ لأنّ ناظمها جاهل بالعروض لم يسمع به البتّة.

9- تحقيق الخبر في ذهن المتلقّي عندما تبرهن الصلّة على وقوعه، كقول عبدة بن الطبيب يشكو جفاء محبوبته وهجرها له:

إنّ التي ضربتْ بيتاً مهاجرةً   بكوفة الجند غالت ودّها غُولُ

أراد: إنّ من هاجرت وأقامت في الكوفة موثِرةً البعد عنك انقضى ودُها ولم يبَق منه شيئ. وقد جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً وأشار في الصلّة إلى أمور خاصّة (ضرب البيت في الكوفة– الهجر) ؛ ليثبت الخبر في ذهن المتلقي «ذهاب ودّها»؛ لأنّ من هذه حالها لايمكن أن تكون ذات وداد، والشاعر بذلك يحقّق زوال المودّة ويقرّره في ذهن المتلقّي، بتقديم دليله.

10- الحثُّ على التعظيم أو التحقير. فالأوّل كقولك: «جاء الذي علّمكَ»؛ جئت بالمسند إليه اسماً موصولاً؛ تريد حثّ مخاطبك على تعظيمه؛ لأنّه هو الذي علّمه. والثّاني كقولك: «جاءَ الذي سألك»، أي طلب منك مالاً. جئت إليه اسماً موصولاً تريد حثّ مخاطبك على تحقيره. ومرجع التّعظيم والتّحقير المعنى الذي انطوت عليه الصلّة.

11- التّهكم بالمسند إليه، كقولك: « الذي يدّعي حبَّ العِلْم يُغلقُ المدارسَ». وكقولك : « الذي يقتلُ الشعوبَ يدّعي السَّلامَ».

12- تضمّن الصلّة معاني ذات أهمية في سياق الكلام، كقوله سبحانه: «أوليس *الذى* خلق السّموات والأرض بقادرٍ على أنْ يخلُقَ مثلَهُمْ»، جيء بالمسند إليه اسماً موصولاً؛ بقصد إبراز معنى مهمّ في الصلّة هو «خلق اللّه السموات والأرض» الذي يفيد هنا في إقناع المعاند بقدرة اللّه سبحانه على خلْق الإنسان؛ فإنّ الذي خلق الموات والأرض سهلٌ عليه– في منظور البشر– أن يخلق ماهو أقلّ منهنّ بكثير: الإنسان. ولايتأتّى هذا لو ذكر في موضع اسم الموصول لفظ الجلالة «اللّه».

ومنه في الشّعر قول كعب بن زهير عندما جاء تائباً بين يدى المصطفى عليه الصّلاة والسّلام:

مهلاً هداكَ *الذي* أعطاكَ نافلةَ الـ سقآنِ فيه مواعيظٌ وتفصيلُ

قال: « هداك الذي أعطاكَ....» ولم يقل: « هداكَ اللّهُ» أو: «هداكَ ربُّك»؛ لأنّ الصلة تضمّنت حديثاً عن إكرام اللّه سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسّلام بإعطائه فضيلة القرآن الكريم. وفي ذلك تكريمٌ للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وتنويهٌ بمقامه عند ربّه، ومن ثمّ إقرارٌ بنبوّته وإعلام بأنّ كعباً قد أسلم.

إيراد المسند إليه معرّفاً بـ «ألْ»:

يقول محمدٌ بن علي الجرجاني في «الإشارات والتنبيهات»: اللامُ موضوعةٌ للدلالة على تعيُّن المسند، كما أنّ التّنوين موضوعٌ للدلالة على عدم تعيّنه، وأمّا كونُه جنساً، أو استغراق جنسٍ، أوعهداً، فإنما يستفاد من قرائن الأحوال، فإذا لم تكن القرينةُ، لم تخرج اللام عن دلالتها على تعيُّن المسمّى».

وقد دلّ تتبُّعُ خواصّ تراكيب الكلام البليغ على أنّ المسند إليه يأتي معرّفاً بـ «ألْ» لغرضَيْن هما:

الأوّل – الإشارة بـ «أل» إلى فردٍ من أفراد الحقيقة، واحداً كان أو أكثر، معهودٍ خارجاً بين المتكلّم والمخاطب. وهي التي تدخل على معيّن في الخارج، وتسمّى «لام العهد الخارجي». وهي ثلاثة أقسام تبعاً لمدخولها:

أ– لام العهد الخارجيّ الصّريحيّ – وهي التي يتقدم ذكر مدخولها صراحة، كما في قوله سبحانه:« اللّهُ نورُ السموات والأرضِ مَثَلُ نورِهِ كمِشْكاةٍ فيها مصباحٌ *المصباحُ* في زجاجة *الزّجاجةُ* كأنّها كوكبٌ دريٌّ». جيء بالمسند إليه (المصباح – الزجاجة) معرّفاً بـ أل» للإشارة بها إلى

معهودٍ خارجاً عهداً صريحاً، لتقدّم ذكرهما منكّرين (مصباحٌ – زجاجةٌ)

ب- لام العهد الخارجي الكنائي-وهي التي يتقدّم ذكر مدخولها كنايةً، كما في قوله سبحانه حكاية عن امرأة عمران:«ربِّ إنّي نذرْتُ لكَ مافي بطني محرَّراً فتقبَّلْ منّي إنّك أنتَ السميعُ العليمُ. فلمّا وضَعَتْها قالتْ ربّي إنّي وضعْتُها أنثى واللّهُ أعلمُ بما وضعتْ وليس *الذكَرُ* كالأنثى».

الشّاهد قوله سبحانه «وليس *الذكَر*» حيث جيء بالمسند إليه معرَّفاً بـ أل»؟ للإشارة بها إلى معهود خارجاً عهداً كفائيّاً؛ لأنّ «ما» في قول امرأة عمران «مافي بطني» كناية عن الذكَر فحسب؛ لأنّ التحرير، وهو إعتاق الولد لخدمة بيت المقدس، لايكون إلاّ للذكور. ويقول البلاغيون: ليس المراد بالكناية هنا الكناية المعلومة، بل المراد استعمال المبْهم في معيَّن بقرينة فأشبَهَ الكنايةَ».

جـ - لام العهد العلمي – وهي التي يُستغنى في استخدامها عن تقدهم ذكر مدخولها لتقدّم علم المخاطب به. وهي ضربان:

1- لام العهد العلمي الحضوري، وهي التي يكون مدخولهُا حاضراً في المجلس، كأن يضمكَ وإخوتك مجلس تستقبلون فيه والدتك التي وصلت البارحة من السفر فتقول:«الوالدة وصلت البارحة». جئتَ بالمسند إليه معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى معلومٍ للمخاطب بالحضور.

2- لام العهد العلمي غير الحضوري، وهي التي يكون مدخولها معلوماً لدى المخاطب، كقولك: «هل انعقدَ المجلسُ؟». جئتَ بالمسند إليه معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى معلوم للمخاطب. وكقولك لزميل لك: « الأستاذُ في الصفّ». جئت بالمسند إليه معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى معلوم للمخاطب.

الثاني – الإشارة بـ «أل» إلى الحقيقة، عندما يكون مدخولها موضوعاً للحقيقة والماهية. وهي تبعاً لمدخولها ثلاثة أقسام:

أ- لام الحقيقة أولام الجنس– وهي التي يراد بمدخولها الحقيقة نفسها بصرف النّظر عمّا يقع تحتهامن أفراد، كما في قوله سبحانه:« المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا». جيء بالمسند إليه (المال) معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى لحقيقة نفسها، أي جنس المال، وكذا جنس البنين (في المعطوف). ،مثله قولك: «الصّيف خيرٌ من الشتاء»؛ أي جنس الصّيف، و«الدينّارُ خيرٌ من الدّرهَم»؟ أي جنس الدينار.

ومنه في الشعر قول زهير منفّراً من جنس الحرب:

وماالحربُ إلاّماعلمتُمْ وذقتُمُ وماهوَ عنْها بالحديثِ المرجَّمِ

أي جنس الحرب وحقيقتها.

وقولُ المعرّي:

والخِلُّ كالماءِ يُبدي لي ضمائرَه معَ الصَّفاءِ ويخفيها معَ الكدَرِ

ومعناه جنس الخِلّ كجنس الماء.

ب- لام العهد الذّهنيّ – وهي يراد بمدخولها فردٌ واحد من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذّهن لمطابقة ذلك الواحد الحقيقةَ، وذلك عند قيام قرينة مادالة على أن ليس القصدُ إلى الحقيقة نفيها. كما في قوله سبحانه:

«وأخافُ أن ياكلَهُ الذئبُ». جيء بالمسند إليه (الذئب) معرّفاً بلام الحقيقة أو الجنس؛ للإشارة بها إلى فردٍ من أفراد حقيقة الذئب. والقرينة الدّالّة هي «أن ياكله»؛ إذ دلّ الأكلُ على ذئب من الذئاب لاعلى الحقيقة؛ لأنّ

الحقيقة أمرٌ عقليٌّ لاوجود له في الخارج، فلا يحصل منه أكل، ومثالها في الشّعر قول الشاعر:

ومَنْ طلبَ العلومَ بغيرِ كـد سيدركُها حتّى شابَ *الغرابُ*

جاء بالمسند إليه «الغراب» معرّفاً بلام الحقيقة؛ للإشارة بها إلى فردٍ من أفراد حقيقة الغراب. والقرينة الدالّة على ذلك هي قوله «شاب»؛ إذ إنّ الشّيبَ ممّا يعتري الأفراد لا الحقائق.

جـ – لام الاستغراق – وهي التي يراد بمدخولها جميع أفراد الحقيقة عند قيام القرينة على ذلك. وهي قسمان:

1- لام الاستغراق الحقيقيّ، وهي التي يراد بمدخولها كلُّ فردٍ مما يدلّ عليه اللفظُ بحسب اللغة، كما في قوله سبحانه: «إِنَّ *الإنسانَ*لفِي خُسْرٍ»، أي: كلّ إنسان، بدليل الاستثناء بعده. وقوله سبحانه:« إِنّ *النفسَ* لأمّارةٌ بالسّوءِ»، أي: كلّ نفس.

2- لام الاستغراق العرفيّ، وهي التي يراد بمدخولها كلّ فردٍ مما يدلّ عليه اللفظ بحسب متفاهم العرف، كقولك: « اجتمع *الطّلابُ* في الباحة»، تريد جميع الأفراد التي يتناولها لفظ «الطّلاب» عرفاً؛ أي طلاب الصف أو المدرسة التي أنت فيها تبعاً للعرف الذي تتفق فيه مع المخاطب. وكقولك: تفتحُ *المدارسُ* أبوابَها في الأسبوع الأوّل من الشّهر التّاسع من كلّ عام»، تريد جميع الأفراد التي يتناولها لفظ «المدارس» في العرف المتفق عليه. والفارق بين نوعي الاستغراق هذين أنّ الأوّل شاملٌ لكلّ أفراد الحقيقة دون استثناء، والثاني شامل كلّ أفراد الحقيقة التي جرت العادة على أن تفهن من اللفظ حين يطلق؛ أي في الاستعمال المحلّي لجماعة معيّنة.

وإليكَ مختصراً لما قلنا في تعريف المسند إليه بـ «أل»:

تُستخدَمُ «أل» – أو لام التعريف – لتأدية غرضين بلاغيّين: الأوّل الإشارةُ بها إلي فردٍ من أفراد الحقيقة معهودٍ بين المتكلم والمخاطب – وهذه لامُ العهد الخارجي. والثاني الإشارةُ بها إلي الحقيقة نفسها عندما يدلّ مدخولُها علي الحقيقة والماهية. والأولي ثلاثة أقسام: لام العهد الخارجيّ الصريحيّ، ولام العهد الخارجيّ الكنائيّ، ولام العهد العلميّ، التي تشمل لام العهد العلميّ الحضوريّ، ولام العهد العلميّ غير الحضوريّ. والثانية ثلاثة أقسام أيضاً: لام الحقيقة أو الجنس، ولام العهد الذّهنيّ، ولام الاستغراق، التي تشمل لامَ الاستغراق الحقيقيّ، ولام الاستغراق العرفيّ.

إيراد المسند إليه معرّفاً بالإضافة:

يؤتى بالمسند إليه معرّفاً بالإضافة إلى شيء من المعارف، ابتغاء تحقيق جملة أغراض بلاغيّة، نسوق لك أهمّها:

1- أنّ الإضافة أخصرُ طريق لإحضاره في ذهن السّامع والمقام مقام اختصار، كقول جعفر بن علّبة الحارثيّ:

هوايَ مع الرّكْبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ جنيبٌ، وجُثماني بمكّةَ مُوثَقُ

وقال بعده:

عجبتُ لمسراها وأنّي تخلّصَتْ ... إليّ وبابُ السِّجْنِ دونَي مغلَقُ
ألَمّتْ فحيَّتْ ثمَّ قامتْ فودّعتْ ... فلماّ تولّتْ كادتِ النّفسُ تزهقُ
فلاتحسبي أنّي تخشّعتُ بعْدكُمْ ... لشيءٍ، ولاأنّي من الموت أفرقُ

ولأنّ قلبي يزدهيه وعيدُهُمْ   ولأنّني بالمشْي في القيدِ أخرقُ
ولكنْ عَرتْني منْ هـواكِ ضـمانةٌ   كما كنتُ ألقى منك إذْ أنا مطلقُ

قال الشّاعر الأبيات إذ هو سجينٌ بمكة بقتْله واحداً من بني عُقَيْل، وكان في مكّة يومئذٍ ركبٌ من اليمن فيه محبوبته، وقد أزمع الركبُ الرحيلَ، فهام الروحُ الشّاعر وجاءت القريحة بهذا الذي يستخفّ الرزين ويصبي الرّحين. ومعنى مصعدِ: مبعدٌ ذاهب في الأرض. والجنيب: المجنوب المستتبع. والجثمان: الشخص. مع ذلكِ الركب اليماني، يقدّمه قومُه أمامهم خشيةَ سبيه (جنيب)، وأنا سجين مقيَّد في مكّة.

والشّاهد قوله «هواي»؛ حيث آثر الشّاعر هذه الصيغة التي هي أخصر من قوله «الذي أهواه». والاختصار هنا مطلوب؛ لضيق المقام وفرط السأم؛ لكونه في السجن والحبيب ماض في الرحيل.

2- تضمّن الإضافة تعظيماً لشأن المضاف أو المضاف إليه أو غيرهما: فمن تضمّن تعظيم شأن المضاف قوله سبحانه: «إنّ عبادي ليَس لكَ عليهمْ سلطانٌ». جيء بالمسند إليه «عبادي» معرّفاً بالإضافة لتضمّن هذه الإضافة تعظيماً لشأن المضاف «عباد»؛ لأنهم بذلك عباد الله سبحانه وقوله سبحانه:«وعبادُ الرحمنِ الذينَ يمشُونَ على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهُمْ الجاهلونَ قالوا سلاما».

ومن تعظيم شأن المضاف إليه قولك: سيّارتي بانتظاري»، تعظيماً لك بأنّ لك سيّارة. وقولك : «قصْري الجديد صار جاهزاً».

ومن تعظيم غير المضاف إليه قولك : « سيّارتي بانتظاري»، تعظيماً لك بأنّ سيّارة. وقولك:«قصْري الجديد صار جاهزاً». ومن تعظيم غير المضاف والمضاف إليه قولكك « أخو الوزير عندي»، تعظيماً لشأن المتكلّم بأنّ أخا

الوزير عنده. والمتكلّم هنا ليس المضاف ولاالمضاف إليه.

3- تضمّن الإضافة تحقيراً الشأن المضاف، أو المضاف إليه، أو غيرهما:

– الأول كقولك: « أخو اللصِّ قادمٌ»؛ تحقيراً للمسند إليه المضاف بأنه أخٌ لّصٍ، وقد جاء ذلك من طريق الإضافة. ومنه قول العنبريّ:

لوْ كنتُ مِنع مازنٍ لم تستبِحْ إبِلي   *بنو اللقيطةِ* مِنْ ذُهْل بنِ شيبانا

– الثاني كقولك: « صديقُ زيدٍ لصٌّ»، تحقيراً للمضاف إليه بأنّ صديقه لصّ

– الثّالث، كقولك: ابنُ السارقِ يزور زيداً، تحقيراً لزيد بأنّ ابن السارق يزوره. و«زيد» هنا ليس مضافاً ولامضافاً إليه.

4- إغناء الإضافة عن تفصيل متعذّر، كقولك: «أهلُ البلدِ يسلّمون عليكَ». جئت بالمسند إليه مضافا؛ لتعذر تعداد أهل البلد أو تسميتهم واحدا واحدا. ومنه قوله سبحانه :« وجاءَ أهلُ المدينةِ يستبشرونَ»، وقوله سبحانه:« ولو أنَّ أهلَ الكتابِ آمنوا واتّقَوا لكفَّرْنا عنهم سيِّئاتِهم». ومنه في الشعر قول حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

أولادُ جفنةَ حولَ قبرِ أبيهِمِ   قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ الْفُضلِ

وقول مروان بن أبي حَفْصَةَ:

بَنو مطَرٍ يومَ اللقاءِ كأنَّهُمْ   أسودٌ لها في غِيلِ خَفّانَ أشْبُلُ

الشّاهد في البيتين إضافة المسند إليه لتعذّر تعداد أولاد جفنة وبني مطر؛ ومن ثمّ أغنت الإضافة عن تفصيل متعذّر.

5- إغناء الإضافة عن تفصيل حال دونه مانع مع تيسُّره، كقولك: «علماءُ اللغة حاضرونَ»، حيث جيء بالمسند إليه معرّفاً بالإضافة تحاشياً لتقديم

بعض أشخاص العلم على بعضٍ في الذكر. ومنه في الشعر قول الشاعر:

قومي همُ قتلوا، أميمَ، أخي فإذا رميتُ يُصيبني سهمي

يقول الشاعر: ياأميمة، إنّ قومي هم الذين تولّوا قتل أخي، فإن قتلت أحدا منهم ثأراً لاخي أصابني سهمي. والشّاهد قوله «قومي» حيث جاء بالمسند إليه مضافا؛ لإغناء الإضافة عن تفصيل تحاشاه الشاعر؛ لأنّ تعداد أسماء رجال قومه دمٌ صريحٌ لهم، ينشأ عنه حقدهم عليه ونفوذهم منه.

6- تضمّن الإضافة اعتباراً لطيفاً، وذلك كقول الشاعر:

إذا كوكبُ الخَرْقاءِ اعتباراً لاحَ بُسحْرةٍ

سهيل أذاعتْ غزْلَها في القرائبِ

يقول إنّ المرأة الحمقاء لاتستعد لفصل الشتاء البارد بغزل الصوف اللازم لألبسة أبنائها منذ فصل الصيف، بل تنتظر حتى يطلع كوكب سهيل سَحَراً في أول الشتاء، وإذ ذاك يدرك البردُ الشديد أبناءها فتُضطرّ إلى توزيع غزلها على قريباتها ليغزلته..

والشّاهد قوله «كوكب الخرقاء»، حيث جاء بالمسند إليه «كوكب» مضافاً إلى «الخرقاء» فجعله كوكباً لها؛ تعبيراً عن تكاسلها وإهمالها وأنّه لاينبهها على عملها (غزل الصوف) إلاّ ظهور هذا الكوكب «سهيل»؛ فكأنه لم يُخلق إلاّ لها .

7- التعبير عن السخرية، كقوله سبحانه حكاية لقول فرعون لأتباع موسى عليه السلام: «إنَّ رسولَكُمْ الذي أُرسِلَ إليكُمْ لَمَجنون». جيء بالمسند

إليه «رسولكم» مضافاً إلى ضمير المخاطبين؛ إظهاراً للسخرية.

تنكير المسند إليه:

يؤتى بالمسند منكّرا لتحقيق أغراض بلاغية أهمّها:

الدلالة على فرد غير معيّن ممّا يصدق عليه اسم الجنس، كقوله سبحانه: «وجاء رجلٌ مِنْ أقصى المدينةِ يسعى»، أي: فردٌ من أشخاص الرجال، وقد جيء بالمسند إليه «رجل» منكراً للدلالة على فرد غير معين من أفاد جنس الرجّال، ومنه في الشّعر قول الشاعر:

وإنْ أتاهُ *خليلٌ* يومَ مسغَبَةٍ يقول : لاغائبٌ مالي، ولاحَرِمٌ

2- الدّلالة على نوع من المسند إليه مخالفٍ للأنواع المعهودة، كقوله سبحانه:

«وعلى أبصارِهِمْ غشاوةٌ». جيء بالمسند إليه «غشاوةٌ» منكّراً؛ للدلالة على نوع خاصّ من الغشاوة غير مايتعارفه الناس، وهو غشاوة التّعامي عن آيات الله سبحانه. ويرى السّكاكي أنّ التّنكير في «غشاوة» للتّعظيم، أي: غشاوةٌ عظيمة تحجب أبصارهم بالكليّة وتحول بينها وبين الإدراك.

ومنه في الشعر قول الشاعر:

لكلّ داءٍ يُستطبُّ بِهِ إلاّ الحماقةَ أعيتْ مَنْ يداويَها

حيث جاء بالمسند إليه «دواء» منكّراً؛ للدلالة به على نوع خَاصّ متميّز من أنواع الأدوية؛ أي دواء خاصّ بذلك الدّاء.

وقول ميسون بنت بَحْدَل:

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيهِ أحبُّ إليَّ مِنْ قصْرٍ منيفِ

3- تعظيم المسند إليه، بمعنى أنّه أعظمُ من أن يُعَرف ويعيَّن، كقوله سبحانه:

«ولكُمْ في القِصاصِ حياةٌ»، حيث جيء بالمسند إليه «حياة» منكَّرًا؛ للدلالة على التعظيم؛ إذ المعنى: حياة عظيمة؛ لأنّ القصاص يحدّ من القتل العَمْد، ويمنع من قتل الجماعة بواحد.

ومنه في الشعر قول الشاعر:

لهُ هِمَمٌ لامنتهى لِكِبارِها　　　وهِمّتُهُ الصُّغرى أجلُّ من الدهرِ

أى: هم عظيمة الشّأن

وكذا قول حسّان:

لنا حاضرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنّه　　　شماريخُ رَضْوى عِزّةً وتكرُّما

4- تحقير المسند إليه، بمعنى أنّه ضئيل الشأن لايمكن أن يعرّف، كقول حسّان:

لقد خابَ قومٌ غابَ عنهمْ نبيُّهمْ　　　وقدٌ منَ مَنْ يَسري إليهِمْ ويغتدي

جاء بالمسند إليه «قومٌ» منكّراً؛ للدّلالة علي تحقيره، وبيان أنّ هؤلاء القوم- وهم قريش – لاوزن لهم ولاقيمة؛ مادام النبيّ عليه الصلاة والسّلام قد هجرهم وانصرف عنهم إلى سواهم.

ويقول البلاغيّون إنّ التّعظيم والتّحقير اجتمعا في قول ابن أبي السِّمط:

لَهُ حاجبٌ في كلِّ أمرٍ يشينُهُ　　　وليسَ لهُ عَنْ طالبِ العرفِ حاجبُ

يقول : له حاجبٌ عظيم يصرفه عن كلّ أمرٍ شائن، وليس بينه وبين

طالب نداه حاجب حقير، فكيف إذا كان عظيماً؛ أي لايفصله عن طلاب الحاجات أي حاجب. فقد جاء بالمسند إليه في صدر البيت وعجزه منكّراً؛ للدّلالة على تعظيمه في الأول وتحقيره في الثّاني. ومثل هذا قول الشّاعر نفسه:

وَلِلّهِ منّي جَانِبٌ لاأُضيعُهُ　　　وَلِلّهْوِمنّي والخلاعةِ جانبُ

5- تكثير المسند إليه، بمعنى أنه كثير حتى إنه لايحتاج إلي تعريف، كقوله سبحانه:

«وإنْ يكذّبوكَ فقد كُذِّبتْ رُسُلٌ مِنْ قبلِكَ»، أي رسلٌ كثيرون. جيء بالمسند إليـه «رسُلٌ» منكرّاً؛ للدلالة على كثـرته. ومنه قـولهم: « إنّ له لإبِلاً وإنّ له لغَمَناً»، أي إنّ له مـالا يُحصى من الإبلِ ومالايحصى من الغنم، حينَ يقال ذلك في مقام المدح والثّناء.

6- تقليل المسند إليه، بمعنى أنه قليل لايكاد يُعرف ويُعيَّن، كقوله سبحانه: « وعَدَ اللّهُ المؤمنينَ والمؤمنات جنّات تجري مِنْ اللّهِ أكبرُ»، أي: وشيء قليل من رضوانِ اللّه أكبرُ ممّا ذُكر قبلُ من الجنة ونعيمها؛ لأنّ رضى المولى يفوق كلّ أنواع النعيم؛ إذا المحبُّ الحقيقيّ من تركَ هواهُ لهوى محبوبه. وكقوله سبحانه في قصّة يحيى عليه السلام: « سلامٌ عليهِ يومَ ولِدَ». يذهب البلاغيون إلى أنّ التّنكير راجعٌ إلى أنّ السّلام واردٌ من جهة اللّه تعالى، أي: سلامٌ من جهة اللّه سبحانه مغنٍ عن كّل تحية؛ ولهذا لم يرد السّلام من جهة اللّه سبحانه إلا منكراً كقوله سبحانه: « سلامٌ قولاً مِنْ ربٍّ رحيمٍ»، و«سلامٌ على نوحٍ».

والفرق بين التّعظيم والتّكثير، وكذا بين التّحقير والتّقليل، مرجعه اتّصال التّعظيم والتّحقير بالحال والشّأن، كعلوّ المرتبة وسموّ القدر؛ واتّصال

التّكثير والتّقليل بالكميّات والمقادير كالمعدودات والمكيلات والموزونات.

7- منع المقام من التعريف، كقول الشاعر:

إذا سئمتْ مهنّدَهُ يمينٌ　　　لطولِ العهْدِ بدلّه شمالا

جاء بالمسند إليه «يمينٌ» منكراً، ولم يعرّف بقوله «يمينه» رغم إمكانية التعريف؛ لأنّ إضافتها إليه بأن يقال «يمينه» تتضمّن نسبة الكلل والسآمة إلي يمين الممدوح، وهذا مخالفٌ لمقتضى حال المدْح.

8- إخفاؤه عن المخاطب خوفاً عليه،كقولك: « قال لي شخصٌ إنّك لم تُصلِّ الجمعة الماضية». حيث جاء المسند إليه «شخصٌ» منكْراً؛ بقصد إخفائه عن المخاطب خوفاً عليه.

تقييد المسند إليه:

الإطْلاق والتقييد وصفان للحكم. ويعني الإطلاق أن يُقتَرَ في الجملة على المسند إليه والمسند حيث لايكون ثمّة داعٍ إلى قصر الحكم ضمن نطاق معيّن. والتّقييدُ أن يزداد على المسند إليه شيء يتعلّق بهما، أوبأحدهما، لو أهمل لذهبت الفائدة المقصودة، أو كان الحكم كاذباً. ويكون التّقييدُ لتمام الفائدة؛ كما هو معروف في البلاغة من أنّ الحكم كلّما زاد تقييداً زاد خصوصية وكلما زاد خصوصيةً زاد فائدةً. ويحصل التّقييد بالتّوابع، وضميرالفصل، والنوّاسخ، وأدوات الشّرط، ووالنّفي، والمفاعيل الخمسة، والحال، والتّمييز وإلية تفصيل في تقييد المسند إليه بأحد التوابع:

1- أيراد المسند إليه متبوعاً بوصفك

يؤتى بالمنسد إليه متبوعاً بوصف، لتحقيق أغراض بلاغية أهمّها:

أ- الكشف عن حقيقته وتوضيح معناه، كقولك« الجسم الطّويل موصوفاً بـ«الطول و«العرض» و«العمق: للكشف عن حقيقته وإيضاحه؛ فإنّ هذه الأوصاف ممّا يوضح الجسم ويقع تعريفاً له. وكقولك: « المؤمنُ المصلّي المزكي المتّقي على هدًى من ربّه».

ب- تخصيص الوصف للمسند إليه، أي تقليل الاشتراك الحاصل فيه إذا كان نكرة، ورفع الاحتمال الحاصل فيه إذا كان معرفة.

فالأوّل كقوله سبحانه: « ولعَبْدٌ مؤمنٌ خيرٌ مِنْ مشرِكٍ». جيء بالمسند إليه «عبدٌ» موصوفاً بـ«مومن»؛ لقصد تخصيصه، أي تقليل الاشتراك فيه؛ إذ يخرج بهذا التخصيص العبيد الذين لايشتركون في هذه الصفة. ومنه قول المصطفى عليه الصلاة والسلام:« لأمةٌ سوداءُ ولودٌ خيرٌ من بيضاءَ لاتلدُ». ومنه أيضاً: « قليلٌ دائمٌ خيرٌمن كثير منقطع».

والثاني كقولك: «زيدٌ التاجرُ عندنا». وصفه بـ«التاجر» يرفع احتمال غير التاجر.

جـ- مدح المسند إليه أوذمّه عندنا يتعيّن الموصوف قبل ذكر الوصف، كقولك:

«زارنا *أحمدُ العالمُ* وغادرنا سعيدُ *الجاهلُ*». جئت بالمسند إليه موصوفاً في الموضعين؛ قصداً إلى المدح والثناء في الأول بوصفه بالعلم، والذمّ.

ومن مدح المسند إليه في الشعر قول حسّان:

جزى *اللهُ ربُّ الناس* خيرَ جزائِهِ رفيقَيْنِ قالا خيمتَيْ أمِّ مَعْبدِ

وقو ل حسان أيضاً يرثي حمزة بن عبد المطّلب حين قدمتْ بنتُه أمامة

تسائل عن أبيها:

فإنَّ أباكِ الخيرَ حمزةَ فاعلمي وزيرُ رسولِ اللّهِ خيرُ وزير

ومن ذمِّ المسند إليه قول سبحانه:« *وامرأتُه حمّالةُ* الحَطَبِ في جيدِها حبلٌ مِنْ مَسَدٍ».

5- تأكيد المسند إليه وتقريره حين يتضمّن معنى ذلك الوصف الذي وصف به، كقولهم: «أمسِ الدّابِرُ كان يوماً عظيماً، جاء المسند إليه موصوفاً؛ قصداً إلى توكيده وتقريره؛ لأنّ «أمسِ» يتضمّن معنى الدُّبور (أي المضيّ)، مكأنك قلت: أمسِ أمسِ.

هـ- الترحّم على المسند إليه، كقولك: قدمَ زيدٌ المسكين»، و«أخوكَ المحتاجُ يسألكَ المساعدة.

و- بيان المقصود من المسند إليه، كقوله سبحانه: « *ومَا مِنْ دابّةٍ في الأرضِ* ولا طائرٍ يطيرُ بجناحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أمثالكُمْ». وُصِفَ المسند إليه الأول «دابّة» بما يخصُّ الجنسَ وهو في «الأرضِ»، ووصف الثاني يما يخصّ الجنس أيضاً وهو «يطير بجناحيه» لبيان المقصود فيهما؛ إذ أفاد الوصفُ كلَّ جنس الدّوابِّ وكلَّ جنس الطيور. يقول الزمخشريّ وكأن قيلَ: ومامن دابّة قط في جميع الأرضين، وما من طائرٍ في جو السماء من كلّ مايطير بجناحيه إلاّ أمَمٌ أمثالكم، تُراعى شؤونُها ولايُهمَل أمرها».

2- *إيراد المسند إليه مؤكّداً:*

يؤتى بالمسند إليه مؤكّداً؛ لتحقيق أغراضٍ بلاغية أهمّها:

أ- تقريره وتحقيق مفهومه عند الإحساس بغفلة السامع، كقولك : جاءَ *الأميرُ* الأميرُ، جئت بالمسند إليه «الأمير مؤكّداً بتكرار لفظه «الأمير»؛

لغرض جعله مستقراً محققاً ثابتاً، لايُظَنُّ به غيره. تفعل ذلك عندما تأنس غفلة السامع أو ضعف انتباهه لما تريد أن تقول.

ب- التقرير ودفع توهّم التكلُّم بالمجاز، كقولك:« قبضَ على اللّصِّ *الأميرُ* الأميرُ»، و« الأميرُ نفسهُ أو عينُه» تجيء بالمسند إليه «الأمير» مؤكّداً بتكرار لفظ «الأمير» و«نفسُه أو عينه»؛ للتقرير ودفع توهّم السامع أنّ الذّي قبض على اللصّ أحدُ رجال الأمير بزمرٍ منه، وكيلا يقع في رُوعه أنّ المتكلّم أسند القبضَ إلى الأميرِ مجازاً من إسناد الفعل إلى سببه.

جـ- دفع توهُّم السّهو، كقولك: « جاءني *أحمدُ* أحمدُ» يجيء بالمسند إليه «أحمد» مؤكّداً بـ «أحمد»؛ لدفع توهم المخاطب أنّ الجائي غير أحمد، وأنّك ذكرتَ أحمد على سبيل السّهو.

د- دفع توهم عدم الشمول، كقوله سبحانه: «فسَجَدَ الملائكةُ كلُّهُمْ أجمعونَ»، جيء بالمسند إليه «الملائكة» مؤكّداً بـ كلُّهم» و«أجمعونَ»؛ لئلاّ يتوهّم المخاطب أنّ الذي سجد بعض منهم. ومثله قوله سبحانه: «فكُبْكِبُوا فيهاهُمْ والغاوُونَ وجنودُ إبليسَ أجمعونَ».

هـ - إدارة انتقاش معناه في دهن السامع، كقوله سبحانه:« اسكُنْ أنت وزوجُكَ الجنّةَ». جيء بالمسند إليه (الضمير المستتر فاعل اسكن) مؤكّداً بـ «أنتَ»؟ قصداً إلى تثبيت معناه في ذهن السامع.

3- إيرادُ المسند إليه مبدَلاً منه:

يؤتى بالمسند إليه مبدلاً منه لتحقيق غاية بلاغية هي:

زيادة التقرير، أي إفادة أمرٍ زائدٍ على النسبة هو تقريرُ المسند إليه في ذهن السّامع. مثال ذلك أن تقولك «زارني أخوكَ محمّدٌ». والغرض من البدل

أساساص هو أن يكون مقصوداً بالنسبة، كنسبة الزيارة إلى «محمد» في مثالنا هذا. والتقرير زيادةٌ تحصل تبعاً وضمناً؛ حيث تتضمّنه صيغة البدل.

وإليك الأمثلة الموضحة لذلك:

- تقول في بدل المطابق (بدل الكلّ):« جاءني أخوكَ زيدٌ». جئتَ بالمسند إليه «أخوك» مبدلاً منه لـ «زيد»؛ قصداً إل إسناد الحكم «المجيء» إلى البدل «زيد». وقد تضمّن ذلك تقريرَ المسند إليه «أخوك»؛ لأنك كرّرته من حيث معناه، فمعني «أخوك» هو معني «زيد»، ومتي تكرّر فقد تقرّر أي ثبت. ومن ذلك قوله سبحانه:«إذْ قالَ لهمْ أخوهُمْ هودٌ ألا تتقونَ»، وقوله سبحانه «إذ قالَ لهُم أخوهُمْ صالحٌ ألاتتقونَ».

- وتقول في بدل «البعض»: جاءني القومُ أكثرهُمْ». جئت بالمسند إليه «القوم» مبدلاً منه للبدل«أكثرهم»، والأول «القوم» متضمّن للثّاني «أكثرهم»؛ أي إنك ذكرت في الثاني ماتضمّنه الأول بدلالته الكلّية، ومن التّكرير حصل التّقرير.

- وتقول في بدل الاشتمال «سلِبَ زيدٌ ثوبُهُ». جئت بالمسند إليه «زيد» مبدلاً منه للبدل «ثوبه». والمبدل منه «زيد» يُشعر إشعاراً إجمالياً بالبدل «ثوبه»، فالنفسُ قبل ذكره تترقّب شيئاً يستدعيه المبدَل منه، حتى إذا ذكر كان «متكرّراً»، والتكرير يوجب التقرير.

4- إيراد المسند إليه متبوعاً بعطف بيان:

يؤتى بالمسند إليه متبوعاً بعطف بيان لأغراض بلاغية يدّل عليها، ومن ذلك:

أ- مجرّد إيضاح المتبوع باسم مختصّ به، كقول الشاعر

وَلِدَ الفتى العذريُّ عروةُ بعدما دارتْ بوالده رحى الحدّثانِ

جاء بالمسند إليه «الفتى» متبوعاً بعطف بيان «عروة»؛ ابتغاء إيضاحه باسم مختصّ به. ومثله قولك:«حدّثنا أبوعبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المثنّى». ويكفي في الإيضاح أن يوضح الثاني الأول عند اجتماعهما، وإن لم يكن أوضح منه عند الانفراد، نحو عليٌّ زين العابدين، وعسجدُ ذهب.

ب- الإيضاح والمدحُ، كقولك :جاء عليٌّ زينُ العابدين». جئتَ بالمسند إليه «عليّ» متبوعاً بعطف بيان «زين العابدين»؛ قصداً إلى إيضاحه الثّناء عليه، وجعلوا منه في غير المسند إليه قوله سبحانه:«جعلَ اللّهُ الكعبةَ لبيتَ الحرامَ قياماً للناسِ». ذكر الزمخشريّ أنّ البيتَ الحرام عطف بيان للكعبة جيء به للمدح لا للإيضاح، كما تجيءُ الصفة لذلك.

5- *إيرادُ المسند إليه متبوعاً بعطف نَسَقَ*

يؤتى بالمسند إليه متبوعاً بعطف نسق لأغراض بلاغية يدلّ عليها، ومنها:

أ- تفصيل بالمسند إليه مع اختصار التركيب حين يكون العطف بالواو، كقولك:«زارني محمّدٌ وعليهُ». ويتمثّل التّفصيل في ذكر المعطوف عليه والمعطوف كلّ باسمه الخاصّ،كما أنّ هذا التركيب أخصر من قولك:«زارني محمّدٌ» و«زارني عليهُ»، ولايُستدلّ منه على تفصيل المسند الفصل بأنّ الزيّارتين حصلتا معاً أو مرتّبتين؛ لأنّ الواو لمطلق الجمع، على أنّ الجمع الذي تحققه الواو واحدٌ من ثلاثة·

1- جمع في ذات واحدة، كقولك:«قام عليهُ وقعدَ» حيث جمعت الواو صفتي

القيام والقعود في ذات واحدة هي ذات «عليّ»

2- جمع في صفة واحدة، كقولك:«قام عليٌّ وزيدٌ»، حيث جمعت الواو ذات عليّ وذات زيد في صفة واحدة هي القيام.

3- جمع في الوجود، كقولك:«قام عليٌّ وقعدَ زيدٌ»، حيث جمعت الواو بين قيام «عليّ» وقعود «زيد» في الوجود، ويكون ذلك في عطف الجمل

ب- تفصيل المسند مع الاختصار إذا كان العطف بالفاء أو ثمّ أو حتى:

- فالأول كقولك: زارني محمّدٌ فعليٌّ»، جئتَ بالمسند إليه «محمد» معطوفاً عليه؛ بقصد تفصيل المسند «زار»؛ أي بيان أن الزيارة وقعت من «محمد» أولاً ثمّ من «عليّ» ثانياً من غير مهلة.

- والثاني كقولك: «زارني محمّدٌ ثمّ عليٌّ»، جئت بالمسند إليه معطوفاً عليه، لقصد تفصيل المسند «زار»؛ أي بيان أن الزيارة وقعت من «محمّد».

- والثالث كقولك:«رسبَ الطلاّبُ حتى المجمتهدون»، وقولك : «نجحَ الطلاّبُ حتى الكسالى»، حيث جئت بالمسند إليه «الطلاب» في المثالين معطوفاً عليه بحتىّ؛ لقصد تفصيل المسند «رسَب» و«نجَحَ»؛ أي بيان أنّ الرسوب حصل من الطلاب بدءاً من الضّعاف إلى أن حصل من المجتهدين (المثال الأول)، ،أنّ النّجاح بدءاً من الضعاف إلى أن حصل من المجتهدين إلى أن حصل من الكسالى (المثال بالثاني).

جـ- ردّ السامع إلى الصواب مع الاختصار، وذلك ني:

- العطف بـ «لا» كقولك: جاء زيدٌ لاعمرو»، جئت بالمسند إليه معطوفا

عليه؛ لقصد ردّ السّامع إلى الحكم الصّائب، إذا كان قد فهم أنّ الجائي «عمرو» لا «زيد».

- العطف بـ «لكن»، كقولك: «ماجاءني زيدٌ لكن عمرو»، تقول ردّاً على من زعم أنّ الجاني زيد لاعمرو.

صرف الحكم عن محكومٍ عليه إلى محكوم عليه آخر، في العطف بـ «بل»، كقولك في الإثبات: «جاءني زيدٌ بل عمرو». جئتَ بالمسند إليه« زيد» معطوفاً عليه بـ «بل»؛ لقصد نقل الحكم «المجيء» من المحكوم عليه الأول «زيد» إلى المحكوم عليه الثاني «عمرو». والمعنى عندئذ: ثبوتُ المجيء لعمرو. وكقولك في النفي: «ماجاءني زيدٌ بل عمرو».

هـ- الشكّ؛ من المتكلّم أو التشكيك للسّامع أو إبهام الحكم عليه في العطف بـ «أو»:

- الأول والثاني كقولك: قابلني عبّاسٌ أو عليّ». جئت بالمسند إليه «عبّاس» معطوفاً عليه بـ «أو» إمّا لوقوع الشكّ من المتكلّم فلايدري من قابله حقيقةً:

عبّاس أو عليّ، وإماً لقصد تشكيك السامع

- والثالث كقوله سبحانه: « وإنّا أو إيّاكُمْ لعلى هدىً أو في ضلال مبين».

جيء بالمسند إليه «اسم إنّ» معطوفاً عليه بـ «أو»؛ ابتغاء إبهام الحكم على المخاطبين. والمعنى: نحنُ فريقان: مهتد وضالٌ، فإمّا أن يكون المهتدون إيّانا والضالّون إيّاكم، وإمّا العكس. كلّ ذلك تجنّباً للإيضاح والتصريح برميهم بالضلال المبين الذي ينشأ عنه ازدياد لحاجبهم وإثارة

غضبهم واشتداد عنادهم ومكابرتهم في الوقت الذي تُنشد هوايتهم. قال الزمخشري في تفسيره هذه الآية:« وهذا من الكلام المنصف الذي كلُّ مَنْ سمعه من مُوالٍ أو مُشاقٍّ قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبُك. وفي دَرْجه بعد تقدمة ماقدّم من التقرير البليغ دلالةٌ غير خفيّة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضّلال المبين. ولكنّ التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلَبة مع قلّة شغب الخصم وفلّ شوكته».

و- التخيير والإباحة، والفرق بينهما أنّ الإباحة لاتمنع من الجمع بين التابع والمتبوع، أمّا في التخيير فإنّ الحكم لأحدهما لامحالة. كقولك:« ليقرأ الدرسَ محمّدٌ أو عليّ»، تجيء بالمسند إليه «محمد» معطوفاً عليه بـ «أو» لقصد التخيير إن كنت تقصد قصر القرادة على أحدهما، أو لقصد الإباحة إن كنت تقصد تحقق القراءة من أحدهما أو منهما معاً.

6- إيراد المسند إليه معقباً بضمير فصل:

يؤتى بالمسند إليه متبوعاً بضمير فصل للأغراض التي يدلّ عليها، ومنها:

أ- تخصيص المسند إليه بالمسند، أي قصر المسند على المسند إليه، كقوله سبحانه:

«ألَمْ يعلموا أنَّ اللّهَ هو يقبلُ التوبةَ عن عباده»، جيء بالمسند إليه «الله سبحانه» متبوعاً بضمير الفصل «هو»؛ لقصد تخصيصه - جلّ وعلا - بقبول التّوبح عن عباده. إذ المعنى: لايقبلُ التّوبة عن العباد إلاّ اللّه. وكقوله التّوبة عن عباده. إذ المعنى: لايقبلُ عن العباد إلاّ اللّه. وكقوله سبحانه:« إنّه هو يبدىء ويُعيدُ».

ب- تأكيد التخصيص عند تضمّن التركيب مخصّصاً آخر، كقوله سبحانه: « إنّ الله هو الرزّاقُ ذو القوّةِ المتين». يتضمّن التركيب هنا مخصَصاً آخر هو تعريف المسند إليه والمسند، ومن ثمّ جاء المسند إليه متبوعاً بالضمير؛ ليؤكّد هذا التخصيص الموجد من قبل.

ومنه شعراً قول المتبني:

إذا كان الشبابُ السُكْرَ والشّيْـ ـبُ هماً فالحياةُ هَي الحِمامُ

جـ- تمييز الخبر عن الصفة، كقولك:« العالِمُ هو العامِلُ بِعِلْمِهِ». جئتَ بالمسند إليه «العالم» متبوعاً بضمير الفصل «هو»؛ للدّلالة بهذا الضمير أنّ «العامل» وصفٌ للعالم وأنّ الخبر سيأتي بعد. وكقولك:«الألمعيُّ هو ذو البصيرة النافذة».

تقديم المسند إليه:

الصورة التي يتخذها تتابعُ أجزاء الكلام هي صورة ترتُّب المعاني في الذهن، فما الألفاظ إلا قوالب المعاني وصورها الصوتية التي تمكن من الاحتفاظ بها وتوصيلها إلى الآخرين. وعليك أن تعلم أنّ مرتبة المسند إليه «التقديم»؛ لأنّ مدلوله هو الذي يخطر في الذهن أولاً؛ لأنّه المحكوم عليه، والمحكوم عليه سابق للحكم. ويؤتى بالمسند إليه مقدّماً لأغراضٍ، منها:

أ- أنّ تقديمه هو الأصل ولامقتضى للعدول عنه. أمّا كون الأصل فيه التقديمفمرجعه إلى أنّ مدلوله هو الذات المحكوم عليها والمسند هو الوصف المحكوم به، أي إنّه مطلوبٌ للمسند إليه. وهكذا فإنّ تعقُّد (إدراك) الذات المحكوم عليها سابقٌ على تعقّل الوصف المحكوم به، كقولك:«محمّدٌ رسولُ اللّهِ. جئتَ بالمسند إليه «محمد» مقدّماً؛ لأنّ تقديمه هو الأصل، ذلك أنّه هو

المحكوم عليه بالرسالة وينبغي تقديم ذكره. وكقولهم في الأمثال: «*الحقُّ أبلجُ والباطلُ لجلَجٌ*».

ومنه قول عليّ بن الجهم:

اللّهُ أكبرُ، والنبيُّ محمّدٌ والحقُّ أبلجُ، والخليفةُ جعفرُ

ب- تمكّن الخبر في ذهن السامع لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه، كقول المعرّي:

والذي حارتِ البريةُ فيهِ حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

المعنى كما يقول بعض العلماء: تحيرّت الخلائق في المعاد الجسماني والنّشور الذي ليس بنفساني. وقد جاء بالمسند إليه المبتدأ «الذي» مقدّماً؛ ليمكّن الخبر «حيوان مستحدث من جماد» في ذهن السامع. ومبعث التمكين أنّ صلة المبتدأ «حارت البرية فيه» تثير في النفس الدّهشة والتّسؤل عن هذا الذي حيرّ البريّة كلّها، وتأذن- بسبب طولها- بمزيد ترقّب وانتظار من جانب المتلقي للخبر الذي سيلقى عليه، حتى إذا جاءه بعد هذا التشوّق ركزّ في ذهنه كأنه شيء مقطوع به، ولامحاجّة فيه.

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:

ثلاثةٌ تُشرقُ الدنيا ببهجتها شمسُ الضّحى، وأبو إسحاقَ، والقمرُ

جـ- تعجيل المسرّة للتفاؤل، أو المساءة للتطيرّ:

- الأول تقولك: «العفوُ عنكَ صدر به الأمرُ»، و«سَعْدٌ في دارِكَ»، و «فَرَحٌ سيزورُكَ».

- والثّاني كقولك: «القِصاصُ أمر محتومٌ في هذه القضيّة»، و«السفّاحُ آتٍ في نهاية الشهر»، و«حربٌ في الطريق إليك».

تقدّم المسند إليه في هذه الأمثلة جميعاً؛ ليحدث ذلك في نفس المتلقّي انطباعاً يناسب طبيعة الاسم الذي يفتتح به الكلامُ.

التّعجيلُ بإظهار تعظيمه أو تحقيره حين يوحي اللفظ بالتّعظيم أو التّحقير. ويوحي اللفظ بذلك:

- إمّا بذاته، كقولك:«أبو الخيرِ زارنا» و«أبوالموتِ غادرَنا».

- وإما بإضافة، كقولك:«حفيدُ الملكِ عندنا»، و«ابنُ الجلاّدِ مرَّ بنا».

- وإمّا بوصفٍ، كقولك:«رجلٌ كريمٌ كريمُ المحتدِ زارَنَا»و«تلميذٌ بليدٌ نُقِلَ إلينا».

تقدّم المسند إليه في هذه الأمثلة جميعاً؛ للتعجيل بإظهار تعظيمه أو تحقيره؛ لأنّ اللفظ يوحي بالتعظيم أو التحقير .

(هـ) تعجيل التلّذذ بذكره، كقول جميل :

بُثَيْنةُ مافيها إذا ما تبصَّرت مُعَابٌ ، ولا فيها إذا نُسبتْ أَشْبُ

وقول قيس :

باللّهِ ياظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لنا : لَيْلايَ منكُنَّ، أَمْ ليلى مِنَ البَشَرِ

(و) تعجيل التبرّك به، كقولك : «اللّهُ غايتُنا» و«محمّدٌ نبيُّنا» ، و«مكّةُ المكرّمة عاصمة ديارِ الإسلام».

(ز) إفادة تخصيص المسند إليه بالخبر الفعليّ، أو قصر الخبر عليه إن ولي المسندُ إليه حرفَ نفي، كقولك : «ماأنا قلتُ هذا» – بمعنى: لم أقلْهُ، مع أنّه مقولٌ لغيري. أفاد تقديم المسند إليه «أنا» نفيَ الفعل عن المتكلم، وأفاد أيضاً ثبوت هذا الفعل لغير المتكلّم. ومنه في الذكر

التحكيم قوله سبحانه : «وما اللهُ يريدُ ظُلْماً للعبادِ». ومنه في الشعر قول المتنبي :

وما أنا أسقمتُ جسمي بِهِ ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا

وننبّهك هنا على أن بعض الصيغ الخاطئة لتكون في نجوة منها :

1 – لا يصحّ أن تقول : «ما أنا قلتُ هذا ولا غيري»؛ إذ يفهم من «ما أنا قلت» ثبوتُ كون هذا القول صادراً عن إنسان غير المتكلّم. ويعني قولك : «ولا غيري» نفيَ كونه صادراً عن أحد البتّة؛ وفي هذا تناقض؛ لأنّ المقول لابدّ له من قائل .

2 – لا يصح أيضاً أن تقول : «ما أنا رأيتُ أحداً»؛ لأن هذا القول يقتضي أن يكون إنسانٌ غيرك قد رأى كلّ أحدٍ من الناس، إذ أنّه نفى عنك الرؤية على وجه العموم في المفعول، فيجب أن تثبت لغيرك على وجه العموم في المفعول، حتى يتحقق تخصيصك بهذا النفي، أي قصر عدم الرؤية عليك .

3 – لا يصح أيضاً أن تقول : «ما أنا ضربتُ إلاّ زيداً»؛ لأنّه يقتضي أن يكون إنسان غيرك قد ضرب كلّ أحد سوى زيد؛ لأنّ المستثنى منه مقدّر عامّ، وكلّ ما نفيتَه عن المذكور على وجه الحصر يجب أن تثبته لغيره .

(ح) إفادة تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي أو تقوية الحكم، إن لم يلِ المسندُ إليه حرفَ النفي . والتركيبُ المفيد لذلك يتخذ صورتين :

1 – ألا يكون في الكلام حرف نفي أصلاً، كقولك : «محمدٌ سعى في حاجتِك»، و«أنا كتبتُ في شأنِكَ»، و«رجلٌ عنّى بمسألتِك».

والصورتان قد تأتيان للتخصيص وقد تأتيان لتقوية الحكم حسبما يقتضي المقام، وإليك بيان ذلك .

(أ) يكون تقديم المستند إليه للتخصيص رداً على من زعم انفراد غير المسند إليه المذكور بالخبر الفعلي أو زعم مشاركة غيره في الخبر الفعليّ، كقولك : «أنا سعيتُ في حاجتك»، تقول هذا لمن زعم انفراد غيرك بالسعي (فيكون قصر قلْب) أو مشاركة غيرك لك في السعي (فيكون قصْرَ إفراد». وفي مقدورك تأكيد الأول (الردّ على زاعم انفراد غيرك) بتعبير إضافيّ من نوع «لا غيري»، فتقول مثلاً : «أنا سعيتُ في حاجتك لا زيد و«لا عمرو» و«لا مَنْ سواي». وتأكيد الثاني والردّ على مزاعم المشاركة) بتعبير من نوع «وحدي»، فتقول مثلاً : «أنا سعيتُ في حاجتك منفرداً أو «متوحِّداً» أو «غيرَ مشارَك» ... ويرمي التأكيد إلى إزالة شبهة خالجت قلب السامع .

(ب) تقوّي الحكم وتقريره في ذهن السامع، دون قصد التخصيص، كقولك : «هو يعطي الجزيلَ»، تريد أن تجعل السّامع يستيقن أنّ إعطاء الجزيل دأبه وأنّه قد تمكّن من نفسه. ومنه في الذّكر الحكيم قوله سبحانه : «واتخذوا مِنْ دونه آلِهَةً لا يخلقون شيئاً وهمْ يُخلَقون»، وقوله سبحانه : «وإذا جاؤوكمْ قالوا آمنّا وقد دخلُوا بالكفر وهمْ قد خرجوا به».

هذا حين يكون الفعل مثبتاً (الصّورة الأولى)، ولا يختلف الأمر حين يكون الفعل منفياً (الصورة الثّانية)، فقد يأتي تقديم المسند إليه للتخصيص، كقولك : «أنت ماسعيتَ في حاجتي»، تقصد تخصيصه

بعدم السعي، أو للتقوّى، كقولك : «أنتَ لا تكذبُ» تقصد تقوية الحكم المنفيّ «عدم الكذب» وتقريره .

ونسوق لك هنا مايقوله عبد القاهر الجرجاني عن سبب «تقوّي الحكم» فيما نحن بشأنه : «إنَّ الاسمَ لا يؤتى به معرّى من العوامل إلاّ لحديثٍ قد نُويَ إسناده إليه، فإذا قلتَ : عبدُ اللّه، فقد أشعرت قلب السّامع بذلك بأنّك تريد الحديثَ عنه؛ فهذه توطئة له وتقدمةٌ للإعلام به، فإذا جئتَ بالحديث فقلت : قام، مثلاً، دخل على القلب دخول المأنوس به، وذلك لا محالة أشدُّ لثبوته وأنفى للشّبهة وأمنع للشكّ. وجملة الأمر أنه ليس إعلامُك بالشيء بغتةً مثلَ الإعلام به بعد التنبيه عليه؛ لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام».

تقديم لفظ «مثل» ولفظ «غير» :

يقول البلاغيون إنّ من المسند إليه الذي يكون تقديمه كاللازم لفظ «مثل» ولفظ «غير» حين يُستعملان على سبيل الكناية ، كقولك :

«مثلُكَ لا يبخل» بمعنى أنت لا تبخل .

«غيرُكَ لا يجود» بمعنى أنت تجود .

أنت في المثالين لا تقصد التّعريض بغير المخاطب، بل تريد نفيَ البخل عن مخاطبك بطريق الكناية؛ أي بأن تنفي البخل عن كلّ من كان على صفته، وبذلك تنفيه عنه (المثال الأول)، أو أن تنفي الجود عن غيره فتثبته له؛ لأنّ الجود صفة لابدّ لها من متصف بها حامل لها ولأنّ الغرض من هذين التّركيبين إثبات الحكم بطريق الكناية التي هي

أبلغ من التصريح، ولأن التقديم نفسه يفيد تقوية الحكم، كان التقديم مع هذين التركيبين كاللازم، لكي تتوافق دلالات الخصوصيات .

ومنه في الشعر قول المتنبي يعزّي سيف الدولة :

مِثلُكَ يثني المـزْنَ عنْ صـوبِهِ ويسـتردّ الدمـعَ مِنْ غَرْبِـهِ

وقول أبي تمام :

وغيري يأكلُ المعـروفَ سُحْتاً وتشحبُ عندَهُ بيضُ الأيـادي

(ط) إفادة شمول النّفي كلَّ أفراد المسند إليه حين يكون من أدوات العموم، وذلك – كما يرى الشيخ عبد القاهر – عندما لا تقع أداة العموم في حيـز النفي بأن تتـقـدم على أداة النفي لفظاً ورتبـةً، كقـولك : «كلُّ إنسانٍ لم يقم»، إذ لم تقع أداة العموم «كلّ» في حيز النفي بل تقدّمت عليه لفظاً، كما هو واضح> ورتبةً؛ لأنها مبتدأ والجملة المنفية بعدها خبرها . ومن ثمّ يفيد التّقديم شمولَ النّفي أو عموم السّلب؛ فالقيام منفيٌ عن كلّ الناس دون استثناء. وفي هذا يقول فيلسوف البلاغة العربية الأول عبد القاهر : «والعلّةُ في أن كان ذلك كذلك أنك إذا بدأت بكلّ كنتَ قد بنيتَ النفي عليه وسلّطتَ الكلّة على النفي وأعملتها فيه؛ وإعمال معنى الكلية في النفي يقتضي أن لا يشذّ شيء عن النفي». ومن هذا القبيل «شمول النفي كلّ أفراد المسند إليه حين يكون من أدوات العموم) قول أبي النجم العجليّ :

قدْ أصبحتْ أمُّ الخِيارِ تدّعي عليَّ ذنباً كلُّهُ لمْ أصنَعِ

وقول دِعْبِل بن عليّ الخُزاعي :

فواللّهِ ما أدري بأيِّ سِـهامِها رَمَتْني وكلٌّ عندنا ليس بالمُكْدِي

أبا لجيدِ أم مجرى الوِشاحِ وإنّني لأتهِمُ عينيها مع الفاحِمِ الجَعْدِ

وقول الآخر :

فكيفَ وكلٌّ ليسَ يعدو حِمامَهُ ولا لامرىءٍ عمّا قضى اللهُ مَزْحَلُ

أما إذا وقعت أداة العموم في حيز النفي (إذا وقعت بعده لفظاً ورتبةً أو رتبةً فحسب) فإنّ التركيب يفيد نفي الشمول أو سلب العموم؛ ويعني هذا ثبوت الحكم لبعض الأفراد دون بعض. ومنه قول البحتري

وماكلُّ مابلِّغتُمُ صدقُ قائلٍ وفي البعضِ إزراءٌ عليٌّ وعــابُ

وقول البحتري أيضاً يمدح يعقوب بن أحمد في قصيدة له فيه :

وأعلمُ ماكلُّ الرِّجــالِ مشيَّعٌ وماكلُّ أســيافِ الرِّجــالِ حُســامُ

(ي) الدلالة على أنّ المطلوب هو اتصاف المسند إليه بالخبر لا الخبر نفسه، كقولك : «المقاتلُ ألقى السّلاحَ وانصرف إلى التجارة»، وذلك لمن قال لك : كيف المقاتل ؟. وقد قدّمتَ المسند إليه «المقاتل»؛ لتدلّ على أنّ المهمّ في الأمر هو تصافه بإلقاء السلاح والانشغال بالتجارة مما لا يتوقع أن يحصل منه. ويخيل إلينا أنّ منه قول المتنبي :

ياأعدلَ الناس إلاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

قدّم المسند إليه «أنت»؛ لإفادة أنّ المطلوب هو اتصافه بالخصومة والحكومة معاً ممّا لا يُتوقّع أن يحصل؛ إذ كيف يكون الإنسان خصماً وحكماً في آنٍ واحد، ولا يراد الإخبار بهذين الأمرين .

(ك) إفادة زيادة تخصيص المسند إليه المقدّم بالمسند المؤخّر، كقولك لمن

أهان صديقك : «أنتَ مهينُ فلان». كأنّك على وشك أن تقول أيضاً لا غيرك، ومنه في الشعر قول الشاعر :

متى تهزُزْ بَيني قَطَنٍ تجدْهُمْ سيوفاً في عواتِقِهِمْ سيوفُ
جلوسٌ في مجالِسِهِمْ رِزَانٌ وإن ضيفٌ ألمَّ فهمْ خُفُوفُ

الشاهد قوله «هم خفوفٌ»، حيث أفاد تقديم المسند إليه «هم» زيادة تخصيص بني قَطَنٍ بالكرم، بما يتراءى منهم من إسراع إلى استقبال الضيف وخفّةٍ في القيام بواجبه .

تأخير المسند إليه :

يؤخّرُ المسند إليه إذا اقتضى المقامُ تقديم المسند، كما سنوضح لك ذلك بعد . وينبغي أن يكون مؤكداً عندنا أنّ التماس دواعي التّقديم والتأخير متوقّف على إباحة الاستعمال لكليهما وتوافر دواعي ترجيح أحدهما على الآخر .

تخريج الكلام علي خلاف مقتضي الظاهر فى المسند إليه :

هناك ثلاثة اصطلاحات بلاغيّة كانت لنا وقفة معها في موضع سابق، ونستعيدها هنا لمقتضيات البحث . وهذه المصطلحات هي :

1 - **الحال** : وهو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مصوّرا بصورة خاصّة، بصرف النظر عما إن كان المخاطب يتصف بهذا الأمر، أولا يتصف به، بل يفترضه المتكلّم افتراضا. نخلّو الذّهن لدى المخاطب حال يدعو المتكلّم إلى إيراد كلامه خلِواً من التّأكيد، وتردّد المخاطب في قبول الحكم حال يدعو المتكلم إلى استحسان إيراد الكلام مؤكداً

بمؤكّد واحد .. وهكذا .

2 - ظاهر الحال - وهو الأمر الدّاعي إلى إيراد الكلام مصوّراً بصورة خاصّة شريطة أن يتّصف المخاطب بهذا الأمر أو هذه الصفة فعلياً. وهكذا فخلوّ الذهن الذي يتصف به المخاطب فعليًا ظاهر حال يدعو المتكلّم إلى إيراد الكلام خلواً من التأكيد. والتردّد الذي يتصف به المخاطب فعلياً ظاهر حال يدعو المتكلّم إلى استحسان إيراد كلامه مؤكداً بمؤكد واحد .

3 - تخريج الكلام علي وفق مقتضي الظّاهر - وهو الإتيان بالكلام مصوّراً بصورة تطابق ظاهر الحال؛ كأن يؤتي بالكلام خلواً من التّأكيد حين يكون المخاطب خالي الذهن فعلياً، فيقال مثلاً : «محمدٌ صادقٌ»؛ أو يؤتي به مؤكداً بمؤكد واحد حين يكون المخاطب متردّداً في الحكم شاكاً فيه فعلياً، فيقال مثلاً : «لمحمّدٌ صادقٌ»؛ أو يؤتى به مؤكداً بأكثر من مؤكّد حين يكون المخاطب منكراً للحكم فعلياً، فيقال مثلاً : «إنّ محمّداً لصادقٌ» .

هذا التطابقُ بين صورة الكلام، أو كيفيتّه المخصوصة، وبين ظاهر حال المخاطب وواقعه النفسيّ يسمّى تخريجاً للكلام على وفق مقتضى الظاهر .

لكن المتكلم قد يتخيل، تبعاً لأسباب تبدو له، أنّ المخاطب خالي الذهن مثلاً، وهو على الحقيقة منكرٌ، ثمّ يأتي بالكلام موافقاً لتخيّله هو «خلوّ الذهن» ومخالفاً لحقيقة أمر المخاطب «الإنكار»، فيقول لهذا المخاطب : «محمّدٌ صادقٌ». ههنا نقول : إنّ خلوّ الذهن حال، والإنكار ظاهر حال، وإتيانُ الكلام على هذه الصورة الخالية من التّأكيد تخريج للكلام على

خلاف مقتضى الظّاهر. ويعني ذلك إعطاء الكلام صورة أو كيفيّة مخصوصةً مخالفة لظاهر حال المخاطب وواقعه النفسيّ ومستجيبة لتصوّر وضعه المتكلّم في الحسبان، وتخيّله تخيّلاً مستنداً إلى أسباب خاصة بدت له «حال».

ونسوق لك ههنا صوراً من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه :

أولاً - وضع المضمَر موضع المظهَر :

يؤتي بالمسند إليه مضمراً وظاهر حاله يستدعي الإظهار لأمور ، منها :

1 - الإيضاح بعد الإبهام أو التّفصيل بعد الإجمال، وذلك في باب «نعم وبئس»، كقولك : «نعم فتاةً هندُ»، حيث جئتَ بالمسند إليه (فاعل نعم) ضميراً مستتراً في «نعم». وكان مقتضى الظاهر أن تقول : «نعمَ الفتاةُ هندُ» حيث تأتي بالمسند إليه (فاعل نعم) اسماً ظاهراً «الفتاة»، ولا تأتي به ضميراً لعدم تقدّم مايفسّره. لكنّك خالفت الظاهر وأتيتَ بالمسند إليه مضمراً في موضع الإظهار، لغرض الإيضاح بعد الإبهام. ومثاله في «بئس» قولك :«بئسَ فاتناً إبليسُ». وواضحٌ أنّ هذا يصحّ على رأي من يجعل المخصوص بالمدح أو الذمّ مبتدأً محذوف الخبر، أو خبراً محذوف المبتدأ .

2 - تمكين مابعد الضمير في نفس السامع لتشوّقه إليه، وذلك في ضمير الشّأن، كقوله سبحانه : «قل هو اللهُ أحد» . جيء بالمسند إليه «هو» مضمراً موضع المظهر لتمكينه في نفس السّامع بعد أن تشوّق إليه . لأنّ «الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون له عائد يعود عليه

يصيِّرها إلى حالة من الغموض والإبهام لا قرار لها معها فتتشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير ، فإذا جاءت الجملة المفسِّرة تمكّنَ معناها ووقع في القلب موقع القبول ».

وكقوله سبحانه : «فإنّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور». ومنه في الشعر قول أبي خِراش الهُذَليِّ يذكر عُروة أخاه وخِراشاً ابنه، وكانا قد أُسِرا فضلّ ونجا خراش :

حَمِدتُ إلهي بعدَ عروةَ إذْ نجا ... خِراشٌ، وبعضُ الشرِّ أهونُ مِن بعضِ
فوالله ِ ماإنسى قتيلاً رُزِيتهُ ... بجانب توسي مامشيتُ على الأرضِ
على أنّها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها ... نوكّلُ بالأدنى وإن جلَّ مايمضي

وقول أبي تمام :

على أنّها الأيامُ قد صِرْن كلُّها ... عجائبُ حتى ليس فيها عجائبُ

قال السكاكي في بيان مبعث التّمكين في أمثال هذه الصور : «وذلك أنّ السّامع متى لم يفهم من الضّمير معنىً بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون فيتمكن المسموع بعده فضلَ تمكُّنٍ في ذهنه » .

3 – ادّعاء أنّ مرجع الضمير دائم الحضور في الذّهن، كقولك : «أقبل وعليه الهيبة والوقار». ومنه قول الشاعر :

أبتِ الوِصالَ مخافةَ الرّقباءِ ... وأتتْكَ تحتَ مدارعِ الظّلماءِ

البيت مطلع قصيدة، وجاء الشاعر بالمسند إليه (فاعل أبت) ضميراً مستتراً لم يتقدّم مرجعه ولم يُذكر له مفسرٌ، اعتماداً على وضوح المراد منه وادّعاء أنّه معروفٌ حاضرٌ في القلب، لا يخطر بالبال سواه

ويُسمى هذا العدول إلى الإضمار في مقام الإظهار

ثانياً - وضع المظهر موضع المضمر :

قد يُعكس الوضع السابق فيؤتي بالمُظهر موضع المضمر . والمظهر هنا حالان :

1- أن يكون اسم إشارة 2 - أن يكون اسماً ظاهراً غير اسم إشارة.

وينبغي أن تكون على ذكر من أنّ البلغاء يأتون بالمسند إليه اسم إشارة وحقه أن يأتي ضميراً لأغراضٍ، أهمّها :

1 - كمال العناية بتمييز المسند إليه لاختصاصه بحكم بديع. كقول أحمد بن يحيى ابن إسحاق الراونديّ :

كمْ عاقلٍ عاقلٍ أعيتْ مذاهبُهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مَرْزُوقَا

هذا الذي تركَ الأوهامَ حائرة وصيَّرَ العالِمَ النحريرَ زنديقا

المعنى : ماأكثر ماتجد من العقلاء الكاملي العقول صعبت عليهم طرق معاشهم، وماأكثر ماتجد من الجهّال الغارقين في الجهل فاض عليهم الرزقُ من كلّ ناحية . وهذا الحرمان للعاقل والارتزاق للجاهل هو الذي ترك العقول حائرة، وجعل العالم المتقنَ كافراً نافياً لصانع الكون العَدْلِ الحكيم .

والشاهد فيه مجيء المسند إليه «هذا» اسمَ إشارة مشاراً به إلى الحكم السابق غير المحسوس (حرمان العاقل وارتزاق الجاهل). وكان مقتضى الظاهر أن يؤتي بالضمير مكان اسم الإشارة؛ لتقدّم مرجعه فيقال «هما» مثلاً، لكنّه عُدِل عن ذلك وجيء باسم الإشارة لكمال

العناية بتمييز المسند إليه؛ ليُرى السّامعين أنّ هذا الشّيء المتميّز المتعيّن هو الذي اختصّ بهذا الحكم البديع: جعلُ الأوهام حائرةً والعالم النحرير زنديقاً .

2 - التهكُّم بالسّامع، كما لو أنّ كفيفاً سأل : «مَنْ رماني بالحجر ؟» - فقيل له : «هذا الذي رماكَ بالحجر». مقتضى الظاهر هنا أن يؤتي بالمسند إليه المبتدأ ضميراً فيقال : «هو الذي رماك بالحجر»؛ لتقدّم مرجع الضمير في سؤال الكفيف. لكنّ المتكلّم أخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ لقصد السّخرية، والتهكُّم بالمخاطب؛ إذ نزّله منزلة البصير استهزاء به. وله صورة أخرى، كما لو سأل بصير : «مَنْ رماني بالحجر ؟» فأجيب : «هذا الذي رماكَ بالحجر» ، مع عدم وجود مشار إليه أصلاً .

3 - التنبيه على كمال بلاده السامع بأنه لا يدرك غير المحسوس؛ كأن يسأل سائل : «من شاعرُ الفلاسفة ؟» - فيجاب : ذلكَ أبو العلاء المعرّي». مقتضى الظاهر أن يؤتي بالمسند إليه ضميراً لتقدّم مرجعه ضمن السؤال فيقال : «هو أبو العلاء»، لكنّ المجيب خالف مقرضى الظاهر تنبيهاً على أنّ مخاطبة بليدٌ تمُماً، ولا يفهم إلا بالإشارة الحسيّة؛ لأنّ ذي اسم الإشارة إيماءً إلى أنّ السامع لا يدعك إلاّ المحسوس، ويعني هذا بلادته التامّة.

4 - التنبيه على كمال فطانته بأنّ غير المحسوس عنده كالمحسوس؛ كأن يأتي ذكرُ مسألة فكرية غامضة فيقول الأب لابنه الذي يتوسّم فيه الذكاء : «هذه مسألةٌ واضحة». مقتضى الظّاهر أن يأتي بالمسند إليه

ضميراً فيقول : «هي مسألة واضحة»ك لتقدّم مرجع الضمير في الحديث السابق . لكن الأب أخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وأتى بالمسند إليه اسم إشارة تنبيهاً على كمال فطانة ابنه، وأنّ المعقول عنده كالمحسوس المشاهد؛ لأن في استعمال اسم الإشارة الذي أصله المحسوس في المعنى الغامض إيماءً إلى أنّ السامع لذكائه صارت المعقولات لديه كالمحسوسات .

5 – ادّعاء كمال ظهور المسند إليه حتى كأنّ المعقول – عند المتكلم – ممّا يُحَسُّ بحاسّة البصر ؛ كأن يجري الحديث في مجلس عن نظرية فلسفيّة عميقة ، فيقول أحدهم : «هذه أوضحُ من الشّمس». فمقتضى ظاهر الحال أن يؤتي بالمسند إليه ضميراً فيقال «هي»؛ لتقدّم مرجعه في تضاعيف الحديث السابق، لكنّ المتكلّم خرج بالمسند إليه على خلاف مقضتى الظاهر ادّعاءً منه أنّ هذا المسند إليه ظاهرٌ عنده، وأنّه قد بلغ من الوضوح درجةَ المُحَسّ المُبصَر بحاسّة البصر ، الذي يشار إليه باسم الإشارة .

ويؤتي بالمسند إليه اسماً ظاهراً غير اسم الإشارة في موضع المضمر لأغراضٍ، أهمُّها :

1 – تمكين المسند إليه في ذهن السامع، كقوله سبحانه : «قلْ هو اللّهُ أحدٌ اللّهُ الصّمَدُ». ففي قوله سبحانه " «اللّهُ الصّمدُ» جيء بالمسند إليه اسماً ظاهراً «اللّهُ»، ومقتضى ظاهر الحال أن يؤتى به ضميراً لتقدّم مرجعه، ولكن وضع المظهر «اللّهُ» موضع المضمر «هو» لتمكين المسند إليه في ذهن السامع؛ لأنّ «لِلَفْظ الجلالة بمدلوله الكريم وقعاً عظيماً

في القلوب، والمراد تمكين الألوهية، وإشاعة هيمنتها في الضمائر».
وجليّ أنّ وقوع الاسم الظاهر في غير موقعه يحدث في نفس المتلقي استغراباً وزيادة انتباه وتيقّظ في الذهن، ثمّ إنّ المظهر يتضمّن أثارةً من التفخيم والتعظيم والتأكيد؛ لما فيه من وضوح الدلالة وقطع الاشتراك.

ومنه في الذكر الحكيم أيضاً قوله سبحانه : «الحاقّةُ ما الحاقّةُ» و«القارعةُ ما القارعةُ» .

ومنه في أشعار العرب قول الشاعر :

وإنْ طُرّةٌ داقتْكَ فانظرْ فربَّما ... أمرَّ مذاقُ العُودِ والعُودُ أخضرُ

في موضع «وهو أخضر» .

وقول المتنبي :

بِمَنْ نضربُ الأمثالَ أمْ نقيسهُ ... إليكَ وأهلُ الدّهرِ دونَكَ والدَّهْرُ

في موضع «وهو» .

2 - تخويف السامع وتقوية داعي إطاعته وامتثاله، كأن يقول الأمير لبعض حاشيته «حاكِمُ البلدِ يأمُرك بكذا»، بدلاً من «أنا آمُرك بكذا». خالف مقتضى الظاهر وأتى بالمظهر «حاكم البلد» موضع المضمر لقصد تخويف السامع وتقوية داعي إطاعته وامتثاله؛ لما في المظهر «حاكم البلد» من الإيحاء بالبطش والقوة والفتك والإهلاك .

3 – الاستعطاف، أي طلب العفو والرحمة، كقول الشاعر

إلهي، عبدُكَ العاصي أتاكا		مُقِـرّاً بالذّنوبِ وقد دعـاكا
فإن تغفـرْ فأنتَ لذاكَ أهـلٌ		وإن تطـردْ فمنْ يرحـمْ سِواكا

قال : «عبدُك العاصي أتاكَ» مكان «أنا العاصي أتيتُك»، فأخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ لما في قوله «عبدك» من التخضّع واستحقاق الرحمة وترقّب الشفقة .

4 – التلذّذ بذكره، كلفظ «سلمى» في قول الأخطل :

سقىَ اللّهُ منهُ دارَ سلّمى بـرَيّةٍ		على أنّ سلمىَ ليس يشفىَ سقيمُها
ولو حمّلتْني السّرَّ سلمىَ حملتُهُ		وهل يحملُ لأسـرارَ إلاّ كـتومُها
منَ العـربيّات البوادي، ولم تكنْ		تلوِّحُها حُمّـى دمـشـقَ ومُومُهـا

ذكر «سلمى» مرّتين باسمها الصريح في موضع حقُّه الإضمار؛ لتقدّم المرجع في صدر البيت الأول، وماذاك إلاّ للتلذّذ بجريان اسمها على لسانه. وهذا من المعاني المتعاورة في شعرنا العربيّ، حتى إنّ الشعراء يحبّون عذلَ العذّال ولوم اللائمين حبّاً لذكر المحبوبة .

ويسمّىَ هذا العدول : الإظهار في مقام الإضمار .

تخريج الكلام علي خلاف مقتضي الظاهر في غير المسند إليه

يأتي تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في غير المسند إليه، وإليك الحديث عن بعض صوره :

أولاً - الالتفات :

الالتفات - لغة - اللّيّ والصرْف والتحوّل، تقول : لفَتَه يلفِتُه إذا أدار عنقه من اليمين إلى الشمال أو العكس .

وهو في اصطلاح جمهرة البلاغيين : «التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثّلاث التي هى التكلُّم والخطاب والغَيْبة، بعد التعبير عن ذلك المعنى بطريق آخر من الطرق الثلاث، بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف مايقتضيه الظاهر ويترقبه السامع».

وينبّه ابن الأثير على علاقة التسمية بموضوعها فيقول : «وحقيقتهُ مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يُقبل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا .. وكذلك يكون هذا النّوع من الكلام خاصّة؛ لأنه يُنتَقل فيه من صيغة إلى صيغة كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب..». ومثاله قوله سبحانه : «ربّنا إنّكَ جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنّ اللّهَ لا يُخلفُ الميعاد». عبّروا عن الباريء سبحانه أولاً بطريق الخطاب «إنّكَ»، ثمّ عبّروا ثانية بطريق الغيبة «إنّ اللّهَ» على خلاف مايقتضيه منهم ظاهر الحال من استمرار الخطاب كأن يقال : «إنك لا تخلف الميعاد»، وهو ماينتظره السامع ويترقّبه . وهذا التعبير عن المعنى بطريق الغيبة بعد التعبير عنه بطريق الخطاب يسمّى «التفاتاً» .

ويشترط جمهور البلاغيين في الإلتفات أمرين

1 – وجود تعبيرين يستخدم في ثانيهما طريق مغاير لطريق الأول

2 – مخالفة التعبير الثاني مقتضى ظاهر الكلام ومترقّب السامع .

صــــور الالتفــــات :

1 – من التكلّم إلى الخطاب ، كقوله سبحانه في حكاية مقالة الرجل المؤمن الذي كان يدعو قومه من أهل أنطاكية : «ومـاليَ لا أعبدُ الّذي فَطَرني وإليـه تُرجَعُون» عـبّر عن المعنى أولاً بطريق التكلّم : «ومـاليَ لا أعـبدُ الذي فطرنـي»، ثمّ عـبّر عنه ثانيـاً بطريق الخطاب فـقـال : «وإليـهِ تُرجعونَ»، حيث خالف مقتضى الظاهر الذي يستدعي القول : «وإليه أرجِعُ» .

2 – من التكلّم إلى الغيبة، كقوله سبحانه : «إنّا أعطيناكَ الكوثَر فصلِّ لربِّكَ وانحـرْ». فـقـوله : «إنّا أعطيناكَ» تكلّم، وقـوله «لربِّكَ» غـيـبـة، لأنّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، والأصل «فصلِّ لنا»، ففيه التفاتٌ من التكلّم إلى الغيبة. ويقول البلاغيون : «وبلاغة الالتفات في الآية تأتي من أنّ في لفظ الرّبّ حـثًّا على فـعل المأمـور به، لأنّه مَنْ غـيـرُ ربِّك يستحق العبادة. وفيه إزالة الاحتمال أيضا؛ لأن قوله : «إنّا أعطيناك الكوثَرَ» ليس صـريحـاً في إفادة الإعطاء من الله ، وأيضـاً كلمـة «إنّا» تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظّم نفسه ، فلمّا التفت بقوله : «فصلّ لربِّكَ» زال هذان الاحتمالان» .

3 – من الخطاب إلى التكلّم، كقوله سبحانه : «واستغفِروا ربَّكُمْ ثمّ توبُوا

إليه إنَّ ربِّي رحيمٌ ودودٌ». عبّر عن الذّات أولاً بطريق الخطاب فقال: «واستغفروا ربَّكُمْ ثمّ توبُوا إليه»، ثمّ عبّر عنها ثانياً بطريق التكلّم فقال: «إنَّ ربّي رحيمٌ ودود».

ومنه في الشعر قول علقمة بن عبدة الفحل:

طحا بكَ قلبٌ في الحِسَان طروبُ   بُعَيدَ الشباب عَصْرَ حانَ مشيبُ
يكلّفني ليلىَ وقدْ شطَّ ولْيُهَا   وعادتْ عوادٍ بيننّا وخطوبُ

طحا بك: ذهب بك وأتلفك. شطّ وليُها: بُعد قربُها. عبّر أول الأمر عن نفسه بطريق الخطاب فقال: «طحا بكَ»، ثمّ التفت إلى التكلّم فقال: «يكلّفني»، ومقتضى الظاهر أن يقول: «يكلّفك». وتتراءى جمالية الالتفات هنا في أنّ التكليف بليلى مقطعٌ مهمّ من مقاطع المعنى وجزء أساسيّ من لحمته» وحقّه أن يقع في نفس الشّاعر وقوعاً واضحاً لا مواربة فيه، وبهذا يقوى الكلام.

4 – من الخطاب إلى الغيبة، كقوله سبحانه: «إنَّ هذه أمّتَكُمْ أمّةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاعبدون. وتقطّعُوا أمرَهُمْ بينهُمْ كلٌّ إلينا راجعونَ». جاء الكلام على طريق الخطاب في قوله: «أمتَكُمْ .. ربُّكُمْ .. باعبدون»، ثمّ عبّر عنهم بطريق الغيبة في قوله: «وتقطّعُوا أمرَهم بينهم». قال الزمخشري في سرّ هذا الالتفات: «كأنّه ينعي عليهم ماأفسدوه إلى آخرين ويقبّح عندهم فعلَهم: ألا ترونَ إلى عظيم ماارتكب هؤلاء في دين الله».

5 – من الغيبة إلى التكلّم، كقوله سبحانه: «واللّهُ الذي أرسلَ الرياحَ فتثير

سحاباً فسقْناه». مقتضى ظاهر القول «فساقه » وكقوله سبحانه «وهو الذي أرسلَ الرّياحَ بُشرا بينَ يديْ رحمتِهِ وأنزلْنا من السّماءِ ماءً طَهُورا»، المقتضى «وأنزلَ». وكقوله سبحانه . «سبحانَ الذي أسرى بعبدهِ ليلاً .. لنريَهُ مِنْ آياتِنا»، والمقتضى «ليُرِيَهُ» .

6 – من الغيبة إلى الخطاب، كقوله سبحانه : «مالكِ يومِ الدّينِ إيّاكَ نعبُدُ»، عبّر عن الذات أولاً بطريق الغيبة «مالك يوم الدين»، فالتفت إلى الخطاب فقال : «إيّاكَ نعبُدُ» .

وعن جماليّة الالتفات يقول السكاكي :

«والعربُ يستكثرون منه ويرونَ الكلامَ إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخلَ في القبول عند السامع وأحسنَ نظريةً لنشاطهِ وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياءُ بذلك، أليس قِرى الأضياف سجيّتَهم ونَحْرُ العِشار للضيف دأبَهم وهجّيراهم لا مزّقتْ أيدي الأدوار لهم أديماً ولا أباحت لهم حريماً، أفتراهم يُحسنونَ قِرى الأشباح فيخالفون بين لونٍ ولونٍ وطعْمٍ وطعم، ولا يُحسنون قِرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوبٍ وأسلوبٍ وإيرادٍ وإيرادٍ».

ثانياً – أسلوب الحكيم :

أسلوب الحكيم تسمية جاء بها السكاكي، ويسمّيه عبد القاهر «المغالطة». ويراد به : «أن يُتلقّى المخاطب بغير مايترقّبه، ويُحمَل كلامه على غير مراده؛ صرفاً لرأيه إلى ماهو أولى به. أو يُلقّى السائل بغير مطلوبه، تنبيهاً على أنه أوْلى به» .

وقد عبَّر أحد الشعراء عن سلوكه هذه الطريقة في إجابة زوجه التي أتته تشكو صعوبة إعداد الطعام للضيفان إذ رأتهم يتقاطرون على منزله، فقال مفتخراً :

أتتْ تشتكي عندي مزاولة القِرى وقد رأتِ الضِّيفانَ ينحونَ منزلي
فقلت – كأنّي ماسمعتُ كلامها–: هُمُ الضيفُ جِدِّي في قِراهُمْ وعجِّلي

ويتبين من التعريف أن أسلوب الحكيم ضربان :

1 – تلقِّي المتكلِّم المخاطب بغير مايترقَّب؛ أي يحمل الكلام الصادر عنه على غير ماقصد، تنبيهاً لهذا المخاطب على أنّ ذلك «الغير» هو الأوْلى بالقصد والإرادة، وكأنه يقول له : خيرٌ لك أن تقصد كذا وكذا لا ماأنتَ تريده. ويوضح البلاغيون هذا الضرب من أسلوب الحكيم بما حدث من ولَد القبعثرى للحجاج؛ إذ قال له الحجاج متوعّداً إيّاه : «لأحملنّك على الأدهم»، يعني الحجاج القيدَ، إذ من أسمائه الأدهم. فقال ولَدُ القبعثرى : «مثلُ الأمير يحمل على الأدهم والأشهب»، فحوّل وعيد الحجاج إلى وعد وتلقاه بغير مايترقب، حيث حوّل المراد من الأدهم (وهو عند الحجاج القيد الذي سيقيّده به) إلى الفرس الأدهم، وهو الذي غلب سواده، وضمّ إليه وصفاً آخر للفرس وهو «الأشهب»، أي الذي غلب بياضه على سواده. وهكذا فاجأ ابن القبعثرى الحجاج وحمل كلامه على غير مايريد، فنبهّه على أنّ الأولى به، وهو الأمير ذو السلطان والغلبة وبسطة اليد، أن يعطي ويكرم لا 'ن يقيّد ويسجن. ويقال في تتمّة القصة أن الحجاج عدل عن العقوبه إلى المثوبة. ويقول السكاكي معلّقاً على هذا الضرب من الأساليب ومصوّراً جماليته

وخلابته «إنّ هذا الأسلوب لربما صادف المقامة فحرّك من نشاط السامع ماسلبه حكم الوقور، وأبرزه في معرض المسحور، وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجي {يريد ابن القبعثرى} وسلّ سخيمته حتى آثر أن يُحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب ؟».

2 – تلقيّ السائل بغير مايتطلّب؛ بتنزيل سؤاله منزلة غير ذلك السؤال، تنبيهاً للسائل على أن ذلك «الغير» هو الأَوْلى بحاله أو المهمّ له. ومنه قوله سبحانه : «يسألونَكَ عن الأهلّةِ قلْ هي مواقيتُ للنّاس والحجّ». سأل الصّحابة المصطفى عليه الصّلاة والسّلام عن سبب اختلاف القمر في زيادة النّور ونقصانه، فأجيبوا ببيان الغرض من هذا الاختلاف؛ وهو أنّ الأهلّة بهذا التغيرُّ تمكنّ الناس من معرفة الوقت الذي يتوقف عليه تدبيرهم شؤونهم في الزراعة والتجارة والدين وكذا في مواقيت الصّوم والحجّ ومالإلى ذلك. وكان مقتضى الظّاهر أن يجابوا ببيان السّبب، فأجيبوا ببيان الحكمة والغرض . وفي هذا مافيه من التربية الربانية التي تعلّم الخلق مايهمهّم وتصرفهم عمّا لا شأن لهم به ؛ ألم يقل المصطفى عليه الصلاة والسلام : «أنّ من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»، ثم ألم يقل باريء السموات والأرض «ياأيُّها الذينَ آمنُوا لا تسألوا عنْ أشياءَ إنْ تُبدَ لكُمْ تَسُؤْكُمْ ؟».

ثالثاً – القَلْبُ :

ويراد به أن يُجعَل أحدُ أجزاء الكلام مكانَ الآخر، والآخرُ مكانَه مع إثبات حكم كلٍّ للآخر . والقلبُ ضربان :

1 – مايوجبه تصحيحُ حكمٍ لفظيّ والمعنى صحيحٌ من دونه، وذلك كقول

القطاميّ :

قِفي قبلَ التفـرّقِ يا ضُبـاعا ولا يـكُ موقفٌ منكِ الوداعا

لما جاء بـ «موقف» نكرةً وهو في موضع المبتدأ وبـ «الوداع» معرفةً وهو في موضع الخبر جُعل هذا من باب القَلْب؛ إذا التقدير : «ولا يكُ الوداعُ موقفاً منكِ»؛ لأن الأصل أن تكون المعرفة مبتدأ والنكرة خبراً .

2 – مايوجبه تصحيح المعنى، كقولهم : «عرضتُ الناقةَ على الحوضِ». مقتضى الظاهر أن يقال : «عرضتُ الحوضَ على الناقة»؛ لأنّ المعروض عليه يتحتم أن يكون ذا شعور لكي يقبل مايعرض عليه أو يرفضه، ولكنّه قلب هذا الوضع على خلاف مقتضى الظاهر وحلّ كلٌّ من الجزءين محلّ الآخر وأُعطي حكمه . ومبعث هذا القلب مخالفة العادة؛ إذ العادة أن يقدّم المعروض للمعروض عليه، أمّا هـهنا فتخالف هذه العادة ويؤتي بالناقة إلى الحوض، وهو ثابت في مكانه، ولذلك نزل أحدهما منزلة الآخر. ومن هذا القبيل قولهم : «أدخلت الخاتم في الإصبع» و«أدخلتُ القَلَنْسُوَةَ في الرأس». في حين أنّ مقتضى الظاهر أن يقال : «أدخلتُ الإصبع في الخاتم» و«أدخلتُ الرأسَ في القلنسوة».

مواقف البلاغيين من القلب :

للبلاغيين في قبول القلب ورفضه ثلاثة مواقف :

1 – القبول المطلق – وهو موقف السكّاكي الذي قال : «إنّه مما يورث الكلام ملاحةً، ووجهُه أنّ قَلْبَ الكلام يحوجُ السامعَ إلى أن يتنبّه لاستخراج أصل الكلام». ويعني هذا أنّ قلب الكلام يستدعي من

المتلقي تأمّل العبارة ومحاولة إدراك الوضع الطبيعي لها، فإذا تأتّى له ذلك أحسّ بشيء من اللذّة المتـأتيّة من إدراك انزياح العبـارة عن أصلها، ولذّة التعرّف لذةٌ عظيمة .

2 – الرفض المطلق – وهو موقف بعض البلاغيين غير السكّاكي، وقد تراءى لهؤلاء أنّ مـاجاء منه من نماذج لا يعدو أن يكون صوراً من التقديم والتأخير .

3 – القبول المشروط بتحقيق جماليّة تعبيريّة ودلاليّة – وهو رأي جمهرة علماء البلاغة الذين قالوا إنّ القلب غير جدير بأن يدخل ميدان البلاغة إلا عندما يتضمّن اعتباراً لطيفاً ومغزى طريفاً زائداً على مجرّد الجماليّة المتأتية من تعرّف الأصل وإدراك التغيّر الحاصل .

ومن القلب المقبول قوله سبحانه : «ويومَ يُعْرَضُ الذين كفروا على النّارِ». يقول علماء البلاغة إنّ الأصل هو : «ويومَ تُعرَضُ النارُ على الذين كفروا »؛ لأنّ المعروض عليه ينبغي أن يكون ذا إدراكٍ يميِّز به ويختار على أساسه. والاعتبار اللطيف أو الغرض البلاغيّ الذي تحقّقه صياغة الآية الكريمة في هذه الصورة هو الإشارة إلى أنّ الكفّار أذلاء مقهورون يُفْرَضُ عليهم العذاب فرضاً دون إعطائهم حق الاختيار، وأنّ النار هي المتصرّفة فيهم، فهم ريشةٌ في مهبّ الريح لا وزن لهم .

ومنه في الشعر قول رؤبة بن العجّاج :

ومَهْمَةٍ مغبرّةٍ أرجاؤُهُ ... كأنَّ لونَ أرضِهِ سماؤُه

المَهْمَه : المفازة – مغبرّة : مملوءة بالغبرة – الأرجاء : جمع رَجًا بمعنى الأطراف والنواحي.

والمعنى : أنّ الغبار شمل نواحي هذه المفازة وأحاط بها من كلّ جانب لدرجة أنّ لون سمائها صار كلون أرضها . فقد أراد الشاعر أن يقول : «كأنّ لونَ سمائه لغبرتها لونُ أرضه»، لكنه خالف الظاهر وجعل المشبَّه به مشبَّهاً، والمشبَّهَ مشبَّهاً به، ويمسّى فعله هذا «القلب». والاعتبار اللطيف أو العرض البلاغي لهذا القلب هو المبالغة في وصف لون السماء بالغبرة الشديدة .

ومنه أيضاً قول أبي تمّام يصف قلم ممدوحه :

لُعابُ الأفاعي القاتِلاتِ لُعابُهُ وأرْيُ الجَنَى اشتارتْهُ أيْدٍ عواسِلُ

الأرْي : العَسَل – اشتارته : جنتْه – وعواسل : جمع عاسِلة وهي المشتارة للعسل الجانية له .

قال الشاعر : «لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُهُ»، وكان مقتضى الظّاهر أن يقول : «كأنّ لعابَه لعابُ الأفاعي»؛ لأنه أراد تشبيه لعاب قلمه بلعاب الأفاعي القاتلات في شدة وقع الألم، ولكنّه خالف مقتضى الظاهر وقلب؛ لقصد المبالغة في تصوير شدة وقع الألم .

قال صاحب «الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة» : «ظنّ جماعةٌ منهم السّكاكي أنّ مطلق القلب من مسائل هذا العلم وأنّه مقبول . والحقُّ أنه ليس كذلك، لخلّوه من البلاغة، اللهّم إلاّ أن يكون قلب تشبيه للمبالغة .. ولا يوجد في القرآن .. وإن جاء في القرآن مايوهم القلْبَ، يجب تأويله، كقوله تعالى : «وكمْ منْ قريةٍ أهلكناها فجاءَها بأسُنا

وأراد   أردنا إهلاكها »

رابعـاً : التّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

تعمد الأساليب البليغة إلى مخالفة مقتضى الظاهر في ميدان استخدام الأفعال، فتعبّر عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه، وأنّه في حكم المنقضي الذي لا مدافعة فيه، ووراء ذلك أيضاً إشارات بلاغية تأنسها الأذواق الصافية وتحسّسها المدارك القوية . وإليك أمثلةٌ لذلك :

قال سبحانه : «ويومَ يُنفَخُ في الصُّور فَفَزِعَ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرضِ». قال سبحانه « فَفَزِعَ» والمراد «فيفزعُ»؛ لأنّ الحدث لما يقعْ بعدُ، ولكنه عبَّر عنه بالماضي إشارةً إلى تحقق وقوعه، فهو لا محالة واقع ليس له من دافع . ويؤدي استعمالُ الماضي هنا وظيفةً تربوية مهمّة، تتصل بمعالجة أشدّ أدواء الإنسان، وهو داء عدم المبالاة بالأمر المستقبليّ، وهكذا يأتي الماضي ليطوي الزمان وليضع الإنسان وجهاً لوجه أمام هذا الذي ينتظره فور النَّفْخ في الصور .

وقال سبحانه : «أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه»، ومقتضى الظّاهر «يأتي»، لكنّه لمّا كان آتياً حتماً مقضياً عُدَّ كأنّه قد «أتى». والتعبير بالماضي هنا يحرّر الإنسان من الوهم ويعيد إليه مشكلته يستدبرّها ويواجهها قبل أن يعجز عن ذلك .

وتأمل قوله سبحانه : «وجاءتْ سَكْرَةُ الموت بالحقّ ذلك ماكنتَ منه تحيد ، ونُفِخَ في الصُّورِ ذلكَ يومُ الوعيد ، وجاءتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد، لقدْ كنتَ في غفلةٍ منْ هذا فكشفْنا عنكَ غطاءَكَ فبَصَرُكَ اليومَ حديد ، وقال قرينهُ هذا مالديّ عتيد، ألْقِيا في جهنّمَ كلَّ كفّارٍ عنيد»

– *التعبير عن المستقبل باسم الفاعل أو اسم المفعول .*

على غرار التّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي التّعبير عن المستقبل باسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لقصد التنبيه على تحقّق الوقوع :

فالأوّل كقوله سبحانه : «وإنّ الدينَ لواقِعٌ»، ومقتضى الظاهر أن يقال «يَقَعُ»؛ لأنّ وقوع الدين (الجزاء) يحدث في المستقبل، لكنّه خولف مقتضى الظاهر معبِّر عن المستقبل باسم الفاعل؛ تنبيهاً على تحقق الوقوع .

والثاني كقوله سبحانه : «ذلكَ يومٌ مجموعٌ لَهُ الناسُ»، ومقتضى الظاهر «يجمع»؛ لأنّ الجمع سيحصل يوم القيامة، لكنّه خولف مقتضى الظاهر فعبِّر عن المستقبل باسم المفعول؛ تنبيهاً على تحقّق وقوعه .

خامساً – التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل :

تعبِّر الأساليب البليغة عن الماضي بصيغة المستقبل؛ لغرض استحضار الصورة العجيبة. وهذا كثير في البيان القرآني، ومنه قوله سبحانه في شأن داود عليه السّلام : «إنّا سخّرنا الجبالَ مَعَهُ يسبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشراقِ». قال سبحانه «يسبِّحن» ومقتضى السياق أن يقال : «مسبِّحات»؛ لأنّ التسبيح قد وقع في عهد داود عليه السلام، لكنّ غرابة صدور التسبيح عن الجبال ودلالة ذلك على قدرة العزيز استدعت التعبير عن ذلك بصيغة المضارع التي نقلت الحدث من الماضي البعيد وعرضته في مقام المشاهدة؛ ليُستَيْقَن منه ولا يناقش فيه . قال الزمخشريّ : «ما اختير «يُسَبِّحْنَ» على «مسبِّحات» إلاّ لذلك، و . . الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأنّ السامع حاضرٌ تلك الحال يراها تسبيح». ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : «واللّهُ الذي أرسلَ

الرّياحَ فتُثيرُ سحاباً»، بمعنى «أثارتْ». وقوله سبحانه : «واتّبعوا ماتتلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ»، على معنى «ماتلتْ».

سادساً – مخالفة السّياق في صيغ الأفعال :

يلحظ متتبِّعُ خواصّ التّراكيب البليغة مخالفةً مقصودة لمقتضى سياق الكلام في الأفعال خاصّة. وذلك من الأمور الملحوظة تماماً في البيان العالي في كتاب الله تعالى. والحقّ أنّ وراء ذلك مقاصد بلاغية على قدر كبير من الأهمية، ولا يتأتى إدراكها إلاّ لمن أوتي حظًا طيباً من القدرة على لمح التوافق بين الكيفية المخصوصة للعبارة والمقام الذي ترد فيه ، وقليلٌ ماهم. يقول ابن الأثير : «واعلمْ أيّها المتوشّح لمعرفة علم البيان أنّ العدولَ عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلاّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كلّ كلام فإنّه من أشكلِ ضروب علم البيان وأدقّها فهماً وأغمضها طريقاً» .

وقد تتمثل مخالفة السّياق في العدول عن المضارع إلى الأمر، كقوله سبحانه : «قالوا ياهودُ ماجئتنا ببيِّنةٍ ومانحنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَنْ قولكَ ومانحنُ لكَ بمؤمنين، إنْ نقولُ إلاّ اعتراك بعضُ آلِهَتِنا بسوءٍ قال أُشهِدُ اللهَ واشهَدُوا أنّي بَرِيءٌ ممّا تُشركونَ». قال «أُشْهِدُ اللّه» فاقتضى السياق أن يقول إثرَ ذلك «وأُشهِدُكُمْ»؛ ليحصل التوافق بين الصّيغتين في المضارعة، لكنّه عدل عن ذلك إلى الأمر فقال : «واشْهَدُوا»؛ لأنّ في أمرهم بالشهادة ببراءته من دينهم استخفافاً بهم وبدينهم وتحدّياً مغيظا . ويتراءى لنا بونٌ شاسع بين مَنْ تؤثر أن يشهد عليك وهو غائب فتقول : «أُشْهِد وبين من

يحضرك فتتوجَّه إليه وتأمره بأن يشهد فتقول : «اشهَدْ» . وقد قال الزّمخشريّ في هذا الشأن : «فإن قلتَ هلاّ قيل : أُشهِدُ اللّهَ وأُشهِدُكمْ ؟ – قلتُ : لأن إشهاد الله على البراءة من الشّرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقدة؛ وأمّا إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بدينهم ودلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف مابينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما تقول لمن يبس الذي بينه وبينك : اشهَدْ على أنيّ لا أحبُّك» .

ومن ذلك أيضاً العدول عن المصدر إلى الأمر، كما في قوله سبحانه : «قُلْ أمَرَ ربّي بالقِسْطِ وأقيمُوا وجوهَكُمْ عن كلّ مسجدٍ وادعُوهُ مخلصِينَ له الدّينَ».مقتضى الظاهر أن يقال : «أمر ربّي بالقِسْطِ وبإقامةِ وجوهِكُمْ»، ولكنّه عدل عن ذلك إلى الأمر؛ لأنّه من جنس الطلب وهو أدعى إلى الإيقاظ وإثارةُ الاهتمام بالمطلوب ووجوب تنفيذه؛ ففي توجيه الأمر إليهم بإقامة الصلاة دليل على مزيد العناية بها .

أسئلة وإجاباتها حول ذكر المسند إليه وحذفه (1)

– حدّد أسباب ذكر المسند إليه وحذفه فيما يأتي :

1 – وقد علم القبائلُ مِنْ مَعَدٍّ إذ قبَبٌ بأبطحها بُنِينا

بأنّا المطعمون إذا قدرنا وأنّا المهلكونَ إذا ابتُلينا

2 – قال المصطفى عليه الصّلاة والسّلام : «أنا النبيُّ لا أكذب

أنا ابنُ عبدِ المطَّلبْ»

3 – مليكُ البلاد يأمر بالعدول والإنصاف .

4 – قال سبحانه : «وإنّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بِمَنْ في الأرض أمْ أراد بهم ربُّهُمْ رَشَداً» .

5 – رِدّةٌ ولا أبا بكرٍ لها .

6 – سئل مريض : كيف حالُك ؟ – فقال : لا تسرّ .

7 – ولدُكَ يكلّم الكبار بصوتٍ عالٍ .

8 – سئل الأستاذ : ماهذا الذي تحمل ؟ فقال : هي محفظتي ، أضع فيها كتبي، وهي خفيفة الوزن، سهلة الحمل .

9 – عاد إلى جادة الصواب وأقلع عن تفاهاته .

10– أمير شعراء العصر الحديث (تريد شوقي مثلاً) .

– *الإجـــابات* :

1 – وأنّا المهلكون : أعيد ذكر المسند إليه «نا»؛ لبسط الكلام في معرض الفخر .

2 – أنا ابن عبد المطلب : أعيد ذكرالمسند إليه؛ لأنّ المقام للافتخار .

3 – مليك البلاد يأمر .. أذكر المسند إليه؛ للتهويل وبثّ الرعب .

4 – «أم أراد بهم ربُّهم رَشَدا» : ذكر المسند إليه «ربُّهم»ك للتبرّك بذكره .

5 – ردّةٌ ولا أبا بكرٍ لها : حذف المسند إليه «هي»؛ لاتباع الاستعمال الوارد على حذفه .

6 – قال : لا يسرّ : حذف المسند إليه «حالي» لضيق الصدر بسبب المرض.

7 – ولدُكَ يكلِّم الكبار بصوت عالٍ : ذكر المسند إليه؛ للتعبير عن التعجّب من فعله .

8 – هي محفظتي، أضع فيها كتبي ...: ذكر المسند إليه؛ لبسط الكلام طمعاً في استزادة أحد إصغاء السامع .

9 – عاد إلى جادة الصواب ..: حذف المسند إليه؛ لإيهام صون اللسان عنه

10– أمير شعراء العصر الحديث : حذف المسند إليه؛ لتعيّنه بسبب كمال الوصف فيه .

أسئلة وإجاباتها حول ذكر المسند إليه وحذفه (2)

- حدّد أسباب ذكر المسند إليه وحذفه فيما يأتي .

1 - حسودٌ حقود (بعد ذكر شخصٍ معيّن) .

2 - لا تخاطب اللئيمَ السّفيهُ .

3 - حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينهِ وليس لما في بيته بمُضيعِ

4 - حبيبُ الفقراءِ قادمٌ (بعد قولك مثلاً : أقادمٌ أحمدُ ؟» .

5 - سعيدٌ هذا أزعجَ جيرانه .

6 - حضرك شخصان أحدهما صديق كثيرالزيارة لك، فقلت : خائنُ المِلْحِ والزادِ .

7 - نجومُ سماءٍ كلّما غار كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي إليه الكواكبُ

8 - من ساء طبعهُ هُجر دبعُـه

9 - قال سبحانه : «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ» .

10- مقرّرٌ للشرائع موضحٌ للدلائلِ (تريد النبي محمداً عليه الصلاة والسلام)

- *الإجـــابات :*

1 - حسودٌ حقود (بعد ذكر شخص معيّن) : حذف المسند إليه؛ لقصد تأتي الإنكار عند السؤال .

2 - لا تخاطب اللئيم السّفيهُ : حذف المسند إليه «هو»؛ اتباعاً للاستعمال الوارد على حذفه .

3 - حريصٌ على الدنيا .. : حذف المسند إليه؛ لادّعاء العِلْمِ به في مقام الذمّ.

4 – حبيبُ الفقراء قادمٌ : ذكر المسند إليه؛ للتلذّذ بذكره .

5 – سعيدٌ هذا أزعج جيرانه : ذكر المسند إليه؛ للتّسجيل على السّامع .

6 – خائنُ المِلْحِ والزاد : حذف المسند إليه؛ لاختبار تنبّه السامع .

7 – نجومٌ سماء .. : حذف المسند إليه؛ لادّعاء تعيّنه في مقام المدح .

8 – من ساء طبعه هُجِرَ ربعه : حذف المسند إليه (فاعل هَجَر) للمحافظة على السجع .

9 – «صمٌّ بكمٌ عميٌ» : حذف المسند إليه «هم»؛ تطهيراً للسان عن ذكرهم .

10– مقرّر للشرائع موضحٌ للدلائل : حذف المسند إليه؛ تطهيراً له عن لسانك .

أسئلة وإجاباتها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (1)

- حدّد الأغراض التي اقتضت تعريف المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي

1 - إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا

2 - هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأته والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرَمُ

3 - قال سبحانه : «إنّ رسولَكُمْ الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون».

4 - قال سبحانه : «وإنْ قيلَ لكمْ ارجعُوا فارجعوا هو أزكى لكُمْ» .

5 - قال سبحانه : «وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ» .

6 - صلاحُ الدين يودّ لقاءك

7 - زارنا صفوان

8 - قال سبحانه : «إنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتي سيدخلون جهنّمَ داخرينَ» .

9 - قال الأخطل :

سقى اللّهُ منه دارَ سلمى بريّةٍ على أنّ سلمى ليس يشفى سقيمُها

ولو حمّلتني السّرّ سلمى حملتُه وهل يحملُ الأسرارَ إلاّ كتومُها

10- أولئك قومي خيرُ قومٍ بأسرِهِمْ وليس على معروفهمْ أبداً قفلُ

- *الإجابات* :

1 - عرّف المسند إليه بالضمير في «أكرمت» و«ملكت»؛ لأنّ المقام للخطاب، وعرّف بالضمير في «تمرّد»؛ لأنّ المقام للغيبة، وقد تقدّم مرجعه لفظاً .

2 - عرّف المسند إليه باسم الإشارة «هذا»؛ لقصد تمييزه أكمل تمييز .

3 - عرّ المسند إليه «رسولكم» بالإضافة؛ لقصد الاستهزاء والتهكّم .

4 – عرّف المسند إليه بالضّمير في «هو»؛ لأنّ المقام مقام غيبة، وقد تقدّم مرجعه معنى لدلالة لفظٍ عليه؛ إذ إنّ في قوله سبحانه «ارجعوا» معنى الرجوع، والضمير عائد عليه .

5 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «إبراهيم» و«إسماعيل»؛ لقصد إحضار معناه في ذهن السامع باسمه الخاص؛ ليمتاز عمّا سواه .

6 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «صلاح الدين»؛ لقصد التعظيم؛ فإنّ اسم صلاح الدين مما يشعر بمدح .

7 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «صفوان»؛ لقصد التحقير؛ فإنّ اسم «صفوان» من الأعلام التي تشعر بذمّ .

8 – عرّف المسند إليه بالاسم الموصول «الذين»؛ للإيماء إلى نوع الخبر، والإشارة إلى أنه من نوع العقاب .

9 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «سلمى» في البيتين؛ قصداً إلى الاستلذاذ بذكره .

10– عرّف المسند إليه باسم الإشارة في «أولئك»؛ لقصد تمييزه .

أسئلة وإجاباتها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (2)

– حدّد الأغراض التي اقتضت تعريف المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي :

1 – جاءنا أبو الفضل * وأخو الحرب قادمٌ

2 – سعيدٌ في بيتنا * السفّاح في الطريق

3 – سأل القاضي شخصاً : هل أقرّ أحمد بهذا الجرم ؟ – فقال الشخص: أحمدُ أقرَّ بهذا الجرم .

4 – أولئكَ آبائي فجئني بمثلِهِمْ إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ

5 – قال سبحانه : «أهذا الذي يذكرُ آلهَتَكُمْ» .

6 – قال سبحانه : «إنّ هذا القرآن يهدي للتّي هي أقوم» .

7 – قال سبحانه : «فذلكَ الذي يدعُّ اليتيم » .

8 – قال سبحانه : «فذلكُنَّ الذي لمتتّني فيه» .

9 – فقُلْ لمنْ يدّعي في العلم فلسفةٍ حفظتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ

10– قال سبحانه : «إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهمْ سلطانٌ» .

الإجـــابات :

1 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «أبو الفضل»، لكونه كناية عن معنى يصلح له العلم، وهو الفضل والخير. وعرّف بالعلمية في «أخو الحرب»؛ لكونه كناية عن معنى يصلح له العلم، وهو الشجاعة .

2 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «سعيد» للتفاؤل به، وعرّف في «السّفاح»؛ للتطيرّ به .

3 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «أحمد»؛ للتسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار .

4 – عرّف المسند إليه بالإشارة في «أولئك»؛ لقصد التعريض بغباوة السامع، والإيماء إلى أنّ الأشياء لا تتيمز عنده إلاّ بالإشارة الحسيّة .

5 – عرّف المسند إليه بالإشارة في «هذا»؛ لقصد تحقيره بالقرب .

6 – عرّف المسند إليه بالإشارة في «هذا»؛ لقصد تعظيمه بالقرب .

7 – عرّف المسند إليه بالإشارة في «ذلك»؛ لقصد تحقيره بالبعد .

8 – عرّف المسند إليه بالإشارة في «ذلك»؛ لقصد تعظيمه بالبعد .

9 – عرّف المسند إليه بالإضمار في «يدّعي»؛ لأن المقام للضمير، وقد تقدّم مرجعه لفظاً . تحقيقاً، وعرّف بالإضمار في «حفظتَ»؛ لأنّ المقام للخطاب. ونُكرّ في «أشياء»؛ لقصد إفادة الكثرة .

10– عرّف المسند إليه بالإضافة في «عبادي»؛ لقصد تعظيمه؛ فقد عظّم شأن العباد بإضافتهم إلى الله سبحانه .

أسئلة وإجاباتها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (3)

– حدّد الأغراض التي اقتضت تعريف المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي :

1 – حِكَمٌ حـارت البريّةُ فيها وجـديرٌ بأنها تحتـارُ

2 – عبّاسُ عبّاسٌ إذا احتدم الوغى والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

3 – وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

4 – لكلّ مقامٍ مقالٌ .

5 – علماء المسلمين أجمعوا على كذا .

6 – إنّ الذي تحسبه عدوّاً لك دافع عنكَ أمسِ .

7 – إنّ من يجالس السّفهاء يمقته ذوو العقل .

8 – قال سبحانه : «وإنْ يكذّبوكَ فقدْ كذّبت رسلٌ من قَبلِك».

9 – قال سبحانه : «ورضوانٌ من اللّهِ أكبرُ» .

10– لكلّ داءٍ دواءٌ .

الإجـــابات :

1 – فكّر المسند إليه في «حِكَم»؛ لقصد إفادة تعظيمه، تبعاً لعلوّ شأن هذه الحكم، أو لإفادة التكثير، تبعاً لكثرة عددها. وعرّف المسند إليه بـ «الـ» في «البرية»؛ للإشارة إلى العهد العلمي، وعرّف بالضمير في «أنّها» و«تحتار»؛ لكون المقام للغيبة، وذلك لتقدّم المرجع لفظاً تحقيقاً .

2 – عرّف المسند إليه بالعلمية في «عبّاس» و«الفضل» و«الربيع»؛ لقصد تعظيمه. وعرّف بـ «الـ» في «الوغى»؛ للإشارة إلى فرد مبهم من أفراد الحقيقة .

3 – نُكِّر المسند إليه في «شيء»؛ لقصد إفادة التّحقير من وجهة انحطاط شأنه، أو إفادة التّقليل من وجهة قلّة العدد . وعرّف بـ «الـ» في «النهار» للإشارة إلى الحقيقة .

4 – نُكِّر المسند إليه في «مقال»؛ لإفادة معنى النوعية؛ إذ أنّ المعنى هو : لكلّ مقامٍ نوعٌ خاص من أنواع المقال .

5 – عرّف المسند إليه بالإضافة في «علماء المسلمين»؛ لإغناء هذه الإضافة عن تفصيل متعذر .

6 – عرّف المسند إليه بالموصول «الذى»؛ لبيان خطأ المخاطب في رأيه .

7 – عرّف المسند إليه بالموصول في «مَنْ»؛ للإشارة بها إلى نوع الخبر .

8 – نكّرالمسند إليه في «رسلٌ»؛ لقصد التكثير؛ فالمعنى : رسل كثيرون .

9 – نكّرالمسند إليه في «ورضوانٌ»؛ لقصد التقليل؛ فالمعنى : ورضوانٌ قليل

10.– نكّر المسند إليه في «دواءٌ»؛ لقصد بيان النوع، فالمعنى: لكلّ نوعٍ من الدّاء نوعٌ من الدواء .

أسئلة وإجاباتها حول التقييد بالتوابع (1)

– حدّد نوع القيد بأحد التوابع والغرض من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية :

1 – تلميذٌ مجتهدٌ في مدرستنا . محمّد الصّياد زارنا البارحة .

2 – الكريم الذي يتهلّل وجهُهُ بشراً وطلاقةً عندما يساعد الناس موضع احترامهم وحبّهم .

3 – زارني أحمد العالم .

4 – صاغ الحكمة المتنبي لا البحتريّ .

5 – المستقبل الآتي يحمل معه البشائر .

6 – زيدٌ السّفيهُ في الطريق إليكَ .

7 – قال سبحانه : «ومَا مِنْ دابةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ بجناحيهِ إلاّ أممٌ أمثالكُمْ».

8 – زارني أحمدُ أحمدُ .

9 – قال سبحانه : «إنّ اللّهَ هو الرزّاقُ ذو القوّة المتين» .

10– زارني أخوكَ أخوكَ .

– *الإجـــابات :*

1 – تلميذٌ مجتهدٌ في مدرستنا : قيّد المسند إليه بالنعت «مجتهد»؛ لتخصيصه بتقليل الاشتراك فيه. محمد الصيّاد زارنا البارحة : قيّد المسند إليه بالنعت «الصيّاد» لتخصيصه برفع الاحتمال .

2 – الكريم الذي يتهلّل ..: قيّد المسند إليه بالنعت «الذى»؛ للكشف وتوضيح معناه .

3 – زارني أحمدُ العالمُ : قيّد المسند إليه بالنعت «العالم»؛ لغرض المدح .

4 – صاغ الحكمة المتنبي لا البحتري : قيّد المسند إليه بالعطف بـ «لا»؛ لردّ السامع عن الخطأ إلى الصواب .

5 – المستقبل الآتي يحمل معه البشائر : قيّد المسند إليه بالنعت «الآتي»؛ للتوكيد الذي يشوّق إلى مقدمه .

6 – زيدٌ السّفيه في الطريق إليك : قيّد المسند إليه بالنعت «السّفيه» ؛ لقصد الذمّ .

7 – «وما من دابةٍ في الأرض .. : قيّد المسند إليه بالنعت في «في الأرض» و«سطير»؛ لبيان المقصود وتفسيره وأنّ «دابة» و«طائر» يفيدان زيادة التعميم والإحاطة .

8 – زارني أحمدُ أحمدُ : قيّد المسند إليه بالتوكيد اللفظي «أحمد»؛ بالتقرير، وتحقيق مدلوله في الذهن .

9 – «إنّ الله هو الرزّاق ..» قيّد المسند إليه بضمير الفصل «هو»؛ بالتأكيد تخصيصه .

10– زارني أخوكَ أخوك : قيّد المسند إليه بالتوكيد اللفظي «أخوك» لتقريره وتحقيق مدلوله في الذهن .

أسئلة وإجاباتها حول التقيد بالتوابع (2)

- حدِّد نوع القيد بأحد التوابع والغرض من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية :

1 – قال سبحانه : «فسجدَ الملائكةُ كلُّهُمْ أجمعونَ .

2 – قال سبحانه : «جعل اللّهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس ».

3 – قال هذا أبو الحسن عليٌّ كرّم اللّهُ وجهه .

4 – مات حافظ فشوقيّ .

5 – جاء زيدٌ وأبوه .

6 – وُلدَ إسحاقُ ثمّ إسماعيلُ .

7 – مات الأغنياء حتى قارون .

8 – زيدٌ أو أخوه راسبٌ .

9 – إننيّ أو إيّاك لعلى خطأ .

10– ليسافر أحمد أو سعيد .

- *الإجـــابات :*

1 – قيّد المسند إليه بالتوكيد «كلُّهم» و«أجمعون»؛ لتقريره ودفع توهم عدم الشمول .

2 – قيّد المسند إليه بعطف البيان «البيت الحرام»؛ لقصد المدح والثناء .

3 – قيّد المسند إليه بعطف البيان «عليّ»؛ لقصد ايضاحه وتفسيره .

4 – قيّد المسند إليه بالعطف بالفاء؛ لتفصيل المسند مع الاختصار .

5 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «الواو»؛ لتفصيل المسند إليه مع الاختصار

6 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «ثم»؛ لتفصيل المسند مع الاختصار

7 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «حتى»؛ لتفصيل المسند مع الاختصار

8 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «أو»؛ للتعبير عن شك المتكلّم، أو لقصد تشكيك السامع .

9 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «أو»؛ لإبهام الحكم على المخاطب .

10– قيّد المسند إليه بالعطف بـ «أو»؛ لقصد التخيير أو الإباحة .

أسئلة وإجاباتها حول التقييد بالتوابع (3)

– حدّد نوع القيد بأحد التوابع والغرض من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية :

1 – ماجاء خالد بل وليدٌ .

2 – ولدي حسام مجتهدٌ .

3 – ذهبَ الأصدقاءُ معظمُهم .

4 – أعجبني الأستاذ علمُه .

5 – قال سبحانه : «ألم يعلموا أنّ اللّهَ هو يقبلُ التوبة عن عباده» .

6 – جاء أحمد لا محمد .

7 – المحسنُ هو الذي يعبدُ اللّهَ كأنّه يراه .

8 – سبَقَ في حلْبة الشعر عمر أبو ريشة ونزار قباني .

9 – وقّعَ الأمرَ الأمينُ نفسُهُ .

10– أزعجني أحمدُ بل سعيدُ .

- *الإجـــابات :*

1 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «بل»؛ لرد السامع عن الخطأ في الحكم إلى الصواب .

2 – قيّد المسند إليه بالبدل «حسام»؛ لزيادة التقرير .

3 – قيّد المسند إليه ببدل البعض «معظمهم»؛ لزيادة تقريره .

4 – قيّد المسند إليه ببدل الاشتمال «علمه»؛ لزيادة تقريره .

5 – قيّد المسند إليه بضمير الفصل «هو»؛ لتخصيصه .

6 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «لا»؛ لردّ السامع عن الخطأ إلى الصواب .

7 – قيّد المسند إليه بضمير الفصل «هو»؛ لتمييز الخبر عن الصفة .

8 – قيّد المسند إليه بالعطف بـ «الواو»؛ لتفصيل المسند إليه مع الاختصار

9 – قيّد المسند إليه بالتوكيد المعنويّ «نفسه»؛ لدفع توهّم التجوّز أو السّهو

10– قيّد المسند إليه بالعطف بـ «بل»؛ لصرف الحكم من المحكوم عليه الأول إلى الثاني .

أسئلة وإجاباتها حول تقديم المسند إليه(1)

- حدّد في الجمل الآتية الغرض من تقديم المسند إليه :

1 – عدلُ السلطانِ خير من خصب الزمان .

2 – «إنّ أكرمكمْ عند اللّهِ أتقاكم» .

3 – محمّدٌ قادمٌ .

4 – قال سبحانه : «النارُ وعَدَها اللّهُ الذينَ كفَرُوا» .

5 – الجنّةُ موعدُ الذينَ آمنوا .

6 – ثلاثةٌ يذهبنَ الحَزَن الماءُ والخضراءُ والوجهُ الحَسَن .

7 – اسمُ اللّه حافظي .

8 – الجائزة مُنحتْ لك .

9 – العفوُ والعافيةُ والمعافاة الدائمة خير مايسألُ عبدٌ ربَّه .

10– رحمةُ اللّهِ خير من كلّ شيء .

الإجـــابات :

1 – قدّم المسند إليه «عدل»؛ لأنّه الأصل المحكوم عليه، ولا مقتضى للعدول عنه .

2 – قدّم المسند إليه «أكرمكم»؛ لتمكين الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه .

3 – قدّم المسند إليه «محمّد»؛ لكونه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه .

4 – قدّم المسند إليه «النار»؛ لتعجيل المساءة للتطيّر .

5 – قدّم المسند إليه «الجنّة»؛ لتعجيل المسرّة للتفاؤل .

6 – قدّم المسند إليه «ثلاثة يذهبن الحزن»؛ لتمكين الخبر في ذهن السامع؛ لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه .

7 – قدّم المسند إليه «اسم اللّهَ»؛ للتبرّك به .

8 – قدّم المسند إليه «الجائزة»؛ لتعجيل المسرّة للتفاؤل به .

9 – قدّم المسند إليه «العفو»؛ لإيهام أنّه لايزول عن البال لكونه مطلوباً .

10– قدّم المسند إليه «رحمة اللّه»؛ لإيهام أنه لا يزول عن البال؛ لكونه مطلوباً .

أسئلة وإجاباتها حول تقديم المسند إليه (2)

– حدّد في الجمل الآتية الغرض من تقديم المسند إليه :

1 – حبيبُك سيسافر فانهضْ لتوديعه .

2 – رجلٌ عظيمُ القَدْرِ زارنا اليوم .

3 – الثقيل الظلّ رحلَ عنّا اليوم .

4 – ما أحمد فعل هذا .

5 – رجلٌ مادخلَ هذا المكان .

6 – أنا ما رأيت هذا الكتاب .

7 – مثلُك يساعد الناسَ. غيرُكَ لا يصلّي .

8 – كلّ ذي روحٍ لا يستغني عن الهواءِ .

9 – مروّضُ الوحوشِ فلانٌ .

10– ماكلُّ مايتمنّى المرءُ يدركُه .

الإجـــابات :

1 – قدّم المسند إليه «حبيبك»؛ لإيهام أنّه لا يزول عن البال .

2 – قدّم المسند إليه «رجلٌ عظيم القدر»؛ للتعجيل بإظهار تعظيمه .

3 – قدّم المسند إليه «الثقيل الظلّ»؛ للتعجيل بإظهار تحقيره .

4 – قدّم المسند إليه «أحمد»؛ بالإفادة التخصيص .

5 – قدّم المسند إليه «رجلٌ ما»؛ لإفادة التّخصيص أو تقوية الحكم .

6 – قدّم المسند إليه «أنا»؛ لإفادة التخصيص أو تقوية الحكم .

7 – قدّم المسند إليه «مثلُك» و«غيرك»؛ لغرض إثبات الحكم بالطريق الأبلغ .

8 – قدّم المسند إليه «كلّ ذي روح»؛ لإفادة عموم السلب أو شمول النفي .

9 – قدّم المسند إليه «مروِّض الوحوش»؛ لتمكين الخبر في الذّهن؛ لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه .

10– قدّم المسند إليه «كلُّ»؛ لإفادة سلب العموم، أو نفي الشّمول .

أسئلة وإجاباتها حول خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في المسند إليه(1)

- بيّن مايقتضيه ظاهرُ الحال من إيرادا المسند إليه، وحدّد الغرض من إيراده على خلاف مقتضى الظاهر فيما يأتي :

1 - نعمَ شاعراً أبو ريشه   بئسَ خلّةُ الظُّلْمُ

2 - هي الدنيا تقول بملءِ فيها :   حذارِ حذارِ من وقعي ومتكي

3 - قال سبحانه : «يدعُو منْ دونِ اللّهِ مالايضرُّه ومالاينفعه ذلكَ هوَ لضلالُ البعيدُ».

4 - قال سبحانه : «قلْ هوَ اللّهُ أحد اللّهُ الصّمد» .

5 - هو أحمد يعرف كيف يتصرّف في الشدائد ،

6 -قال سبحانه : «واستغفروا ربكُم ثمّ توبُوا إليهِ إنّ ربِّي رحيمٌ ودود».

7 - سأل ضريرٌ : مَنْ رماني بالحجر ؟ - فقيل له : هذا الذي رماك بالحجر 8 - كتب ولدٌ لوالده : «ولدُك الحبيب يكتب إليك» .

9 - قلتَ لصديقِك الذي يناقشك في مسألةٍ : هذا أمر بدهيّ .

10- شددْنا شدّةَ اللّيثِ   غدا والليثُ غضبانُ

الإجـــــابات .

1 – مقتضى الظّاهر أن يؤتي بالاسم الظّاهر لا بالضّمير، وذلك لعدم تقدم المرجع، حيث يقال: «نعمَ الشاعرُ أبو ريشة» و«بئسَ الخَلّةُ الظُّلمُ». لكنّه خولف المقتضى وأتى بالمسند إليه ضميراً في الموضعين؛ لغرض الإيضاح بعد الإبهام؛ ليتمكن المعنى في الذهن .

2 – مقتضى الظّاهر أن يؤتى بالاسم الظّاهر، فيقال: «الحال أو الشّأن الدنيا تقول ..»، لكنه عدل عنه إلى الضميرك تمكيناً له في ذهن السامع لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام .

3 – مقتضى الظّاهر أن يكتفي بالضّمير، فيقال :« هو الضّلالُ البعيد» لتقدّم المرجع معنى وهو دعاء مالا يضر ومالا ينفع، لكنه عدل عنه إلى اسم الإشارة «ذلك» لكمال العناية بتمييز المسند إليه بسبب اختصاصه بحكم غريب. ويجيء هذا كثيراً في القرآن الكريم .

4 – مقتضى الظّاهر أن يؤتي بالضّمير فيقال «هو الصّمد»؛ لتقدم المرجع؛ لكنّه عدل عن ذلك إلى الاسم الظّاهر لفظ الجلالة «الله»؛ لزيادة تمكينه في ذهن السامع .

5 – مقتضى الظاهر أن يؤتي بالاسم الظاهر فيقال : «الحال أو الشأن أحمد يعرف ..» لكنّه عُدل عنه إلى الضمير؛ تمكيناً له في ذهن السّامع لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام .

6 – مقتضى الظّاهر أن يعبِّر عن الذات بالخطاب فيقال : «إنّ ربكُم» مجاراة لظاهر السيّاق فيما تقدّم، لكنّه عدل عن الخطاب إلى التكلّم؛ لإظهار الاغتباط بإضافة الربّ إليه .

7 - مقتضى الظّاهر أن يؤتي بالضّمير فيقال : هو فلان؛ بالتّقدم المرجع في السّؤال، لكنّه عدل عنه إلى اسم الإشارة؛ لقصد السخرية من المخاطب والتهكم به؛ إذ منزلته من يرى ويبصر .

8 - مقتضى الظّاهر أن يؤتى بضمير التكلّم؛ لأن المقام مقام التكلّم؛ لكنه عدل عنه إلى الظاهر؛ لغرض التودّد والتحبّب .

9 - مقتضى الظّاهر أن يؤتى بالضمير فيقال : «هو أمر بدهي»؛ لتقدّم مرجعه فيما تقدّم من النقاش، لكنه عدل عنه ألى اسم الإشارة؛ لادّعاء كمال ظهور الأمر، وأنه بلغ من الوضوح مبلغ المدَك بحاسة البصر .

10- مقتضى الظاهر أن يؤتى بالضمير فيقال : «وهو غضبان»؛ لتقدّم مرجعه لفظاً، لكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر؛ لزيادة تمكينه في ذهن السامع .

أسئلة وإجاباتها حول خروج الكلام عن مقتضى الظاهر فى المسند إليه وفى غيره(2)

- بيّن مقتضى ظاهرُ الحال، وحدّ الغرض من إيراد الكلام على خلافه فيما يأتي :

1 - قال سبحانه : «الحاقّةُ ما الحاقةُ»

2 - قال مرؤوس لرئيسه : «يعطيني الرئيسُ دقيقةً من وقته» .

3 - قال رئيس لمرؤوسه : «رئيسكَ يأمرك» .

4 - قال حسان بن ثابت يذكر صاحبته «شعثاء»:

كأنّ سبيئةً من بيت رأسٍ يكونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ

على أنيابها أو طعمَ غضٍّ   منَ التّفاحِ هصّره الجناءُ

5 – قال خادم لسيده : «خادمُك المذنب يسألك العفوَ» .

6 –قال مدرّس لأحد طلاّبه : «هذه نظرية واضحة» .

7 – قال سبحانه : «وإذْ أَخَذْنا ميثاقكُمْ لا تسفكونَ دِماءَكُمْ» .

8 – تقول لرجلٍ لا يحبّ أن يكذّبك : «تجيءُ غداً» .

9 – تقول في رسالةٍ إلى صديق بعيد : «جمع اللّهُ الشملَ» .

10– يقول القائد مخاطباً جنده : «تفتكون بالأعداء، وتستأصلونَ شَأفتَهم، وتذيقونهم الرّدى» .

الإجـــابات :

1 – مقتضى الظّاهر أن يؤتي بالضّمير فيقال : «الحاقّة ماهي»؛ لتقدم المرجع، ولكن عدل إلى الإسم الظاهر؛ ليتمكن في ذهن السّامع تمكّناً قوياً؛ لما في الاسم الظاهر من التّصريح .

2 – مقتضى الظاهر أن يأتي بصيغة الطلب فيقول : «أعطني»، لكنّه وضع الخبر موضع الإنشاء؛ قصداً إلى التأدّب بالاحتراز عن صورة مايدلّ على الاستعلاء .

3 – مقتضى الظّاهر أن يأتي بالضّمير؛ لأنّ المقام للتكلّم فيقول :«أنا آمرك»، لكنّه عدل عنه إلى الاسم الظاهر؛ لقصد إدخال الروع والمهابة في قلب السّامع، ولأنّ ذلك أدعى إلى الاستجابة .

4 – مقتضى ظاهر السّياق أن يقول حسّان : «يكون مزاجُها عسلاً وماء»، لكنه قلب، للضرورة.

5 – مقتضى الظّاهر أن يؤتي بضمير المتكلم؛ لأن المقام له فيقال : «أنا المذنب أسألك العفو لكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر؛ قصداً إلى الاستعطاف والاستمالة، لما في لفظ «خادمك» من معنى الخضوع .

6 – مقتضى الظّاهر أن يأتي بالضّمير فيقول : «هي نظرية واضحة»؛ لتقدّم المرجع في أثناء الحديث، لكنّه عدل عنه إلى اسم الإشارة للتّنبيه على كمال فطانة الطالب، وأنّ المدرك بالعقل عنده كالمدرك بحاسة البصر .

7 – مقتضى الظّاهر أن يؤتي بالنّهي فيقال «لا تسفكوا»، لكنّه عُدل عنه إلى الخبر «لا تسفكون» مبالغةً في النّهي، حيث أوحى الخبر بأنّم نهوا عن السّفك فامتثلوا، ثمّ أخبر عنهم .

8 – مقتضى الظّاهر أن تأتي بصيغة الالتماس : «جيء غداً»؛ لأنّ المقام لطلب شيء غير حاصل وقت الطّلب، لكنّك عدلت عنه إلى الخبر «تجيء غداً»؛ لتحمل المخاطب على الفعل بألطف أسلوب، إذ يحمله هذا الأسلوب على المجيء؛ لأنّه إن لم يأتِ غداً صرتَ كاذباً من حيث الظّاهر؛ لأن كلامك في صورة الخبر .

9 – مقتضى الظاهر أن يؤتي بالمضارع فيقال : «يجمع»؛ لأنّ الجمع لم يحصل، لكنّه عدل عنه إلى الماضي؛ إظهاراً للرغبة الشديدة في حصوله .

10– مقتضى الظّاهر أن يؤتى بالأمر فيقال : «افتكوا بالأعداء، واستأصلوا شأفتهم ..»؛ لأن المقام لطلب أمرٍ غير حاصل وقت الطلب على جهة الاستعلاء، لكنّه عدل عنه إلى الخبر؛ تنبيهاً على تيسُّر المطلوب لوفرة الأسباب واستكمال العدّة .

المبحث الثالث - أحوال المسند

ويتضمّن :

- المسند ومواضعه

- أحوال المسند - وهي :

أولاً : ذكر المسند

ثانياً : ترك المسند

ثالثاً : إيراد المسند فعلاً

رابعاً : إيراد المسند اسماً

خامساً : إيراد المسند الفعل وما يشبهه مقيّداً بأحد المفاعيل ونحوها.

سادساً : إيراد المسند فعلاً غير مقيّد بشيء ممّا تقدّم.

سابعاً : إيراد المسند فعلاً مقيّداً بالشرط :

- الفرق بين «إنْ» و«إذا» و«لَوْ»

- الأغراض البلاغية لاستخدام «إنْ» في مقام الجزم بوقوع الشرط

- استخدام «إذا» في الشرط المشكوك في ثبوته أو نفيه

- العدول عن استقبالية جملتي الشرط والجواب لفظاً ومعنى إلى استقباليتهما معنى فقط.

- الأغراض البلاغية لدخول «لو» على الجملة المضارعية

ثامناً : إيراد المسند معرفةً

تاسعاً : إيراد المسند نكرةً

عاشراً : إيراد المسند مقدّماً

المسند ومواضعه :

المسند هو المحكوم به أو المحدَّث به، وهو أحدُ ركنيَ الجملة. وللمسند ثمانية مواضع هي :

1 - خبر المبتدأ، نحو «أبلَجُ» و«لَجلَج» في المثل المشهور : «الحقّ أبلجُ والباطلُ لجلج».

2 - الفعل التّام، نحو «جاءَ» و«زَهَقَ» في قوله سبحانه : «قُلْ جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً».

3 - اسم الفعل، نحو : «شتّانَ - أفّ - إيه» في قولك : لشتّان ما بين الثُّريَّا والثَّرى»، «أفّ لَكَ»، «إيهِ يا بلبلُ ترنَّمْ».

4 - المبتدأ الوصفُ المستغني عن الخبر بمرفوعه، نحو «راغبٌ» في قوله سبحانه : «أراغبٌ أنت عن آلِهَتى يا إبراهيمُ»

5 - أخبار النّواسَخ «كان وأخواتها» و«إنّ وأخواتها».

6 - المفعول الثاني لظل المفعول الثاني لظنّ وأخواتها.

7 - المفعول الثالث لـ «أرى» وأخواتها.

8 - المصدر النائب عن فعل الأمر، نحو : ضَرْباً» و«إهانةً» في قولك : «ضرباً المسيءَ وإهانةً المتجاوزَ».

أحـوال المسند :

أحوال المسند هي الأمور العارضة له في أساليب البلغاء من ذكرٍ وتركٍ، وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير ومن مجيئه مفرداً وجملةً، وغير ذلك. ولكلٍّ

من هذه الأحوال دواع تقتضيه سنأتي على ذكرها مفصلّة إن شاء الله تعالى.

أولاً – ذكر المسند :

ينكر المسند للأغراض التي أشير إليها في ذكر المسند إليه، ومن ذلك:

1 - كون ذكره هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه، كقوله سبحانه : «الرِّجالُ قوّامونَ على النساء»، ذكر المسند الخبر «قوّامون»؛ لكون ذكره هو الأصل، ولامقتضى للعدول عنه.

2 - ضعف التعدّيل على القرينة، كما في قولك : «عقلٌ في السّماءِ وحظٌ مع الجوزاء»؛ ذكر المسند «مع الجوزاء»، لأنه لو حذف لما دلّ عليه الكلامُ السّابق؛ فقد يكون الحظ عاثراً. ومثله : «حالي مستقيم ورزقي ميُسور».

3 - التعريض بغباوة السامع، كقوله سبحانه : «بل فَعَلَهُ كبيرُهُمْ هذا»، بعد قوله سبحانه حكاية عن قومه : «أأنتَ فعلَ هذا بآلِّتَنَا يا إبراهيم؟» فقد ذكر المسند «فعله» في الإجابة تعريضاً بغباوة السامعين.

4 - تعيين كونه «فعلاً» فيفيد التجدّد والحدوث مقيداً بأحد الأزمنة «يخادعون الله وهو خادعُهم»، جيء بالمسند الأول «يخادعون» فعلاً لإفادة التجدّد مرة بعد أخرى، مقيّداً بالزمان من غير حاجة إلى قرينة تدلّ عليه كذكر (الآن – أو الغد) وجيء بالمسند الثاني «خادِعُهُمْ» اسماً" لإفادة الثّبوت مطلقاً من غير نظرٍ إلى زمان.

5- الاستلذاذ بذكره، كقولك : «هي ليلى» في إجابة من سألك : «هل هذه

ليلى؟». تذكر المسند الخبر «ليلى» تلذّذاً بذكر اسمها.

ثانياً – تركُ المسند :

يذهب البلاغيون إلى أنّ ترك المسند عند قيام القرينة عليه يحقّق ثلاث مزايا على قدر كبير من الأهمية : إيجاز العبارة وامتلاءها، تصفيتها وصونها من الترهّل والتمدّد، إثارة الحسّ والفكر اللذين يأخذان في تعرّف جزء المعنى الذي لم يذكر لفظٌ دالٌّ عليه. ويمكن القول، على الجملة، إنّ المسند يحذف من الكلام للأغراض التي أشير إليها في حذف المسند إليه، ومن ذلك :

1 - أن تدلّ عليه «قرينة» ويتعلّق بحذفه غرض ممّا جاء في حذف المسند إليه. والقرنية نوعان :

– مذكورة، كقوله سبحانه : «ولئنْ سألتَهُمْ مَنْ خلقَ السّموات والأرضَ ليقولُنّ اللهُ»، أي : خلقهنّ اللهُ. حيث المسند «خلقهنّ»؛ لدلالة القرينة عليه. والقرينة هنا مذكورة ضمن السؤال «خلَق».

– مقدّرة، كقوله سبحانه : «يسبّحُ لَهُ فيها بالغدوِّ والآصالِ رجالٌ»، أي : يسبحهُ رجال. كأنّه قيل : مَنْ يسبّحه.

2- الاحتراز عن العبث، كما في قوله سبحانه : «إنّ الله بريء منَ المشركين ورسولُه»؟ أي : ورسولُه بريء منهم أيضاً.

3- ضيق المقام عن إطالة الكلام، كقول الشاعر :

قالتْ وقدْ رأتِ اصفراري : مَنْ بهِ   وتنهّدتْ، فأجبتُها : المتنهِّدُ

أراد : المتنهِّد هو المطالب بشأن اصفراري ونحولي وسقمي؛ حذف المسند الخبر «المطالَب» يضيق المقام عن إطالة الكلام. ومثله قول الشاعر

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

أي : نحنُ بما عندنا راضون، حيث حذف خبر المبتدأ الأول «نحن»؛ لضيق المقام ودلالة القرينة، وهي خبر المبتدأ الثاني، عليه.

4- اتّباع الاستعمال العربيّ، كقوله سبحانه : «لولا أنتُمْ لكنّا مؤمنين»، أي : لولا أنتم موجودون؛ حذف المسند الخبر «موجودون»؛ لورود الاستعمال العربيّ على ترك المسند في مثل هذا الأسلوب. وكقولك : «خرجتُ فإذا أحمدُ»، أي : فإذا أحمد بالباب، مثلا.

5- الاستهانة به. والحذف هنا إحدى الكيفياتّ التي كثر ورودها في الذكر الحكيم، كقوله سبحانه : «أفمَنْ هو قائم على كلِّ نفسٍ بما كسَبَتْ»، إذ الاسم الموصول «مَنْ» مبتدأ ههنا، وخبرة محذوف تقديره : «كمن ليس كذلك». وجليّ أن القائم على كلّ نفس هو الله سبحانه أي المتولّي لأمر كلّ نفسٍ والحافظ لشأنها، والمحذوف الذى هو «كمن ليس كذلك» هو المعبود بالباطل. وقد جاء حذف المسند الخبر هذا، ليعلن الفارق الهائل بين الواجب الموجود وبين المفقود. ألا يكون فى الحذف هنا إشعارٌ بإهمال المحذوف وازدرائه وعدم الالتفات إليه حتى لكأنه غير موجود، وحتى لكأنّ إغفال الذّكر في الكلام خيرُ تعبير عن الإهمال والتّغاضي ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : «أفَمَنْ شرحَ الله صدرهُ للإسلامِ فهو على نورٍ من ربِّهِ فويلٌ للقاسية قلوبهم»،

أي : أهذا خيرٌ أمْ مَنْ جعلَ صدرَه ضيِّقاً حرجا. وكقوله سبحانه : «أمْ مَنْ هو قانتٌ آناءَ اللّيلِ ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه».

ثالثاً – إيراد المسند فعلاً :

يؤتى بالمسند لأغراضٍ، أهمها :

1 - إفادة تخصيصة بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار وإفادة التجدّد، كقوله سبحانه : «فويلٌ لهُمْ ممّا كتبتْ أيديهِمْ وويلٌ لهُمْ ممّا يكسبونَ»، فقد أفاد المسند الفعل الماضي «كتَبَ» حصول الكتابة في الزمان الماضي دون حاجة إلى ذكر مايدلّ على الزمان كقولنا «أمسِ» أو نحوه. ومن هنا جاء الاختصار، كما أفاد الفعل التجدّد؛ لأنّ الزمان جزء منه، والتجدّد لازمٌ للزمان. وكذا أفاد المسند الفعل المضارع «يكسب» حصولَ الكسب منهم في الزمان الحاضرمع الاختصار والدلالة على حصول الكسب شيئاً فشيئا والتجدد الذي يفيده الفعل نوعان :

– تجدّد زمانيّ : ومعناه التقضّي والحصول شيئًا فشيئًا على وجه الاستمرار.

– تجدّد حدثيّ : ومعناه الحصول بعد العدم دون مراعاة الاستمرار فيه.

3 - إفادة التجدّد الاستمراريّ بوجود القرينة وكون الفعل مضارعاً، كقوله سبحانه : «إنّا سخّرنا الجبال مَعَهُ يسبّحنِ بالعشيّ والإشراق»، إذ

المراد هنا حصول التسبيح من الجبال آناً إثرآنٍ وحالاً بعد حال.

وكقوله سبحانه : «هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله يرزقكم؟»، ولو قيل : هل من خالق غير الله رازق لكم؟ - لما كان المعنى مثلما هو عليه. ومنه قول طريف بن تميم العنبريّ يفتخر بشجاعته :

أوكلّما وردتْ عكاظَ قبيلةٌ   بَعَثُوا إليّ عريفَهم يتوسّمُ

عكاظ : سوق للعرب بين نخلة والطائف كانوا يجتمعون فيه فيتناشدون ويتفاخرون و«عريفهم» أي: القيمّ بأمرهم الذي شهر وعرف بذلك. ويتوسّم : يتفرّس الوجوه متعرّفاً. وفي قوله : «يتوسّم» جاء المسند فعلاً مضارعا؛ ليفيد أنّ تفرُّسَ الوجوه وتأمّلها يصدر عنه شيئاً فشيئاً ولحظةً بلحظة.

رابعاً - إيراد المسند أسماً :

يؤتيَ بالمسند أسماً لفرضٍ أساسيّ هو :

إفادةُ الثّبوت والدّوام من غير دلالةٍ فيه علي معنى التجدد والحدوث.

ويُلحظ ههنا أمران :

(أ) أنّ إفادة الثبوت آتيةٌ من أصل وضع الاسم ففي قولك : «زيدٌ مغادرٌ» لا يعني المسند «مغادرٌ» هنا أكثر من إثبات المغادرة فعلاً لزيد من غير مراعاة لمعنى التجددّ والحدوث ولا لمعنى الدوام والاستمرار.

(ب) أنّ إفادة الدوام والاستمرار طارئةٌ تُستمدّ من قرائن تحفّ بالمسند، كأن يكون السايق سياق مَدْح، كما في قول النضر بن جذية يفتخر بالكرم :

إنّا إذا اجتمعتْ يوماً دراهمُنا ظلّتْ إلى طُرُقِ الخيراتِ تستبقُ
لا يألفُ الدرهمُ المضروبُ صُرّتَنا لكنْ يمرّ عليها وهو منطلقُ

فقوله «منطلق» – المسند الخبر – يفيد أن الانطلاق ثابت لدرهم دائماً لا ينقطع، وهذا موائم لسياق المدح.

واسمع ما يقول الشيخ عبد القاهر في هذا الشأن :

«موضوع الاسم على أن يُثْبت به الشيءُ للشّيء من غير اقتضاء أنه يتجدّد ويحدث شيئاً فشيئا؛ فلا تعرّض في قولنا : «زيدٌ منطلقٌ» لأكثر من إثبات الانطلاق فعلاً له، كما في «زيدٌ طويلٌ» و«عمروٌ قصيرٌ».

خامساً – إيراد المسند الفعل وما يشبهه مقيّداً بأحد المفاعيل ونحوها:

يؤتى بالمسند الفعل وما يشبهه (من اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل) مقيداً بمفعول مطلق، أو مفعول به، أو مفعول فيه، أو مفعول له، أو مفعول معه، أو نحو ذلك (كالحال والتمييز والاستثناء) لغرضٍ أساسي هو :

تربية الفائدة وتكثيرها؛ لأنّ الحكم كلّما زاد خصوصاً زاد غرابةً، وكلّما زاد غرابةً زاد إفادة.

والفارق كبير بين قولنا : «درسَ أحمدُ» وقولنا : «درسَ أحمدُ القانون دراسةً واعيةً في جامعة قاريونس بدءاً من سنة 1980 م .

سادساً – إيراد المسند فعلاً غيرَ مقيّد بشيءٍ مما تقدّم :

يؤتى بالمسند الفعليّ غيرَ مقيدٍ بأحد القيود والتي أتينا على ذكرها

لمانع يحول دون تربية الفائدة. وقد ذكر البلاغيون جملة موانع، منها :

1 - خشية فوات الفرصة، كأن تقول لصائدٍ نصب شركاً لطائر أو نحوه : «وَقَعَ» تريد : «وقع في الشرك»؛ تأتي بالمسند فعلاً غير بشيء انتهازاً لفرصة إدراك الطائر أو نحوه قبل فراره، أو إدراكه حيًا.

2 - إخفاء زمان الفعل أو مكانه أو مفعوله، كأن تقول لمن ضمك وإيّاه مجلسٌ : «أخوكَ أزعج الناسَ»، لا تذكر المكان والزمان، حتى لا يطلع الحاضرون على زمان الفعل أو مكانه. وكأن تقول : «أخوك شتم وأساءَ»، لاتحدّد المشتوم والمُساء إليه، حتى لا يعرف عنه ذلك فيفتضح أمره بين الناس.

3 - عدم العلم بالمقيدات، كأن تقول : «ضربتُ»، دون ذكر المضروب لعدم علمك به.

4- الاختصارُ لحالٍ من أحوال النفس يبعث على ذلك، كأن يقول المريضُ: «شربتُ»، يريد «الدواء»، دون أن يذكره لضيق صوره.

5- خشية إسأم السامع، كأن يقول المتكلّم لمخاطب أطال عليه الحديث وخشي سآمته : «باختصارٍ سافرتُ»، دون أن يذكر متى، وإلى أين، ومع مَنْ، وبأية وسيلة....

سابعاً – إيراد المسند فعلاً مقيداً بالشرط :

يؤتى بالمسند الفعليّ مقيَّدا بالشرط لدواعٍ تقتضي تقييده به. وتُعرف هذه الدواعي بالوقوف على معاني أدوات الشرط، وهو ما يبحثه علم النحو مفصّلا. ولا بدّ ههنا من الوقوف عند ثلاث من أدوات الشرط هي : إن،

إذا، لو؛ لما لها من أهمية في الاستخدام الجماليّ للغة. ولكن قبل ذلك لا غنى عن بعض الملاحظات :

1 - أنّ الشرط قيدٌ للفعل الواقع مسنداً في جملة الجزاء؛ أي إنّ الكلام المقصود بالإفادة في الجملة الشرطية (مجموع الشرط والجزاء) هو الجزاء، وليست جملة الشرط مقصودةً لذاتها. بل هي قيدٌ في الخبراء.

2 - أنّ جملة الخبراء قبل تقييدها بالشرط هي التي تحدّد نوع الجملة الشرطية (مجموع الشرط والجزاء) من حيث الخبرية والإنشائيّة؛ فقولك : «إنْ تحسُنْ إلى النّاس تستعبدْ قلوبَهُمْ» جملة خبريّة؛ لأنّ جملة الخبراء «تستعبد» خبريّة قبل تقييدها بالشّرط.. أمّا قوله سبحانه : «إن جاءكمْ فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا» فجملة إنشائية؛ لأن جملة الجزاء «فتبيّنوا» قبل تقييدها بالشرط جملة إنشائيّة.

3 - أنّ الأداة أخرجت فعل الشرط عن الخبريّة واحتمال الصّدق والكذب، كما أخرجته عن الإنشائيّة لأنّه بفعل الأداة صار مركّباً ناقصاً، ولا يوصف بالخبر والإنشاء إلا ما كان مركباً تامّاً.

- *الفرق بين «إنْ» و«إذا» و«لَوْ»* :

1 - تُستخدم «إنْ» الشرطية أصلاً في كلّ ما يُشكّ بوقوعه في المستقبل؛ ومن هنا كثر إتيانها لفظُ المضارع لاحتمال الشكّ في وقوعه.

2 - تُستخدم «إذا» الشرطيّة أصلاً في كلّ ما يقطع المتكلّمُ بوقوعه في المستقبل؛ ومن هنا لاتستخدم إلا في الأحوال الكثيرة الوقوع،

ويتلوها لفظُ الماضي لدلالته على الوقوع والحصول قطعاً.

وممّا يمثّل الصورتين من آي الذكر الحكيم قولُه سبحانه : «فإذَا جاءتْهُمْ الحَسَنَةُ قالوا لنا هذه، وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يطَّيّروا بموسى ومَنْ معه».

جيء في جانب الحسنة بلفظ الماضي مع «إذا»؛ لأنّ المراد الحسنة المطلقة، وهذه حصولُها أمرٌ محقق؛ ولهذا عُرّفت الحسنة تعريف الجنس (الحقيقة)؛ لأنّ وقوع الجنس كالواجب لكثرته واتساعه؛ وجيء في جانب السّيئة بلفظ المضارع مع «إنْ»، لأنّ السّيّئة نادرة الوقوع بالنّسبة إلى الحسنة المطلقة؛ ومن ثمّ نكّرت السّيّئة تنكير التقليل.

3 - تستخدم «لَوْ» للشرط في الماضي مع القطع بانتفائه، فيترتّب على ذلك انتفاء الخبراء، مع إمكان وقوع الجزاء لو وُجد الشرط. ويجب أن تكون جملتاها فعليّتين ماضويّتين، كقوله سبحانه : «لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لفَسَدَتَا»، وقوله سبحانه : «فللّهِ الحُجَّةُ البالغةُ، فلوشاءَ لهداكُمْ أجمعين».

– *الأغراض البلاغيّة لاستخدام «إن» في مقام الجزم بوقوع الشرط :*

أسلفنا أنّ الأصل في «إنْ» أن تُستخدم في المعنى المشكوك فيه، أو المتوهَّم وقوعه، لكنها قد تخالف هذا الأصل، فتُستخدم في المعنى المجزوم به إثباتاً ونفياً؛ لتحقّق أغراضاً كثيرة، منها :

1 - التجاهل حين يستدعي المقامُ ذلك – كما في قوله سبحانه : «قُلْ إنْ كانَ للرحمنِ ولَد فأنا أوّلُ العابدينَ». استُخدمت «إن» الموضوعة للشكّ

والتردّد في المعنى المجزوم بنفيه (نفي الولد عن الله تعالى)؛ تجاهلاً، لأنّ الموقف يستدعي عدم مصادمة المعاندين والتنّزل معهم ومسايرتهم وإرخاء العنان ولهم؛ لكي تلزمهم الحجة. وكما إذا استطلتَ ليلتك فتقول : «إن يطلع الصبحُ وينقضِ الليلُ أفعل كذا» تتجاهل طلوع الصبح وانقضاء الليل، وكلّ منهما أمرٌ مجزوم به، بسبب التولّه والتضجر.

2 - إجراء الكلام على اعتقاد المخاطب؛ بأن يكون المخاطب غيرَ جازمٍ بوقوع الشرط، والمتكلّم جازم بوقوعه، فيسوق المتكلّم وفقاً لاعتقاد المخاطب، كقولك لمن يكذّبك : «إن صدقتُ فماذا تفعل؟» مع تحقّقك من صدقك.

3 - تنزيل المخاطب العالم بوقوع الشرط - أو بعدم وقوعه - منزلةَ الجاهل؛ لمخالفته مقتضى علمه.

- *الأول* كقولك لمن يؤذى أباه : «إنْ كان أباكَ فلا تؤذِه». فالمخاطب جازم بأنه أبوه، وكان المقتضى أن تستخدم «إذا» التي للجزم، لكنّ تصرّفه المتمثّل في إيذائه أباه اقتضى تنزيله منزلة الجاهل بأن أبوه، فعبّر بـ«إن»؛ إجراءً للكلام على سنن حاله.

- *الثاني* كقولك لمن تستيقن كذبه : «إنْ صدقتَ فلا تخشى بأساً». فالمخاطب عالم بعدم وقوع الشرط (أى إنه غير صادق)، فكان المقتضى أن يعبّر له بـ«إذا» اليقينية، لكنّ المتكلّمِ حين رآه يكذب: ويتمادى نزّله منزلةَ الجاهل، فعبّر بـ«إن» إجراءً للكلام على سنن حاله تنزيلا.

4- التّوبيخ وتعبير المخاطب أو غيره على وقوع الشرط منه أو اعتقاده إياه، كما في قوله سبحانه : «أفنضربُ عنكُم الذكْرَ صفحاً إنْ كنتُ قوماً مسرفينَ» - على قراءة من كسر همزة «إن». والشاهد هنا استخدام «إنْ» الموضوعة للشكّ والتردّد في مقام الجزم (كونهم مسرفين)؛ بقصد التوبيخ وتصوير أن الإسراف من العاقل - أي استهزاءه بكتاب الله - لا ينبغي أن يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير كالمحالات، وذلك لاشتمال المقام على الآيات الدّالة على أنّ الإسراف ممّا لا ينبغي أن يصدر عن العاقل أصلا.

5- تغليب غير المتصف بالشّرط على المتصف به - كما إذا كان السّفر أمراً مؤكّداً لـ «أحمد» وغير مؤكدٍ لـ «سَعْد»، فتقول لهما : «إنْ سافرتُما عاقبتُكما». استخدمتَ «إن» الموضوعة للمشكوك فيه في المجزوم به، وهو سفر «أحمد»، لأنّك غلّبت مَنْ لم يُقطع بسفره «سَعْد» على من تحقّق منه السفر «أحمد». ومثله قوله سبحانه : «وإنْ كُنْتُمْ في ريبٍ ممّا نزّلْنا على عبدِنا». والشاهد استخدام «إنْ» الموضوعة للشكّ والتردّد في المجزوم به، وهو كون بعضهم مرتابين لا محالة، وحقّ التعبير عن هذا المجزوم به «إذا» الدّالة على القطع، لكنه حصل هنا تغليبُ غير المرتابين على المرتابين؛ إذ إنه لابدّ أن يكون بين المخاطبين من يعرف الحقّ وإنما ينكر عناداً وكِبْراً، فجعل الجميع في صورة من لا ارتياب لهم.

- استخدام «إذا» في الشرط المشكوك في ثبوته أو نفيه :

وقد تستخدم «إذا» الدالّة على القطع أصلاً في الشّرط المشكوك في ثبوته أو نفيه لأغراض، منها :

1- الإشعار بأنّ الشكّ في ذلك الشّرط لا ينبغي أن يكون مشكوكاً فيه، بل يجب الجزمُ به، كقولك : «إذا كثر المطُر في هذا العام أخصبَ الناسُ». والشّاهد مجيء «إذا» الدالّة على القطع مع الشرط المشكوك فيه، وهو كثرة المطر هذا العام؛ لنكتة وهي إشعار المخاطب أن الشكّ في كثرة المطر هذا العام أمرٌ ثابت ولا ينبغي أن يُشكّ فيه، بل يجب الجزم به.

2- تغليب المتّصف بالشرط على غير المتصف به، كقولك : «إذا لم تسافرْ عاقبتُك». إلى غير ذلك من الأغراض التي يدلّ عليها السّياق.

قاعدة بلاغية :

وجوب كون جملتَيْ الشّرطِ والجوابِ مع «إن» و«إذا» فعليّتين استقباليّتين :

لأنّ كلاً من «إنْ» و«إذَا» لتعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط في الاستقبال وجب أن يكون كلٌّ من جملتي الشرط والجواب مع كلّ منهما فعلية استقبالية؛ وذاك لأنّ الشّرط مفروض الحصول في الاستقبال فيمتنع ثبوته ومضيّه، والجزاءُ معلّقٌ حصوله على حصول الشرط في الاستقبال، ويمتنع تعليق حصول الحاصل الثابت على حصول ما يحصل في المستقبل. وذلك كقوله سبحانه : «وإنْ يستغيثوا

يُغاثُوا بماءٍ كالمهلِ». وكقول أبي ذؤيب الهذليّ

والنّفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ

- العدول عن استقباليّة جملتي الشرط والجواب لفظاً ومعني إلي استقباليّتهما معنيً فقط :

يُعدَل عن لفظ الفعل المستقبل في شرط «إن » و«إذا » وجزائهما لغرضٍ أساسيّ، هو :

إبرازُ غيرِ الحاصلِ في معرضِ الحاصل

أما أسباب هذا الإبراز وعلله فكثيرة، من أهمّها :

1 - قوة الدواعي المقتضية لحصوله، كقولك حالَ انعقاد أسباب الاشتراء : «إن اشترينا كذا كان كذا». كان مقتضى الظاهر أن يؤتى. بجملتي الشرط والجزاء فعليّتين استقباليّتين لفظًا ومعنيً، وهو ما تستدعيه «إن»، فيقال مثلاً : «إن نشترِ كذا يكنْ كذا»، ليتفق منطوقُ الكلام مع الواقع، إذ لم يحصل الاشتراء في الواقع، ولكن خولف الظاهر فعبّر بالماضي لقصد إبراز المعنى الاستقبالي الذي لم يحصل باللفظ الدالّ على المعنى الحاصل فعلاً؛ لقوّة أسباب انعقاد الاشتراء.

2 - كون المعنى الاستقباليّ ممّا شأنه الوقوع حتماً، فيعدّ كأنه واقعٌ في الماضي، كقولك : «إن متُّ ورثني فلان». كان مقتضى الظاهر أن يؤتى في الجملتين بالفعل المضارع لأنّه الدالّ على المعنى الاستقبالي الموافق للواقع، فيقال مثلاً : «إن أمتْ يرثْني فلانٌ»، ولكن خولف الظاهر فعبرٌ بلفظ الماضي؛ لغرض إبراز مالم يحصل باللفظ الدّالّ

على المعنى الحصال فعلاً؛ ومرجع ذلك أنّ الموت من شأنه الوقوع الحتمي، فعومل معاملة ما قد وقع حقاً .

3 – تفاؤل السامع به أو إظهار رغبة المتكلّم في وقوعه، كقولك : «إن ظفرتُ بحسن العاقبة تصدقتُ بكذا». مقتضى الظاهر أن يعبّر في الجملتين بلفظ المضارع، لكنّه خولف هذا الظاهر فعبّر بالماضي لغرض إبراز المعنى المستقبل باللفظ الدّال على المعنى الحاصل بالفعل؛ لأحد أمرين : بحصول التفاؤل للسّامع بحصول ما يُسَرّ به، وإظهار الرغبة من المتكلّم في بوقوعه ، فإنّ الطالب إذا عظمت رغبتُه في حصول أمرٍ يكثر تصوّرُه إيّاه، فربّما يخيَّل إليه حاصلاً، فيعبّر عنه بلفظ الماضي .

4 – التعويض، وهو أنّ يُنسب الفعل إلى واحدٍ، والمراد غيرُه مع وجود القرينة، كما في قوله تعالى : «لئنْ أشركتَ ليحبطنّ عملُك» والخطابُ هنا للمصطفى صلّى الله عليه وسلم، وعدمُ إشراكه أمرٌ مقطوع به، فكان المقتضى أن يؤتى في جملة الشرط بالفعل المضارع الدال على المعنى الاستقباليّ، لكنّه خولف الظاهر فعبرٌ بلفظ الماضي إبرازاً للإشراك، وهو غير حاصل البتّة، في معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير ؛ تعريضاً بمن صدر عنهم الإشراك بأنهم قد حبطت أعمالهُم . وممّا هو بيِّنٌ في ذلك قوله سبحانه : ولئنْ اتَّبعت أهواءَهُمْ بعدمَا جاءك من العِلْم إنّك إذاً لمنَ الظّالمينَ». قال صاحب الكشّاف : هذا كلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، وفيه لطف بالسامعين معين وزيادةُ تحذير ، واستفظاعٌ لحال من يترك الدليلَ بعد إنارته ويتبع الهوى .

وعن حسن التعريض في هذا الموضع يقول الخطيب القزويني : «ووجهُ حُسْنِه اسماعُ المخاطبينَ الحقَّ على وجهٍ لا يزيد غضبَهم، وهو تركُ التّصريح بنسبتهم إلى الباطل، ويُعين على قبوله لكونه أدخلَ في إمحاض النّصح، حيث لا يريد إلاّ ما يريد لنفسه » .

- *الأغراض البلاغيّة لدخول «لَوْ» على الجملة المضارعية :*

أسلفنا القول إنّ «لَوْ» للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط؛ فيترتّب على ذلك عدم الثبوت والمضيّ في جملتيها . وهذا هو مقتضى الظاهر، لكنّه قد يُخالف هذا المقتضى وتدخُل «لَوْ» على المضارع لأغراض يقتضيها المقام ، ومن ذلك :

1 - الإشارة إلى أن المضارع الذي دخلت عليه يُقصد استمراره فيما مضى : وقتاً بعد وقت، وحصوله مرّة بعد أخرى، كما في قوله سبحانه : «واعلَمُوا أنَّ فيكم رسولَ ا' ، لَوْ يطيعُكم في كثيرٍ من الأمْرِ لعنتُّمْ». مقتضى الظاهر أن تدخ' «لو» على ماضٍ فيقال مثالاً : «لو أطاعكم» لكنّه خولف المقتضى وعبّر عن الشّرط بلفظ المضارع للدلالة على امتناع استمرار فعل الإطاعة منه - عليه الصّلاة والسّلام - في الماضي . قال الزّمخشريّ : «إنما قيل يطيعكم دون أطاعكم للدلالة على أنه في إرادتهم استمرارُ عمله على ما يستصوبونه» .

2 - تنزيل المضارع منزلةَ الماضي؛ لصدوره عمّن المستقبلُ عنده كالماضي في تحقّق الوقوع ولا تخلّف في إخباره، كما في قوله سبحانه : «ولَوْ ترى إذ المجرمون ناكسُو رؤوسهمْ عند ربِّهمْ». معلوم أنّ رؤية المجرمين ناكسي رؤوسهم تحدث يوم القيامة، أي في المستقبل، ومن ثمّ عبّر

عنها بالمضارع الدّال على المستقبل، لكنّ دخول لو على المضارع خروج على المقتضى، لقصد تنزيل الفعل المضارع منزلة الماضي في تحقّق الوقوع، ولم يعبِّر عن هذا المستقبل بصيغة الماضي بعد تنزيله منزلته لأمرين :

1 – صدور الإخبار عمّن لا خلاف في إخباره ولا اختلاف في كلامه – وهو الباريء سبحانه – فالتّعبير بالماضي والمستقبل عنده سواء في تحقّق الوقوع .

2 – استحضار الصورة عند المخاطب، وهي صورة رؤية المجرمين ناكسي رؤوسهم، واعتدادها حاصلةً ماثلة أمامَ العين استشناعاً لها

ثامناً – إيراد المسند معرفةً :

يؤتى بالمسند معرَّفاً بإحدى طرق التّعريف لأغراض بلاغيّة، منها :

1 –إفادةُ السّامع الحكم على أمرٍ معلومٍ عنده بإحدى طرق التّعريف بأمر آخر مثله في كونه معلوماً للسامع بإحدى طرق التّعريف، كقولك : «علي أخوكَ» و«زيدٌ المنطلق» . ويحدث هذا عندما يكون المخاطب عالماً بأنّ هناك في الخارج ذاتاً معيّنة تسمّى «علياً»، ويعلم أنّ له في الخارج أخاً، لكنه لا يعرف أنّ تلك الذات المسمّاة «علياً» هي نفسها المتصفة بالأخوّة، فتقول له أنتَ : «عليٌّ أخوك»؛ فههنا المتصفة بالأخوّة، فتقول له أنتَ : «عليٌّ أخوك»؛ فههنا تكون قد أفدتّه الحكم . والأمر كذلك في «زيدٌ المنطلقُ» .

2 – إفادة السامع لازم الحكم على أمر معلوم بآخر مثله، كقولك : «خالدٌ الفائزُ»، ويحدث هذا عندما يكون المخاطب عالمٌ بأنّ ثمة في الخارج

ذاتاً معينّة تسمّى» خالداً وأنّ هذه الذات هي التي تتصف بـ «الفوز»، فتقول له أنتَ : «خالد الفائزُ»، فههنا تكون قد أفدتَه لازم الحكم؛ وهو أنّك عالمٌ بنسبة الفوز إلى خالد .

3 – إفادة قصره على المسند إليه «حقيقة» كقولك : «زيدٌ الأميرُ» إذا لم يكن أميرٌ سواه – أو «ادّعاءً»، كقولك : «عمروٌ الشجاعُ»؛ أي الكامل الشجاعة، فيخرج الكلام في صورة توهِمُ أنّ الشجاعة لم توجد إلاّ فيه ، وذلك لعدم الاعتداد بشجاعة سواه .

4 – تقريره للمسند إليه وبيان أن ثبوته له أمرٌ مقرّر لا يشك فيه أحد، وأنه ظاهر تماماً. ومنه في القريض قول حسّان رضي الله عنه :

وإن سنامَ المجدِ منْ آلِ هاشمٍ   بنُ بنتِ مخزومٍ ووالدكَ العبدُ

والشاهد قوله : «ووالدُكَ العبدُ»، حيث عرّف المسندَ، ذلك يقصد تقرير صفة العبوديّة لوالده وإثباتها له، وإعلان أنّ حاله في العبوديّة ممّا لا شبهة فيه، قال عبد القاهر : «ووالدُك عبد لم يكن قد جعل حاله في العبوديّة حالة ظاهرة متعارفة» .

ومنه قول الآخر :

أسودَ إذا ما أبدت الحربُ نابَها   وفي سائرَ الدّهرِ الغيوثُ المواطِرُ

فقد أكدّ سخاءهم وقرّره .

5 – الإشارة إلى بلوغ المسند إليه في الصفة مبلغ الكمال، وذلك كقولك : هو البطل المُحامي» .

وفي هذا الوجه يقول عبد القاهر : «إنّ للخبر فيه مسلكاً دقيقاً ولمحةً كالخلْسِ يكون المتأمّل عنده – كما يقال – يعرفُ وينكر»، ويقول فيه أيضاً:

«وهذا فنٌّ عجيبُ الشأن وله مكانٌ من الفخامة والنبل، وهو من سحرِ البيان الذي تقصر العبارةُ عن تأدية حقه». ومنه في الشعر قول ابن الرومي :

هوَ الرّجلُ المشروكُ في جُلِّ مالهِ ... ولكنّه بالمجد والحَمْدِ مفردُ

وقول الفرزدق يهجو الحجاج :

زمانَ هوَ العبدُ المقِرّ بذلّةٍ ... ولكنّه بالمجد والحَمْدِ مفردُ

وقول الأخطل في خالد بن عبد الله بن أسيد :

هوَ القائدُ الميمونُ والمتبقي بِهِ ... ثَبَاتُ رحى كانتْ قديماً تزلزلُ

ولعلك أدركتَ أنّ مجيء المسند الخبر معرّفاً بـ «أل» في الأبيات الثلاثة قد فعل فعله في تأكيد بلوغ المسند إليه مبلغ الكمال في الصّفة التي تضمنّها الخبر، فكأنّ ابن الرومي قال : هو الرجل المتصف بكمال الرجولة؛ وكأنّ الفرزدق قال : هو العبد المتصف بكمال العبوديّة؛ وكأنّ الأخطل قال : هو القائل المتصف بكمال القيادة .

تاسعاً - إيراد المسند نكرة :

يؤتى بالمسند نكرةً لأغراض بلاغية، أهمّها :

1- إرادة عدم الحصر والعهد، كأن تقول : «عليٌّ فارسٌ» و «محمّد طبيبٌ» حيث تريد مجرّد الإخبار بثبوت الفروسيّة لـ «عليّ» والطّب لـ «محمّد»، لا حصر الفروسية في عليّ، ولا الطبّ في محمّد، وكذا لا يراد أنّ أحدهما معهود، بحيث يُراد الفروسيّة المعهودة، أو الطّبّ المعهود .

2 - التّفخيم والتّعظيم، كما في قوله سبحانه : «هدى للمتّقين»؛ فـ «هدى»

يصحّ أن تكون خبراً لـ «ذلك الكتاب»، أو خبر المبتدأ محذوف أي : «هو هدى للمتّقين»، حيث جيء بالمسند منكراً للدلالة على فخامة هداية الكتاب وكمالها، وأنها بلغت مبلغاً عظيماً. ومثله قوله سبحانه : «إنَّ زلزلةَ السّاعة شيء عظيم» .

3- التّحقير والإهانة، كما تقول : «الحاصلُ لي من هذا المالِ شيء حقير».

عاشـــراً - إيـراد المسند مقـــدماً :

يقدّم المسندُ على المسند لأغراض، منها :

1 - تخصيصه بالمسند إليه على المسند، كقولك : «مسلمٌ أنا» و«عربيٌّ أنا». حيث أفاد تقديمُ المسند في المثالين «مسلم» و«عربي» قصرَك على صفة الإسلام، ثم العروبة، لا تتجاوزها إلى صفة أخرى ككونك شرقياً أو غربياً، مثلاً .

ومن هذا قوله سبحانه : «لا فيها غولٌ». الغَوْل مايتبع شربَ الخمر في الدنيا من وجع الرأس وثقل الأعضاء، وتقديم المسند هنا لإفادة قصر المسند إليه «غَوْل» على هذا المسند «لا فيها». ويقول البلاغيون إنّ المراد هنا أحدُ أمرين :

- قصرُ الغَوْل على اتصافه بعدم حصوله في خمورالجنة، فلا يتجاوز إلى اتّصافه بحصوله في خمور الدّنيا .

- قَصرُ عدم الغول على اتّصافه بحصوله في خمور الجنة، فلا يتجاوزه إلى إتّصافه بعدم حصوله في خمور الدنيا .

ومنه قوله سبحانه : «لكم دينكم ولي دينِ » أي : دينكم مقصورٌ على اتّصافه بكونه لكم، لا يتجاوز إلى اتصافه بكونه لي؛ وديني مقصورٌ على الاتصاف بكونه لي لا يتجاوز إلى اتصافه بكونه لكم .

2- التّنبيه من أول الأمر على أنّ المسند خبرٌ لا نعت، كقول حسّان يمدح المصطفى عليه الصّلاة والسّلام :

لهُ هِممٌ لا منتهى لكِبارِهَا وهِمّتُه الصُّغرى أجلُّ من الدّهرِ
له راحة لو أنّ معشارَ جودِها على البَرِّ كان البَرُّ أندى من البحرِ

والشّاهد في قوله : «له هممٌ»، حيث قدّم المسند على المسند إليه تنبيهاً من أوّل الأمر على أن المقدّم خبرٌ لا نعت. ومثله قوله : «له راحة»؛ إذ أفاد تقديم المسند «له» على المسند «راحة» أنّ المقدّم خبر لا نعت .

ومنه قوله سبحانه : «ولكُمْ في الأرض مستقرّ» من أول الأمر أنّ المقدم خبر لا نعت .

3- التفاؤل، أي إسماع المخاطب من أوّل الأمر ما يسُرّ، كما تقول لمن ينتظر إجابةً منك : «إيجاب» أي «إيجابُ الأمرُ أو الحالُ»، وتقول العامّة في زماننا : «حِنْطةٌ» أي «حِنْطةُ الأمرُ»؛ بمعنى : جيد، لإيثارهم الحِنْطة على الشعير، وتقول لصاحبك : «ناجحٌ أنتَ»، ومنه في الشعر قول الشاعر :

سَعِدتْ بغرّةِ وجهكَ الأيّامُ وتزيّنتْ ببقائِكَ الأعوامُ

حيث قدم المسند «سعدتْ» والمسند «تزيّنتْ» على المسند إليه «الأيّامُ» و«الأعوامَ» يقصد إسماع المخاطب منذ البدء ما يتفاءل به .

4- التّشويق إلى ذكر المسند إليه بتضمّن المسند ما يشوّق إلى تعرّف المسند إليه. ومنه قول محمد بن وهيب يمدح الخليفة المعتصم :

ثلاثةٌ تُشرقُ الدنيا ببهجتها   شمسُ الضّحى وأبو إسحق والقمر

جيء بالمسند الخبر «ثلاثةٌ» مقدّماً ؛ لاشتماله على وصف مشوّق لذكر المسند إليه .

وكذا قول الشاعر :

وكالنّار الحياةُ فمنْ رماد   أواخرُها وأوّلُها دخانُ

قدّم المسند الخبر «كالنار» على المسند إليه «الحياة»؛ لاشتماله على وصف مشوّق إلى المسند إليه .

5- المساءة نكايةً بالمخطب، كقول المتنبّي :

ومن نكَدِ الدنيا على الحرِّ أنْ يرى   عدواً ما مِنْ صداقتِهِ بُدُّ

قدّم المتنبي المسند «ومن نكد» على المسند إليه (المصدر المؤوّل المقدرّ بـ «رؤية»)؛ لإظهار أنّه مستاء من المخاطب مريداً لإغضابه . وتقدير الكلام : رؤيةُ الحرِّ عدواً لابدَّ من صداقته من نكد الدّنيا وإيلامها .

أسئلة وإجاباتها حول أحوال المسند (1)

- أذكر دواعي إيراد المسند على أحواله المختلفة من : ذكر وحذف، وتعريف وتنكير ، وتقديم وتأخير ، وغير ذلك من الأحوال في الجمل الآتية :

1 – ذاك نهرُ الفراتِ .

2 – أنتَ في بيتك ونحن في بيوتنا مقيمون .

3 – الله ربّي . محمّد نبيِّي . أبو ريشة الشّاعِرُ . هو الوفيُّ حين تشتدّ الخطوب .

4 – لو نحن نعلم مافي الغيب لاخترنا الواقع .

5 – أنت أخيرٌ .

6 – يقدّسُ له آناءَ الليل وأطراف النهار رجالٌ مخلصون .

7 – قال سبحانه : «هدًى للمتقين» .

8 – عنترة فارسٌ شاعر وحسّان شاعرُ الرسولِ عليه الصّلاة والسّلام .

9 – قال سبحانه : «لم يكن شيئاً مذكورا» .

10– قال سبحانه : «لله مُلكُ السموات والأرض» .

- *الإجـــــابات :*

1 – عرّف المسند «نهر الفرات» بالإضافة؛ لإفادة السامع حكماً بأمرٍ معلومٍ له على أمر آخر معلوم له كذلك .

2 – حذف المسند إلى أنت؛ احترازاً عن العبث في ذكره لقيام القرينة

عليه في قوله «ونحن في بيوتنا مقيمون»؛ إذ يقدَّر الكلام هكذا أنت في بيتك مقيم ونحن في بيوتنا مقيمون

3 – عرّف المسند «ربّي» و«نبيّي»؛ لإفادة قصره على المسند إليه حقيقة؛ وعرّف المسند «الشّاعرُ»؛ لقصره على المسند إليه «أبو ريشة» ادّعاءً، مبالغةً لكمال معنا . في المسند إليه؛ فإنّ معنى هذا التّعبير : أبو ريشة هو الكاملُ الشّاعرية وعرّف المسند «الوفيّ»؛ لإفادة قصره على المسند إليه على سبيل الحقيقة منظوراً فيها إلى التّقييد بالظرّف .

4 – حذف المسند إلى «نحن» وتقديره «نعلم»؛ اتباعاً للاستعمال الوارد على حذفه في مثل هذا التركيب، فإنّ «لو» لا تدخل في استعمالات العرب إلاّ على الأفعال.

5 – جذف المسند إلى «رجال» وتقديره «يقدّس»؛ لتقدّم قرينة عليه، هي وقوعه في جواب سؤال مقدَّر؛ فكأن سائلاً سأل : ومن يقدّس له؟ فقال : رجال مخلصون أي يقدَّس له رجالٌ مخلصون.

6 – حذف المسند إلى «رجالٌ» وتقديره «يقدّس»؛ لتقدّم قرينة عليه، هي وقوعه في جواب سؤال مقدَّر؛ فكأن سائلاً سأل : ومن يقدّس له؟ فقال : رجال مخلصون، أي يقدَّس له رجال مخلصون.

7 – نكَّر المسند «هدى»؛ لإفادة التفخيم؛ إذا المعنى – والله أعلم – هدى لا يُكتنَه كُنهه.

8 – خُصِّص المسند «فارس» بالوصف «الشاعريّة». وخصّص المسند «شاعر» بالإضافة إلى الرسول عليه الصّلاة والسّلام؛ لتكون الفائدة أتمَّ ببيان أنّ عنترة فارسٌ، وهو مع ذلك شاعر لا مفحَم، وأنّ حسّان

شاعر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لا شاعر غيره من النّاس.

9 - نكّرا المسند «شيئاً»؛ لقصد التّحقير.

10 - قدّم المسند «تكُم»؛ لإفادة تخصيصه بالمسند إليه؛ أي قصر المسند إليه على المسند؛ فإنّ المعني هو : ملكُ السموات والأرضِ مقصورٌ على الاتصاف بأنه لله.

أسئلة وإجاباتها حول أحوال المسند (2)

— أذكر دواعي إيراد المسند على أحواله المختلفة من : ذكر وحذف، وتعريف وتنكير وتقديم وتأخير، وغير ذلك من الأحوال في الجمل الآتية:

1 - أبو عبيدة انتصر، وعمر أمره نافذ

2 - قال سبحانه : «ولكمْ في الأرض مستَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين».

3 - له عزمةٌ لاتنثني.

4 - سعدنا بقدومك.

5 - أحمد حفظ القرآن في بيته

6 - ثلاثةٌ ليس لها إياب الوقتُ الجمالُ والشباب

7 - في عافيةٍ أنت.

8 - صحتي جيدة ورزقي على ربّي.

9 - عربيٌ أنا.

10- «محمدٌ نبينا» في إجابة من قال : من نبيكُمْ؟

- الإجـــابات :

1 – جيء بالمسند الأول «انتصر» جملةً لقصد إفادة تقوّي الحكم. وجيء بالمسند الثاني «أمره نافذٌ» جملةً لكون هذا المسند سببيًا أي جملةً علّقت على مبتدأ بعائد ليس هو مسنداً إليه في هذه الجملة.

2 – قدّم المسند «له» التّنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت.

3 – قدّم المسند «سعدنا» للتفاؤل بسماع ما يسرّ المخاطب

4 – قُيّد المسند «حفظ» بالمفعول «القرآن» والظرف «في بيته» لقصد تربية الفائدةوتكثيرها

5 – قدّم المسند «ثلاثة...» يقصد التشويق إلى المسند إليه.

6 – قدّم المسند «في عافية» لقصد التفاؤل بسماع ما يسرّ.

7 – ذكر المسند «على ربّي» لضعف التعويل على القرينة السّابقة؛ إذ لو حذف «على الله» لما دلّ عليه «جيّدة»..

8 – قدّم المسند «عربيّ»؛ لإفادة تخصيصه بالمسند إليه؛ أي قصر المسند إليه على المسند.

9 - ذكر المسند «نبيُّنا» رغم علمه من قرينة السؤال؛ للتعريض بغباوة السائل والإشارة إلى أنّه بليد، لا يفهم مما تقدّمه القرينة.

أسئلة وإجاباتها حول أحوال المسند (3)

– أذكر دواعي إيراد المسند على أحواله المختلفة من : ذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وغير ذلك من الأحوال في الجمل الآتية :

1 – الطلبةُ يذكرونَ دروسَهم.

2 – قال سبحانه : «يخادعونَ اللهَ وهو خادعُهم».

3 – قال سبحانه «ولئنْ سألتَهمْ مَنْ خلقَ السموات والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ».

4 – قال سبحانه : «إنَّ اللهَ بريءٌ منَ المشركينَ ورسولُه».

5 – الطلاّبُ في فصولهم.

6 – دينُ الإسلام فخرٌ للمسلمين.

7 – قال سبحانه : «كلَّما دخلَ عليها زكريَّا المحرابَ وجدَ عندها رزقاً».

8 – قال سبحانه : «لولا أنتم لكنّا مؤمنين».

9 – أحمد الأديبُ وسعيد خطيبُ الحيِّ».

10– وصل القطارُ.

– *الأجـــابات :*

1 – جيء بالمسند «يذكرون» فعلاً؛ لقصد تقييده بأحد الأزمنة الثلاثة، والدلالة على التجدّد والاستمرار على أخصر وجه.

2 – ذكر المسند الأول يخادعون»؛ لإفادة أنّه فعل، حيث يفيد التجدّد

والحدوث، والتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة. وذكر المسند الثاني «خادعهم»؛ لإفادة أنه اسم، حيث يفيد الثبوت مطلقاً.

3 - حذف المسند إلى «الله» ويقدّر بـ «خلقهنّ»؛ لدلالة القرينة عليه في السؤال.

4 - حذف المسند إلى «ورسولهُ»، ويقدّر بـ «بريءٌ منهم أيضاً». للاحتراز عن العبث : إذ لو ذكر هذا المحذوف لكان ذكره عبثاً؛ لأنه لا حاجة إليه.

5 - جيء بالمسند ظرفاً (جاراً ومجرورا) لقصد اختصار الكلام؛ فهو أخصر من أن يصرّح فيه بالمتعلّق.

6 - ذكرّ المسند «فخر»، للدلاّلة على كمال الفخر، وأنّه بلغ مبلغاً عظيما.

7 - قيّد المسند «دخل» بالشرط؛ لإفادة تكرار وجود الرزق عندها بتكرار الدخول.

8 - حذف المسند إلى «أنتم»، ويقدّر بـ «موجودون» إتباعاً للاستعمال الوارد على حذفه.

9 - عرّف المسند الأول بـ «ال»، والمسند الثاني بالإضافة؛ لإفادة السامع الحكم بأمر معلوم له على أمر آخر معلوم له كذلك.

10- جيء بالمسند مجرداً عن التقييد: لقيام المانع من إكمال الفائدة؛ وهو خوف فوات الفرصة لو أنّه قال : وصل القطار إلى الموقف.

المبحث الرابع - أحوال متعلقات الفعل

ويتضمن:

- دواعي تقديم بعض المعمولات على بعضٍ
- أغراض تقديم المفعول ونحوه على الفعل

دواعي تقديم بعض المعمولات علي بعض :

يحدث أن يقدّم بعض معمولات الفعل على بعضٍ لدواعٍ، أهمّها :

1 – أصالة تقدّم بعضها على بعض، ولا مقتضى للعدول عن تلك الأصالة، كالفاعل في قولك : «قرأ أحمدُ الكتابَ»؛ حيث قُدّم الفاعل على المفعول لأنّه عمدة في الكلام، وحقّه أن يلي الفعل. ويشبهه في أصالة التّقديم «المفعول الأول»، كقولك : «أعطيتُ محمداً ديناراً»؛ حيث قُدّم المفعول الأول «محمّدا»؛ لأنّ أصله التّقديم، لما فيه معنى الفاعليّة، أي آخذُ العطاءَ.

2 – كون ذكره أهمّ والعناية به أتمّ، وذلك بأن يكون تعلّق الفعل بذلك المقدّم هو المقصود بالذّات تبعاً لاعتناء المتكلّم أو السامع بشأنه، كقولك : «أنشأتِ الجامعة شركةً وطنية». ذلك لأن الأهمّ في تعلّق الإنشاء هو الجامعة المنشأة، ليرتادها نشّاد الثقافة. ويتجلى ذلك واضحاً في الآيتين الكريمتين :

«ولاَ تقتلُوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقُكُمْ وإيّاهُمْ»

«ولاَ تقتلُوا أولادكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقُهُمْ وإيّاكُمْ»

حيث قُدم ذكرُ المخاطبين في الأولى «نرزقُكُمْ وإيّاهُمْ» دون الثّانية «نرزقُهُمْ وإيّاكم» لأنّ الاخطاب في الأولى للفقراء، وهؤلاء رزقهُم أهمّ عندهم من رزق أولادهم لأنهم يعيشون بأنفسهم آثار الفقر والفاقة، وهكذا قُدّم الوعدُ برزقهم على الوعد برزق أولادهم لاستدعاء المقام ذلك. أمّا الخطاب في الثّانية فللأغنياء وهؤلاء رزقُ أولادهم هو المطلوب عندهم دون رزقهم لأنهم مرزوقون، وهكذا قدّم الوعد برزق

أولادهم على الوعد برزقهم لاستدعاء المقام ذلك.

3 – أن يتضمّن تأخير المفعول إخلالاً بالدلالة المرادة، فداعي التقديم دفعُ توهّم غير المراد. كما في قوله سبحانه : «وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعونَ يكتُمُ إيمانَه». قُدّم قوله سبحانه : «منْ آلِ فرعونَ» على قوله «يكتُمُ إيمانَه» حتى لا يُتوهّم أنّ «منْ آلِ فرعونَ» متعلقٌ بـ «يكتم»؛ ويترتب على ذلك إخلال بالمعنى المراد، وهو بيان أن الرجل من آل فرعون لإفادة ذلك مزيدَ عناية به ورعاية له من الباريء، سبحانه.

4 – أن يتضمّن التأخيرُ إخلالاً بالتّناسب الموسيقيّ، فيقدَّم لرعاية الفاصلة، كما في قوله سبحانه : «فأوجسَ في نفسهِ خيفةً موسى». حيث قُدّم في الآية الكريمة الجار والمجرور «في نفسه» والمفعول له «خيفة» على الفاعل «موسى» لرعاية مابعده من الفواصل المختومة بالألف، لتكون الألفاظُ على نسقٍ واحد يخلب اللبَّ ويأخذ بزمام السمع. وهذا ملمح موسيقيّ تحرص عليه لغة البيان العالي.

أغـراض حـــذف المفعـــول :

يُحذف المفعول أحياناً من اللفظ، ويجعل البلاغيّون لحذفه شرطين : وجود القرينة، الغرض الموجب للحذف. والحقّ أنّ الأغراض الموجبة للحذف كثيرة، ولكنّ أهمها :

1 – البيان بعد الإبهام، كما في فعل المشيئة والإرادة ونحوهما، إذا وقع شرطاً. وذلك كما في قوله سبحانه : «ولو شاء الله لهداكم أجمعين». أي : لو شاء اللهُ هدايتكم لهداكم أجمعين». وتتمثل جماليّة الحذف هنا في أنّه عندما قيل «لو شاء» وقع في نفس المتلقيّ أنّ ثمة شيئاً تعلّق

به فعلُ المشيئة من حيث وقوعُه عليه، لكنّه مبهمٌ عنده، فعندما جاء الجوابُ أبانه وأوضحه بعد الإبهام الذي اكتنفه أولاً، وإذ ذاك تتلقاه النّفس تلقي المترقب المنتظر فيقع منها موقع الماء البارد من فؤاد الظامىء.

ومثله قوله سبحانه :«فإنْ يشأِ اللهُ يختِمْ على قلبِكَ»؛ أي إن يشأِ اللهُ الختم على قلبِكَ يختمْ عليه.

ومنه في حالة النّفي مما جاء في الشّعر قول البحتري :

لو شئتَ لم تُفسدْ سماحةَ حاتمٍ كرماً، ولم تهدمْ مآثرَ خالدِ

أي : لو شئت عدمَ إفسادِ سماحةِ حاتم وعدم هدْم مآثر خالد لم تفسد ولم تهدم، لكنّه حذف مفعول المشيئة قصداً إلى البيان بعد الإبهام.

واشترط البلاغيون ألا يكون في تعلّق الفعل بالمفعول غرابة، إذ بوجود الغرابة لا غنى عن ذكر المفعول لِتُقَرُّره في نفس السّامع وتؤنسه به، كأن تقول : «لو شئت أن أغدو وزيراً غداً لغدوتُ»، و«لو أردتُ أن أردّ على الأمير لرددتُ». ويستشهدون على ذلك بقول الشاعر :

لو شئتَ أنْ أبكي دماً لبكيتُهُ عليهِ، ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

والشاهد قوله : «أن أبكي دماً»، حيث ذكر المفعول بعد فعل المشيئة في الشرط لغرابة أن يبكي الإنسان دماً؛ وذلك ليتقرّر في نفس

السّامع ويأنس به.

2 - دفع توهّم إرادة غير المراد ابتداءً - كقول البحتري :

وكم ذُدتَ عنّي مِنْ تحاملِ حادثٍ وسَوْرةِ أيّامٍ حَزَزْنَ إلى العظم

معنى «حززْن» : قطعن اللحمَ إلى العظم. وههنا حُذف المفعول «اللحم»؛ لئلا يتوهم السّامع، قبل ذكر «إلى العظم»، أنّ الحزّ كان في بعض اللحّم، ولم ينته إلى العظم، وهكذا جاء الحذف دفعاً لهذا التوهّم ابتداء قبل مجيء القيد.

3 - إرادة ذكر المفعول ثانياً، على نحو يتضمّن إيقاعَ الفعل على صريح لفظه، لا على الضمير العائد إليه؛ إظهاراً لكمال العناية بوقوع الفعل عليه. كما في قول البحتري :

قد طلبْنَا فلمْ نجدْ لكَ في السُّؤْ دَدِ والمجدِ والمكارمِ مِثْلاَ

الشاهد في قوله : «قد طلبنا»، حيث حذف مفعول طلب وهو «مثْلا»؛ لقصد إيقاع الفعل «لم نجد» على صريح لفظ «مثلا» بدلاً من ضميره كأن يقول : قد طلبنا مثْلاً لك فلم نجده. وماجاء به البحتري مناسبٌ للمبالغة في المدح التي يناسبها مايكون نصاً صريحاً. ولأجل هذا المعني عكس ذو الرّمة في قوله هاجياً :

ولم أمدحْ لأرضيَهُ بِشِعْري لئيماً أنْ يكونَ أصاب مالا

إذ كان مراده إيقاع نفي المدح على اللئيم صريحاً وإيقاع الإرضاء

على ضميره، وفي هذا مافيه من قصد التحقير والتّهوين.

4 – قصد التّعميم في المفعول المحذوف مع الاختصار، كأن تقول : «لقد حدثَ مايفجع»؛ أي كلَّ أحدٍ، فقد حذف المفعول هنا لقصد إفادة العموم بقرينة أن المقام للمبالغة في وصف الفاجعة.

ومنه قوله سبحانه : «واللّهُ يدعُو إلى دارِ السَّلام»؛ أي جميعَ عباده. وفارق مابين إفادة العموم في المثالين أنّها في الأول على طريق المبالغة، وفي الآية الكريمة على طريق التّحقيق.

5 – قصد الاختصار الصّرف عند قيام قرينة، كقولهم : «أصغيتُ إليه» أي : أذني. وقد حذف المفعول هنا لمجرّد الاختصار. ومنه قوله سبحانه : «ربِّ أرِني أنظرْ إليكَ»؛ أي أرني ذاتك.

6 – رعاية الفاصلة أو مراعاة الوزن في المنظوم :

– الأول كقوله سبحانه : «والضّحَى والليلِ إذا سجى ماودّعكَ ربُّكَ وماقَلى».

أي : «ماقلاك»، بمعنى : «ماكرهك». وقد حذف المفعول هنا حفاظاً على رويّ الفاصلة في «والضّحى» و«سجى»، و«الأولى»…. إلى آخر السورة.

– الثاني كما في قول الشاعر :

بناها فأعلي والقنا يقرعُ القّنا ومَوجُ المَنَايَاحولَها متلاطِمُ

أي : «فأعلاها»؛ وقد حذف المفعول حفاظاً على وزن البيت؛ فهو ضرورة.

7 – استهجان ذكر المفعول – كما في قول السيّدة عائشة رضي الله عنها تتحدّث عن المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم : «مارأيتُ منهُ ولا رأى منّي»، أي العورة؛ وقد حذفت المفعول استهجاناً لذكره.

8 – قصد إخفائه عن الآخرين خوفاً عليه، كقولك : «السلطانُ يحبُّ ويكره». ويكون ذلك بوجود القرينة على المحذوف كأن تريد أن تقول : يحبّني ويكره أحمد، مثلاً.

9 – التمكّن من إنكاره إن مسّت الحاجةُ إليه – كأن تقول : «قاتلَ اللّهُ» وتسكت، تريد «فلاناً» من الناس بوجود قرينة عليه. وههنا حذفتَ المفعول ليكون في مقدورك إنكاره إذا ما اتُّهمت بالدعاء على فلان. فتقول مثلاً : ماقصدته.

10 – تعيّنهُ حقيقةً أو ادّعاء :

– الأول كقولك : «نحمدُ ونشكرُ»، تقصد «اللّه» سبحانه. حذفتَ المفعول ههنا لتعيُّن (ثبوت) أنه المحمود المشكور حقيقة، وكقولك : «شربت الدّابةُ» تريد : الماءَ. وقال سبحانه: «لينذر بأساً شديداً»، أي : الذين كفروا .

– الثّاني كأن تقول : «تمرُّ وتزورُ»؛ أي تمرّ دار فلانٍ وتزوره. حذفت المفعول لادّعاء تعيّنه وأنّه مستحقُّ الزيارة الأوحد في البلد.

11 – إيهام صونه عن لسانك لسموّ منزلته، أو صون لسانك عنه لدنوّ منزلته :

– الأول كقولك : «نخشى ونتقي»؛ تريد : الله جلّ وعلا.

– الثاني كقولك : «لعن الله وطرد»؛ تريد : إبليسَ، عليه لعنة الله.

أغراض تقديم المفعول ونحوه على الفعل :

الأصل في العامل أن يُقدّم على معموله، لكنّ الأمر قد يُعكس فيتقدّم المعمول من مفعول ونحوه من سائر المعمولات على الفعل لأغراضٍ بلاغية تستدعيها المقامات، ومن ذلك :

1 – إفادة التخصيص، أي قصر الفعل على معموله لا يتعدّاه إلى غيره، كما في قوله سبحانه : «إيّاك نعبدُ وإيّاكَ نستعين». أي : نخصك بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك، ولا نستعين به. وكقولك : «خالداً رأيتُ»، تقدّم المفعول على الفعل بقصد إفادة قصر الرؤية على خالد.
وغالباً مايكون ذلك لردّ خطأ المخاطب في تعيّن المفعول.

2 – مجرّد الاهتمام بأمر المقدّم. كقولك : «الحقَّ قلتُ» و«العيشَ الذليلَ أبيتُ».

3 – المُسارعة في التبرّك به أو التلذّذ أو المسرّة أو المساءة. وأمثلة ذلك على الولاء :
– «اللّهَ سألتُ». و«خاتمَ المرسلين صلّى الله عليه وسلّم، أجبتُ».
– « طرابلسَ قصدتُ» و «وطني عشقتُ».
– «خيراً لقيتُ» و«راحةً أنستُ».
– «راحلاً غيرُ آيبٍ ودّعتُ» و«شراً كُفيتُ».

4 – كون المعمول محطَّ إنكار. كأن تقول : «أطولَ الدهرِ ترحلُ وتنزلُ؟». حيث قُدّم معمول ترحل وهو «طولَ الدهر»؛ لكونه محطّ الإنكار. ومن هذا قول أبي ذؤيب الهذلي :

أمنَ المنونِ وريبها تتوجّعُ والدهرُ ليس بمعتبٍ من يجزعُ

قدّم الشاعر الجار والمجرور «من المنون» - وهما معمول الفعل تتوجّع - لكونهما محطّ إنكار وتعجّب

وكقول الشاعر :

أكُلّ امرىءٍ تحسبين امرأً ونارٍ توقّدُ بالليل ناراً

5 - مجاراة كلام السامع - كأن تقول : «محمداً قصدتُ» في إجابة من سألك :

«من قصدتَ ؟». قدّمتَ المفعولَ ليوافق مقابله في السؤال : مَنْ الاستفهامية.

6 - الحفاظ على الوزن في الشعر أو رعاية الفاصلة في النثر :

- الأول كقول الشاعر :

سريعٌ إلى ابن العمّ يلطمُ وجهَهُ وليس إلى داعي الندى بسريع

أي : بسريع إلى داعي الندى. حيث قدّم الجارّ والمجرور «إلى داعي» على متعلّقه «سريع» للمحافظة على الوزن في الشعر.

- الثاني كما في قوله سبحانه : «خُذُوه فغلّوه، ثمّ الجحيمَ صلّوهُ، ثمّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذِراعاً فاسلكُوهُ». وكقوله سبحانه : «فأمّا اليتيمَ فلا تقهر، وأمّا السائلَ فلا تنهَرْ».

ففي الآية الأولى قُدّم المفعول «الجحيمَ» على الفعل «صلّوه»، وقُدّم الجار والمجرور «في سلسلَة» على الفعل «فاسلكوهُ» مراعاةً للفاصلة، وكذا في الآية الثانية قُدّم المفعول «اليتيمَ» على الفعل «تَقْهَرْ» والمفعول «السائلَ» على الفعل «تَنْهَرْ» مراعاة للفاصلة أيضاً.

والفواصل هي أواخر آيات التنزيل بمنزلة قوافي الشعر، وهي في الآية الأولى الكلمات المنتهية بهاء، وفي الثانية الكلمات المنتهية براء.

أسـئلة وإجاباتها حول متعلقات الفعل (1)

– بَيّنْ أسباب حذف المفعول أو تقديمه على الفعل فيما يأتي :

1 – قال سبحانه : «فلوْ شاءَ لهداكُمْ أجمعين».

2 – برٌ حشايَ إن استطعتَ بلفظةٍ فلقدْ تضرُّ إذا تشاءُ وتنفع

3 – قال سبحانه : «إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين».

4 – أردنا فلم نجد مثيلاً لكَ في الشّجاعة.

5 – قال سبحانه : «خذوه فغلُّوه ثمّ الجحيمَ صلُّوه».

6 – وجدتُ فيكَ مايسرُّ.

7 – قال سبحانه : «والضّحى والليلِ إذا سجى ماودّعَكَ ربُّكَ وماقلى».

8 – آياتٍ بيّناتٍ تلوتُ.

9 – قال سبحانه : «أهذا الذي بعثَ اللّهُ رسولا».

10 – حَسَنَ السيرة – رافقتُ.

11 – قال سبحانه : «ولْتَكُنْ منكمْ أمّةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروف».

12 – سلمى كلّمتُ.

13 – قال سبحانه : «فإنْ يَشأ اللهُ يختمْ على قلبِكَ».

14 – صعدنا إلى القمّة.

15– التقيتُ بخصمي فتراشقْنا ببذيءِ الكلام، فقال لي، وقلتُ له.

16 – اللهَ الكريمَ أسألُ.

الإجـــــــابات :

1- حذف مفعول شاء، وتقديره «هدايتكم»؛ للبيان بعد الإبهام؛ ليكون أوقع في النفس.

2- حذف مفعول تضرّ وتنفع، حيث تقدير الكلام : تضرّني وتنفعني؛ لتنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللازم؛ فإن المراد : يحصل منك ضرر ونفع.

3- قدم المفعول «إيّاكَ» في الموضعين؛ للتخصيص؛ إذ المعنى : نخصّك بالعبادة ونخصُّك بالاستعانة.

4- حذف مفعول أردنا وتقديره «مثيلا»؛ لإرادة ذكره ثانياً على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه؛ لكمال العناية به والاهتمام بوقوعه.

5- قدّم المفعول «الجحيمَ» على الفعل؛ لرعاية الفاصلة.

6- حذف مفعول مايسرّ، وتقديره «كلَّ أحد»؛ لقصد التعميم مع لاختصار.

7- وحذف مفعول «قلى»؛ لرعاية الفاصلة السابقة؛ إذ تمام الكلام : قلاكَ.

8- قدّم المفعول «آياتٍ» على الفعل؛ للتبرّك به .

9- حذف مفعول بعث وتقديره «بعثه»؛ لمجرّد الاختصار.

10- قدّم المفعول «حَسَنَ»؛ للاهتمام به .

11 – حذف مفعول «يدعون» وتقديره «الناسَ»، ومفعول «يأمرون»، وتقديره «الناسَ» أيضاً؛ لقصد التعميم مع الاختصار.

12 – قدّم المفعول «سلمى» على الفعل؛ للتلذّذ بذكر المقدّم.

13– حذف المفعول وتقديره «الختم»؛ لبيان بعد الإيهام.

14– حذف المفعول وتقديره «الجبلَ» مثلاً؛ لدفع توهّم غير المراد ابتداءً؛ إذ لو ذكر الجبل قبل «إلى القمّة»، لربّما توهّم المتلقي أنّ الصّعود كان إلى بعض الجبل، وهو غير مراد.

15– حذف مفعول قال وقلت؛ لاستهجان التّصريح به .

16– قدّم المفعول؛ للتعجيل بالتيمّن به .

أسئلة وإجاباتها حول تقديم بعض متعلّقات الفعل (2)

– بيّن الأسباب التي دعت إلى تقديم بعض متعلّقات الفعل فيما يأتي :

1 – أنشا يمزِّق أثوابي يؤدبني   أبعدَ شَيْبي يبْغِي عِنْدِيَ الأدَبَا ؟

2 – في منزلي استقبلتُك .

3 – أبعدَ أن بات عبدُ اللهِ مرتَهَناً   تحتَ الثّرى يُرتجى صَفْوٌ وينتَظَرُ

4 – فرِحاً قُلتُ لكَ .

5 – بِيَدِ العفافِ أصونُ عزَّ حجابي   وبعصمتي أسمو على أترابي

6 – قال سبحانه : « وبالآخرةِ همْ يوقنونَ» .

7 – قال سبحانه : «لتكونُوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيدا».

8 – قال سبحانه : «بَل اللهَ فاعبُدْ وكُنْ منَ الشاكرينَ» .

9 – إلى اللهِ كلُّ الأمرِ في الخَلقِ كلِّهِمْ   وليس إلى المخلوق شيءٌ مِنَ الأمر

10– سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يلطمُ وجهَهُ   وليس إلى داعي النّـدى بسريعِ

11– إلى اللهِ أشكو لا إلى الناسِ حبَّها   ولابدَّ منْ شـكوى حبيبٍ يروِّعُ

12– أكلَّ الدّهرِ حِـلٌّ وارتحـالٌ   أما يُبقي عليَّ ولا يقيـني

– *الإجـــــــابات :*

1– قدّم الظرف في قوله : «بعدَ شيبي» لأنّه محطّ إنكار .

2– قدّم الجار والمجرور «في منزلي»؛ لتخصيصه بالفعل .

3– قدّم الظرف «بعدَ»؛ لأنّه محطّ إنكار .

4– قدّم الحال «فرِحاً» ؛ لأنه موضع العناية والاهتمام .

5– قدّم الجار والمجرور في مطلع الصدر والعجز؛ لإفادة التّخصيص .

6– قدّم الجار والمجرور «بالآخرة»؛ لإفادة التّخصيص .

7 – أخّر الجـارّ والمجـرور بعـد شـهـداء في الأول؛ لأنّ الغـرض إثبـات شهادتهم على الناس، وقدّم في الثاني على شهداء؛ لاختصاصهم بكون الرسول عليه الصلاة والسلام شهيداً عليهم .

8– قدّم المفعول «الله» ؛ لإفادة الاختصاص .

9 – قـدّم الجارّ والمجرور في الأول «إلى الله»؛ لاختـصـاص الله سبحانه بكون كلّ الأمر له، وقـدّم الجـارّ والمجرور على اسم ليس في الثّاني؛ لاختصاص المخلوق بنفي كون شيءٍ من الأمر له.

10- قدّم الجارّ والمجرور «إلى داعي» على متعلّقه «بسريع»؛ للضرورة الشّعرية .

11- قدّم الجارّ والمجرور «إلى اللّه»؛ لاختصاص اللّه سبحانه بالشكوى،

12- قدّم نائب الظرف «كلّ الدهر»؛ لأنّه محطّ الإنكار .

المبحث الخامس – أسلوبُ القصْـــــر

ويتضمّـن :

- تعريف القصر لغةً واصطلاحاً
- مكوِّنات أسلوب القصر
- موضوعات البحث في هذا الأسلوب :

1- تقسيم القصر تبعاً لغرض المتكلِّم

2- تقسيم القصر تبعاً لحال المقصور

3- تقسيم القصر الإضافي تبعاً لحال المخاطب

4- طرق القصر

5- مواقع القصر في الجملة

6- الأغراض البلاغية للقصر

تعريف القصـــر :

القَصْرُ في اللغـة : الحَبْسُ. وامـرأةٌ مـقـصـورةٌ وقَصُورةٌ وقـصـيـرةٌ : مـحـبـوسـةٌ في البيت، لا تُترك أن تخـرج. ومنه قـوله سـبـحـانه : «حـورٌ مقصوراتٌ في الخيامِ»، أي محبوساتٌ فيها.

وفي الاصطلاح : تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ بطريقٍ مخصوص.

مكـــوّنات أسلوب القَصْـــر :

يتكوّن أسلوب القصر من طرفين هما : المقصُور والمقصورُ عليه، ومن أداة القصر . تقـول مـثـلاً : مـاشـوقيٌّ إلاّ شـاعرٌ. تريد بهـذا التـعـبـيـر تخصيصَ شوقيّ بـ «الشعر»، وقصرَه على هذه الملَكة. تقول هذا ردّاً على من ظنّ أنّه شاعرٌ وكاتبٌ، مثلاً. وفي مثالنا هذا :

«شوقيّ» هو المقصور؛ لأنك قصرته على صفة الشعر .

«شاعرٌ» هو المقصور عليه؛ لأنك قصرتَ شوقيّا عليه، حيث جلسته على هذه الصفة لا يتجاوزها إلى الكتابة مثلاً .

أمّا الطريق المخـصـوص للقـصـر في هذا المثـال هو النفي «مـا» و الاستثناء «إلا» .

وفي القصر ستّةُ موضوعات للبحث :

الأول – تقسيم القصر تبعاً لغرض المتكلّم

الثاني – تقسيم القصر تبعاً لحال المقصور

الثالث – تقسيم القصر الإضافيّ تبعاً لحال المخاطب

الرابع – طرق القصر

الخامس – مواقع القصر في الجملة

السادس – الأغراض البلاغية للقصر

أولاً – تقسيم القصر تبعاً لغرض المتكلم

ينقسم القصر تبعاً لغرض المتكلّم إلى قسمين : حقيقي وإضافيّ.

– الحقيقيّ : وهو تخصيصُ الشيء بالشيء لا يتجاوزه إلى سواه حقيقةً أو ادّعاء . ومن القصر الحقيقي حقيقة قوله سبحانه : «لا إِلَهَ إلاّ أنَا»، حيث قُصِرت صفةُ الألوهية على ذات اللّهِ (سبحانه) قصراً حقيقاً؛ ويعني هذا أنها لا تتجاوزه (جلّ وعلا) إلى سواه .

أما القصر الحقيقيّ الادّعائي فكقول الشاعر :

لا سيفَ إلاّ ذو الفَقَا ... رِ ولا فتىً إلاّ عليّ

فكلٌّ من هذين القصريْن حقيقيٌّ على وجه الادّعاء من الشاعر؛ ذلك أنّه يزعم هذا على سبيل المبالغة الشعرية مفترضاً أن غير «ذي الفقار» من السيوف، وغير «عليّ» من الفِتيان، في حكْم المعدوم. وواضحٌ أن الحقيقي حقيقة ينظر فيه إلى الحقيقة والواقع، والحقيقي ادّعاءً يُنظر فيه إلى الادّعاء اعتماداً على جعل ماسوى المقصور عليه في حكم غير الموجود.

– الإضافيّ : وهو تخصيصُ الشيء بالشيء قياساً أو إضافةً إلى شيء معيّن، بحيث لا يتعداه إلى ذلك الشيء، وإن صحّ أن يتعدّاه إلى شيء آخر. تقول : «ما شاعرٌ إلاّ شوقيّ»؛ أي لا حافظ مثلاً. فأنت هنا قصرت

الشعر على شوقي بحيث لا يتجاوزه إلى «حافظ». ويصحّ أن تخلع الصفة على غير حافظ. فقصرُ الشعر على شوقي جاء مقارنة مع حافظ لا مع كلّ الشعراء.

ثانياً – تقسيم القصر تبعاً لحال المقصور :

ينقسم القصر تبعاً لحال المقصور على قسمين :

(أ) قصر الصفة على الموصوف ، وذلك بتقديم الصّفة على الموصوف، كأن تقول من القَصْر الحقيقيّ حقيقةً : «لا إلهَ إلاّ اللهُ»، حيث قصرت صفة الألوهية على ذات الله (سبحانه) قصراً حقيقياً حقيقة؛ حيث لا تتجاوزه هذه الصفةُ إلى غيره (سبحانه). وتقول من الحقيقيّ ادّعاءً : «ماعادلٌ إلاّ عمرٌ»؛ حيث قصرتَ صفة العدل على عمر رضي الله عنه مدّعياً أن عدالة غيره ممّا لا يُعتدّ به، وهي في حكم المعدوم. وتقول من الإضافي : «ماشاعرٌ إلا عمرُ أبو ريشة» أي : لا نزار القباني، مثلاً .

(ب) قصر الموصوف على الصّفة ، وذلك بتقديم الموصوف على الصفة، لقولك من القصر الحقيقيّ : «مازيدٌ إلاّ كاتبٌ»، إن أردت عدم اتصافه بغير صفة الكتابة. وهذا الضرب لا يكاد يوجد لتعذّر الإحاطة بصفات الشيء، ومن هنا يُحمل هذا المثال على القصر الحقيقي الإدّعائي الذي يقصد فيه المبالغة وعدم الاعتداد بصفة غير الصفة المقصور عليها . ومثلُه من الإضافيّ قولُك : «ماحسّانُ إلاّ شاعرُ الرسول عليه الصّلاة والسّلام»، أي : لا خطيبه، مثلاً .

ثالثاً - تقسيم القصر الإضافيّ تبعاً لحال المخاطب :

ينقسم القصر الإضافي تبعاً لحال المخاطب على ثلاثة أقسام :

1 - قصرُ القَلْب - ويخاطب به من يعتقد عكْسَ الحكْمِ الذي أثبته المتكلّم. كقولك من قصر الصفة على الموصوف : «مامجتهدٌ إلاّ أحمدُ» رد اً على من اعتقد أن المجتهد «محمدٌ» لا «أحمد». وسمّي هذا الضرب قصر قَلْبٍ، لأنك تقلب به الحكمَ على المخاطب، وهو هنا قلبُ الحكم بالاجتهاد من محمد إلى أحمد .

2 - قصرُ الإفراد - ويخاطب به من يعتقد الاشتراك. كقولِك من قصر الصّفة على الموصوف : «ماناجحٌ إلاّ خالدٌ»، ردّاً على من اعتقد اشتراك سعيد - مثلاً - مع خالد في صفة النجاح هذه . وسمّي قصرَ إفْرادٍ؛ لأنه يقطع الاشتراك الذي اعتقده المخاطب، وهو هنا اشتراك سعيد مع خالدٍ في النجاح.

3 - قصْر التعيين - ويخاطب به المتردّد بين شيئين. كقولك من قصر الصّفة على الموصوف : «ماذكيٌّ إلاّ حسينٌ»، خطاباً لمن تردّد بين ذكائه وذكاء أخيه «حسَن» مثلاً. وسُمّي قصرَ تعيين؛ لتعيينه ماهو غير معيّن عند المخاطب، وهو هنا تعيين الذكاء في «حسين» دون «حسن» .

رابعاً - طُـرُق القَصْـر :

طرق القصر الاصطلاحية التي يركّز عليها البلاغيون أربع :

1 - النفي والاستثناء - ويلي المقصورُ عليه فيهما أداةَ الاستثناء، ومثاله من قصر الصفة قصراً حقيقياً قولك : «لا هاديَ إلاّ اللّهُ»، ومن قصر

الموصوف قوله سبحانه : «وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلتْ من قبله الرّسُلُ». ومن قصر الصّفة إضافياً قولك : «ماشاعرٌ إلا زهيرٌ»، أي : لا النّابغة، مثلاً. ومن قصر الموصوف إضافياً قولك : «ماالجاحظ إلاّ كاتبٌ»، أي : لا شاعر.

2 – «إنّما» – والمقصور عليه معها هو المؤخّر . ومثاله من قصر الصّفة قصراً حقيقياً قولك : «إنما شاعرٌ زهيرٌ» أي : لا غير زهير. ومن قصر الموصوف قولك : «إنما زهيرٌ شاعرٌ» أي : لاغير شاعر . ومن قصر الصفة إضافيّا قولك : «إنما شاعرٌ زهيرٌ» أي : لا النابغة . ومن قصر الموصوف قولك : «إنما زهيرٌ شاعرٌ» أي : لا خطيب .

ويذهب البلاغيون إلى أنّ «إنّما» أفادت معنى القَصْر؛ لأنها تتضمّن معنى (النّفي والاستثناء)؛ فقولك : «إنّما زهيرٌ شاعرٌ» معناه: مازهير إلاّ شاعر .

كما يقول علماء البلاغة إنّ أحسن مواقع «إنمّا» في الاستعمال عندما يراد بها التّعريض . ومن ذلك قوله سبحانه : «إنما يتذكّرُ أولُو الألْبَابِ». فالآية الكريمة تنقل حيقيةً هي قصر التذكّر وبَيّن الحقّ على ذوي العقول؛ لكنّ هذه الحقيقة غير مرادة هنا؛ لأنها تحصيل حاصل. بل المراد كما يقولون : التعريض بذمّ الكفّار وتبيان أنهم لفرط عنادهم وتمكّن الهوى منهم في حكم من لا عقلَ له ولا أملَ البتّةَ في تذكّره .

3 – *العطف بـ «لا» وبـ «بل» وبـ «لكنْ» :*

– أما في العطف بـ «لا» فيكون المقصورُ عليه هو المقابل لما بعدها،

ومنه في قصر الصّفة قصراً حقيقياً قولك : «زهيرٌ شاعرٌ لا غير زهير»؛ قصرتَ الشعرَ على زهير. ومنه في قصر الموصوف قولك : «زهير شاعرٌ لا غير شاعر»؛ قصرتَ زهيراً على الشعر . ومنه في قصر الصفة إضافياً قولك : «زهيرٌ شاعرٌ لا النابغة»؛ قصرت الشعر على زهير بالنّسبة إلى النابغة، ومنه في قصر الموصوف إضافياً قولُك : «زهيرٌ شاعرٌ لا خطيب»؛ قصرتَ زهيراً على الشعر بالنّسبة إلى الخطابة .

– وأما في العطف بـ «بل» وبـ «لكنْ» فيأتي المقصور عليه بعدهما . مثال العطف بـ «بل» في قصر الصّفة قولُك : «مازهيرٌ خطيبُ العربِ بل قُسّ ابنُ ساعِدة»؛ قصرتِ خطابة العرب على قسّ بن ساعدة . ومنه في قصر الموصوف قولك : «مازهيرٌ خطيب بل شاعرٌ». قصرتَ زهيراً على الشعر . وتقول في العطف بـ «لكنْ» في قصر الصّفة : «مازهيرٌ فارسٌ لكنْ عنترةٌ»؛ قصرتَ الفروسيّة على عنترة . وفي قصر الموصوف : «مازهيرٌ فارسٌ لكن شاعر»؛ قصرتَ زهيراً على الشعر .

4 – *تقديم ماحقّه التأخير :*

والمقصور عليه في هذا الضرب هو المقدّم. ومنه في الذّكر الحكيم قوله سبحانه : «إياكَ نعبدُ وإيّاك نستعين»؛ قُصرت العبادة والاستعانة على الباريء جلّ وعلا . ويكون المعنى عندئذ : نخصّك بالعبادة والاستعانة . والآية من قصر الصّفة على الموصوف. ومن قصر الموصوف في هذا الباب قولُك : «تميميٌّ أنا»؛ قصرت الموصوف «أنا» على الصّفة «تميميّ» . وقد أفاد ذلك تقديمُ الخبر على المبتدأ .

وجــوه الاختلاف بين طرق القصر :

تشـترك طرق القصـر الأربع في إفادتها القصـرَ كما أسلفنا، لكنها تتباين فيما بينها في أمور :

1 – دلالة «التّقديم» على الحصر بالفحوى أي بمفهوم الكلام، ودلالة الثّلاثة الباقية بالوضع. ويعني هذا أن القصـر الذي يفيده تقديمُ ماحقّه التأخير يعرفه صاحب الذّوق السّليم بتأمله مفهوم الكلام وإن لم يعرف اصطلاح البلاغيين في ذلك . أما القصر الذي تفيده الثّلاثة الباقية فبالوضع، فقد بيّن العلماء أنّ «لا» العاطفة موضوعة للنّفي بعد الإثبات، و«بل ولكن» موضوعتان للإثبات بعد النّفي، وهذان المعنيان مفيدان للقصر . والنّفي والاستثناء موضوعان للنّفي والإخراج من حكم النفي، ويدلّ هذا المعنى على القصر. وتتضمّن «إنما» معنى النفي والاستثناء؛ ومن ثم تفيد القصر .

2 – الأصل في العطف النّصُّ على المثبت والمنفيّ معاً. تقول : «زهيرٌ شاعرٌ لا النّابغة»، فتنصّ على من أثبتَّ له صفة الشّعر وهو «زهير»، وعلى من نفيتها عنه، وهو «النابغة». وكذا الشّأن مع «بل» و«لكن». وأما في الثّلاثة الباقية فالنّص على المثبت فحسب .

3 – أنّ النفي بـ «لا» العاطفة لا يجامع النفي والاستثناء، فلا يصحّ أن تقول : «مازيدٌ إلا قائمٌ لا قاعدٌ»؛ لأنّ شرط جواز النفي بـ «لا» أن لا يكون ماقبلها منفياً بغيرها من أدوات النفي . لأنك إذا قلتَ : «مازيدٌ إلاّ قائمٌ» قصدتَ نفيَ كلّ صفةٍ وقع فيها التّنازع، والصّفة التي تنفيها بـ «لا» بعد هذا (لا قاعدٌ، في مثالنا المتقدّم) داخلةٌ فيما وقع

فيه التّنازع . وهكذا فإنّك عندما تقول «لا قاعدٌ» بعد «مازيدٌ إلا قائمٌ» تكون قد نفيت بها شيئاً هو منفيٌّ قبلها . ويصحّ الإتيان بـ «لا» العاطفة مع «إنما» و«التقديم» فتقول : «إنمّا أنا تميميٌّ لا قيسيٌّ» و«محمداً أكرمتُ لا عليّاً».

4 – أنّ أصل «النفي والاستثناء» أن يستعملا في أمرٍ من شأنه أن يجهله المخاطب وينكره أو فيما هو منزّل هذه المنزلة؛ فلا يصحّ استعمالهما في الأمر الظاهر. ومثال الأوّل أن تقول لصاحبك وقد بدا لك شبحٌ من بعيد : «ماهو إلاّ زيدٌ»، إذا وجدتّه يعتقده غيرَ زيد ويصرّ على الإنكار، ومنه قوله سبحانه : «وما من إلهٍ إلاّ اللّهُ».. ومثال مانزّل منزلة المجهول المنكر مع وضوحه قوله سبحانه : «وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ». ويعني هذا أنّه – عليه الصّلاة والسّلام – لا يتعدّى الرسّالة إلى التبرّي من الهلاك؛ نزّل استعظامهم هلاكه منزلةَ إنكارهم إيّاه . ومثله قوله سبحانه : «وماأنت بمسمعٍ مَنْ في القبورِ إنْ أنتَ إلا نذيرٌ». لشدّة حرص المصطفى – عليه الصّلاة والسّلام – على هداية النّاس كان يكرّر دعوة المتنعين عن الإيمان دون كلل أو تراجع؛ فنزّل منزلة من ظَنّ أنّه يمتلك مع صفة الإنذار إيجادَ الشيء فيما يمتنع قبوله إيّاه .

ومنه في الشعر قول زهير :

وما الحربُ إلاّ ماعلمتمْ وذقتمُ وماهُوَ عنْهَا بالحديثِ المرجَّمِ

نزّلَ زهيرٌ الأمر الظاهر المعروف الذي علموه وذاقوا ويلاته وهو الحرب منزلةَ المجهول الذي ينكرونه؛ لِما رأى منهم من مواصلة للحرب واستمرار في إيقاد نيرانها دون هوادة .

وأصل «إنمّا» أن تُستعمل في أمر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو فيما ينزّل هذه المنزلة. مثال الأول قولك للرجل : «إنّما هو أخوكَ» و«إنما هو صاحبك القديم». وأنت لا تقول هذا لمن يجهله ويدفع صحّته، بل لمن يعلمه ويقرّ به، ولكنّك تنبّهه على الذي يجب عليه من حقّ الأخ وحرمة الصاحب. ومثاله من الذّكر الحكيم قوله سبحانه: «إنّما تُنْذِرُ من اتبعَ الذكرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ»، وقوله سبحانه : «إنمّا أنتَ منذرُ مَنْ يخشاها». ومثاله في الشّعر قول المتنبي مخاطباً كافوراً الإخشيديّ :

إنمّـا أنتَ والـدٌ والأبُ القا   طِعُ أحنى مِنْ واصِلِ الأولادِ

ومثال مانزّل منزلة المعلوم قول ابن قيس الرقيّات :

إنمّا مصعبٌ شهابٌ من اللّـ   ـهِ تجلّتْ عن وجهِهِ الظّلماءُ

ادّعى الشاعر أن كون مصعب على هذه الصّفة أمرٌ معلوم للجميع، فاستخدم في قصره أداة القصر التي تستخدم فيما من شأنه أن يكون معلوماً للمخاطب غير منكر لديه، تنزيلاً للمجهول منزلة المعلوم. ومثاله في الذّكر الحكيم قوله سبحانه حكاية عن اليهود :

«وإذا قيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدوا في الأرضِ قالُوا إنمّا نحنُ مصلحون»، ادّعوا أنّ كونهم مصلحين أمرٌ ظاهر معلومٌ .

5 – مزيّة «إنما» على العطف أنّه يُعقل منها الحُكْمان (الإثبات والنفي) دفعةً واحدة. فعندما تقول : «إنما زيدٌ كاتبٌ» تكون قد أثبتَ له الكتابة ونفيت عنه الشعر، مثلاً، دفعة واحدة. بخلاف «العطف» في قولك :

«زيدٌ كاتبٌ لا شاعرٌ»؛ حيث يكون ثمة إدراك تدريجيّ : ثبوت الكتابة لخالد أولاً، ثم نفي الشاعرية عنه. ويقول البلاغيون إن تعقّل الحكْمين معاً أرجحُ من تعقّلهما التّدريجيّ؛ إذ يدرك الحصر دفعة واحدة مع «إنما»، ويتوهّم عدم الحصر أول الأمر مع «العطف».

خامساً – مواضع القصر في الجملة :

يقع القصر بين المبتدأ والخبر كما قدّمنا، ويقع أيضاً بين الأشياء الآتية :

1– بين الفعل والفاعل، كما في قوله سبحانه : «إنما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ». قُصر الفعل «يخشى» على الفاعل «العلماء»، وهو من باب قصر الصفة على الموصوف.

2 – بينْ لافاعل والمفعول، كقولك : «ماضرب زيدٌ عمْراً» ومنه من قصر القلب قوله سبحانه حكايةً عن السيد المسيح عليه السلام : «ماقلتُ لَهُمْ إلاّ ماأمرتَني به أنِ اعبُدُوا اللّهَ». وفي قصر المفعول على الفاعل تقول : «ماضرب عمراً إلاّ زيدٌ».

3 – بين المفعولين، كقولك : «ماأعطيتُ زيداً إلاّ درهماً» و«ما أعطيتُ درهماً إلاّ زيداً».

4 – بين متعلّقات الفعل كالحال، والتّمييز، والظرف، والجار والمجرور. تقول في قصر ذي الحال على الحال : «ماجاء خالدٌ إلاّ راكباً»، وفي قصر الحال على ذي الحال : «ما جاء راكباً إلا خالدٌ»، وتقول في التمييز: «ماحُسنَ إبراهيمُ إلاّ خلقاً» و«ماحُسنَ خُلُقاً إلاّ إبراهيمُ». وتقول في

الظرف : «ماوصلتُ إلاّ بعدَ الظهْر»، وفي الجار والمجرور : «ماكتبتُ إلاّ إليه».

سادساً – الأغـراض البلاغية للقصـــر :

يحقّق البلغاء باستخدام أسلوب القصر أغراضاً كثيرة، يتلمّسها من يتأمّل السّياقات التي يرد فيها هذا الأسلوب. ومن ذلك :

1 – تمكين الكلام وتقريره في الذهن – كقوله سبحانه : «وما محمدٌ إلا رسولٌ».

وكقول الشاعر :

وما المرء إلاّ كالشّهاب وضَوْئِهِ يحور رماداً بعد إذ هو ساطعُ

وقول الآخر :

وما لامرئٍ طولُ الخلودِ وإنمّا يخلّده طولُ الثّناءِ فيخلُدُ

2 – المبالغة في المعنى وتصوير الحدّ الأقصى فيه، كقول الشاعر :

وما المرءُ إلاّ الأصغرانِ : لسانُهُ ومعقولُهُ، والجسمُ خَلْقٌ مصوّرُ

وقول الآخر :

لا سيفَ إلاّ ذو الفَقَـا رِ ولا فتىً إلا علـيّ

3 – التهوين وإصغار الشّأن، كقول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، عندما جرحت إصبعه :

« إن أنتِ إلا إصبعٌ دميت وفي سبيل اللّه مالقيت»

4 — التّعريض، كقوله سبحانه: «إنمَّا يتذكّرُ أولُو الألباب». ليس المراد من الآية الكريمة الحقيقة التي تقرّرها وهي قصر التّذكر على أرباب العقول، فذلك تحصيل حاصل، بل المراد – والله أعلم – الإشارة إلى أنّ المشركين بسبب عنادهم وفرط مكابرتهم في حكم من لا عقل له ولا لُبّ .

ومن جماليّات «القصر» أنّه ضربٌ من الإيجاز، ووسيلةٌ لتكثيف الدلالة والتّعبير بالقليل من اللفظ عن الكثير من المعنى؛ وتعادِلُ جملةُ القصر جملتين تقريباً، فقولنا : «لا هادي إلا الله» يكافيء قولنا : الهداية من الله، وليس هادياً غيره سبحانه. ويُستعان بهذا الأسلوب في تحديد المعاني تحديداً كاملاً، وخاصة في المسائل العلمية وماهو قريب منها .

أسئلة وإجاباتها حول أسلوب القصر (1)

- بيّن نوعَ القصر وطريقه فيما يأتي :

1 - ليس عارٌ بأن يقال فقيرٌ إنما العار أنْ يقالَ بخيلُ

2 - قد علمتْ سلمى وجاراتها ماقطّرَ الفارسَ إلاّ أنـا

3 - وإنما الأممُ الأخلاقُ مابقيتْ فإن همو ذهبتْ أخلاقهمْ ذهبوا

4 - محاسنُ أوصافِ المغنّينَ جمّةٌ وماقصباتُ السَّبقِ إلاّ لمعبدَ

5 - مالدهرُ عندكَ إلاّ روضةٌ أُنُفٌ يامَنْ شمائلهُ في دهرهِ زَهَرُ

6 - سيذكرني قومي إذا جدّ جدُّهُمْ وفي الليلةِ الظّلماءِ يُفتقد البدرُ

7 - قال المصطفى عليه الصّلاة والسّلام : «ليس لكَ من مالكَ إلاّ ماأكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأبقيتَ».

8 - بكَمْ أدركَ اللّهُ البريّةَ بعدما سعى لِصُّها فيها وهبَّ غشومُها

9 - ولوْ حمّلتني السِّرَّ سلمى حملتهُ وهلْ يحملُ الأسرارَ إلاَّ كتومُها

10- قال سبحانه : «إنْ أنتمْ إلاّ تكذبُونَ» .

- الإجـــــــــابات :

الجملة التي جاء فيها القصر	نوع القصر تبعاً للمقصور	نوع القصر تبعاً للواقع	نوع القصر تبعاً للمخاطب	طريقة القصر
1- إنما العارُ أن يقال بخيلُ	موصوف على صفة	إضافي	قلب	إنّما
2- ماقطّر الفارسَ إلاّ أنا	صفة على موصوف	»	تعيين	النفي والاستثناء
3- إنما الأممُ الأخلاق ..	موصوف على صفة	حقيقي ادعائي	تعيين	إنّما
4- ماقصبات البق إلاّ لمعبد	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء
5- ما الدهرُ إلاّ روضةٌ	موصوف على صفة	»	»	النفي والاستثناء
6- وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ	صفة على موصوف	»	»	تقديم الجارّ والمجرور
7- ليس لك من مالك إلاّ	موصوف على صفة	حقيقي	»	النفي والاستثناء
8- بكم أدركَ اللّهُ	صفة على موصوف	إضافي	»	تقديم الجار والمجرور
9- وهل يحمل الأسرار إلاّ كتومها	صفة على موصوف	»	»	النفي والاستثناء
10- «إن أنتم إلاّ تكذبون»	موصوف على صفة	»	»	النفي والاستثناء

أسئلة وإجاباتها حول أسلوب القصر (2)

- بيّن نوعَ القصر وطريقه فيما يأتي :

1 - اللّهُ الغفورُ الرحيم .

2 - المرءُ بآدابه لا بثيابه .

3 - ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُهُ   بل اليتـيمُ يتـيمُ العـلمِ والأدبِ

4 - وهلْ يُنبتُ الخطّيَّ إلاّ وشيجهُ   وهل تنبتُ إلاّ في مغارسِها النخلُ

5 - قال سبحانه: «إنما يخشى اللّهَ من عبادهِ العُلماءُ

6 - عمرُ الفتى ذكرُه لا طولُ مدّته   وموتهُ خِزيُه لا يومــهُ الدّانـي

7 - إلى اللّهِ أشكو لا إلى الناس حبَّها   ولابدّ من شكوى حبيبٍ يروّ ع

8 - ومن البليّةِ عذْلُ مَنْ لا يرعوي   عن غيِّهِ وخطابُ من لا يفهمُ

9- إنّ الجديدَيْنِ في طولِ اختلافهما   لا يفسدانِ ولكن يفسدُ الناسُ

10- ومامنَعَتْ دارٌ ولا عــزّ أهـلها   من الناسِ إلاّ بالقنا والقنابلِ

- الإجـــــابات :

الجملة التي جاء فيها القصر	نوع القصر تبعاً للمقصور	نوع القصر تبعاً للواقع	نوع القصر تبعاً للمخاطب	طريقة القصر
1- اللهُ الغفور الرحيم	صفة على موصوف	حقيقيّ	إفراد	تعريف المسند بـ «ال
2- المرء بآدابه لا بثيابه	موصوف على صفة	إضافي	قلب	العطف بـ «لا»
3- ليس اليتيم .. بل اليتيم	صفة على موصوف	»	»	العطف بـ «بل»
4- وهل ينبت إلاّ .. وهل تنبت إلا	صفة على موصوف في الموضعين	حقيقي ادعائي	إفراد	النفي والاستثناء
5- «إنما يخشى الله .. العلماءُ»	صفة على موصوف	إضافي	حسب المخاطب	إنما
6- عمر الفتى ذكره لا طول.. وموته خزيه لا يومه الداني	موصوف على صفة في الموضعين	»	قلب	العطف بـ «لا»
7- إلى الله أشكو	صفة على موصوف	»	»	التقديم والعطف بـ «لا»
8- ومن البلية عذلُ من ..	موصوف على صفة	»	إفراد	تقديم الخبر على المبتدأ
9- إنّ الجديدين لا يفسدان ولكن يفسد الناس	صفة على موصوف	»	قلب	العطف بـ «لكن»
10- وما منُعت دارٌ .. إلا	صفة على موصوف	»	إفراد	النفي والاستثناء

أسئلة عن القصر تُطلب إجابتها :

أولاً - حدّد موضع القصر فيما يأتى :

1- قال سبحانه: «ما أُرِيكُمْ إلاّ ماأرى».   2 - لم ينجح إلاّ حامدٌ.

3 - إنما يخشى الآخرة المتقون.   4 - ماأعطيتُه إلاّ درهمَيْن.

5 - إنما أعطيتُ أخي مايحتاج إليه .

6 - إنما ضربه عليٌّ وهو غاضب .   7 - حسُنَ سعيدٌ فكراً لا عملاً .

8 – إنمّا ذهبتُ إلى طرابلس .   9 – ماسكنتُ إلاّ عندكَ .

10– إنّما أحزنني سعيدٌ تصرّفُهُ .

ثانياً – حدّد المقصور والمقصور عليه، ونوع القصر وطريقه فيما يأتي :

1 – قال سبحانه : «إنّما أنتَ مذكِّرٌ لستَ عليهم بمُسَيْطر» .

2 – وإنمّا أولادُنا بينَنا   أكبادُنا تمشي على الأرضِ

3 – وما الخوفُ إلاّ ماتخوّفَه الفتى   ولا الأمنُ إلاّ ماراَهُ الفتى أمْنا

4 – وما الحربُ إلاّ ماعلمتُم وذقتُمُ   وماهو عنها بالحديثِ المرجَّم

5 – قال المصطفى عليه الصّلاة والسّلام : «إنْ أنتِ إلاّ إصبعٌ دَميت وفي سبيل اللّه مالقيت» .

6 – وما الحِرْصُ إلاّ فضلةٌ لو نبذتَها   لما فاتكَ الرزقُ الذي أنت آكلُه

7 – ليس التغرّبَ أن تشكو نوى سفرٍ   وإنمّا ذاكَ فقدُ العزّ في الوطنِ

8 – إنمّا هذه الحياةُ متاعٌ   والسَّفيهُ الغبيُّ مَنْ يصطفيها

مامضى فاتَ ، والمؤمَّلُ غيبٌ   ولكَ السّاعةُ التي أنتَ فيها

9 – ولا تصطنعْ إلاّ الكرامَ فإنّهمْ   يجاوزونَ بالنُّعْماءِ مَنْ كان منعِما

10– بالعِلْمِ والمالِ يبني الناسُ ملكَهُمُ   لا يُبنى مُلْكٌ على جهلٍ وإقلال

المبحث السّادس - الأساليبُ الإنشائيّة

ويتضمّن:

- الإنشاءُ لغةً واصطلاحاً
- قِسْما الإنشاء (غير الطّلبيّ - الطلبي)
- الإنشاء الطّلبيّ وأنواعه :

1 - الأمر (صِيَغُه - خروج صِيَغُه عن دلالتها الأصلية)

2 - النّهي (صيغته - الدلالات المجازية لصيغته)

3 - الاستفهام (أدوات الاستفهام : الهمزة - هل - أدواته الأُخَر - الدلالات المجازيّة لأدوات الاستفهام)

4 - التّمنّي (صيغته - استخدام ليتَ في الترجّي لغرضٍ بلاغيّ)

5 - النّداء (صِيَغ النداء - تنزيل البعيد منزلة القريب - تنزيل القريب منزلة البعيد - خروج النداء عن دلالته الحقيقية إلى دلالات مجازيّة)

- وقوع الخبرَ موقع الإنشاء والأغراض البلاغيّة لذلك .

الإنشاء لغة واصطلاحاً :

الإنشاءُ في اللغة : الإيجادُ والإحداث، وكلّ ماقد حدثَ فقد نشأ.

وفي اصطلاح البلاغيين : ذلك الكلام الذي لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، كقولك : اعلَمْ، هداكَ اللّهُ، أعندكَ نبأ منْ كذا ؟ .. الخ. فليس في مقدورك أن تقول لقائل ذلك إنّه صادقٌ أو كاذب .

وفي مستطاع المتأمّل أن يأنسَ الفرقَ بين الإنشاء والخبر اعتماداً على الدلالة اللغوية نفسها :

فالإنشاء إيجادٌ لصيغةٍ كلاميّة لا توجد دلالتُها قبل النّطق بها؛ إذ يقصد المنشىء التّعبيرَ عن دلالةٍ تحدث بنطقه بالتّعبير الإنشائيّ. وهذا خلاف الخبر الذي يصف حقيقةً يرمي المتكلم إلى إعلام المخاطب بها. ومن ثم يقول البلاغيون في تعريف الإنشاء : «هو ما لا يحصل مضمونُه ولا يتحقّق إلاّ إذا تلفّظتَ به».

قسما الإنشاء :

الإنشاء قسمان : طَلَبيٌّ ، وغير طلبيّ .

أمّا غيرُ الطّلبي فهو ما لا يستدعي مطلوباً غيرَ حاصلٍ وقتَ الطلب. ويضمّ مجموعة من الصّيَغ :

1 – المدح والذمّ ويكونان بـ «نِعْمَ» و«بِئْسَ» و«حَسُنَ»، و«حبّذا » و«لا حبّذا ».. الخ .. وأمثلة ذلك من الذكر الحكيم قوله سبحانه :

«واعتصمُوا باللّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فنعمَ المولى ونعمَ النَّصيرُ» .

«ولَبِئْسَ ماشَرَوا بِهِ أنفسَهُمْ لَوْ كانُوا يعلمونَ» .

«وحسُنَ أولئكَ رفيقا» ، «وحسُنَتْ مرتفقا» .

«فساءَ مطرُ المنذَرِينَ» ، «ألاَ ساءَ مايزِرُونَ» .

وتقول : «حبّذا الجماهيرية بلداً» ، و«لا حبّذا ديارٌ أنتَ فيها مظلومٌ»

2 – العُقُود : وتكثر في الماضي كقولهم : بِعْتُ، اشتريتُ، وهبتُ، أعْتقتُ، قَبِلتُ . وقد تجيء بغيره كقولِهِمْ : «أنا بائعٌ» ، «عبدي حرٌّ» ، «موافقٌ» ... الخ .

3 – القَسَم : ويكون بالواو ، والباء، والتاء – وبغيرها . كقوله سبحانه:

«واللّهِ ربِّنا ماكُنّا مشركينَ» .

«لا أُقسِمُ بيومِ القيامة» .

«تاللّهِ لأكيدَنّ أصنامَكم» .

وكقولك : «لعمرُكَ ماأخطأتُ في هذا» .

4 – التّعجب : ويكون قياساً بصيغتيه المعروفتين «ماأفعلَه» و«أفعِلْ به». كقوله سبحانه : «قُتِلَ الإنسانُ ماأكفرَه»، وقوله سبحانه : «أسمِعْ بِهِمْ وأبصِرْ يومَ يأتوننا» .

ويكون سماعاً بغيرهما، نحو: «للّهِ أنتَ !» و«للّه درُّه فارساً» . وكقوله سبحانه: «كيفَ تكفرونَ باللّه وكنتمْ أمواتاً فأحيَاكُمْ» . وقوله سبحانه: «أتأمرون الناسَ بالبِرِّ وتنسَوْنَ أنفسكم وأنتم تتلونَ الكِتَّابَ» .

5 – الرجاء ويكون بحرفٍ واحدٍ هو «لعلّ»، وبثلاثة أفعال هي: عسى، حَرَى، اخلولق .

ومثال الرجاء بـ «لعلّ» قول ذي الرّمة :

لعلّ انحدارَ الدّمعِ يُعقِبُ راحةً مِنَ الوجْدِ، أو يشفي شجيَّ البَلابلِ

ومثاله بـ «عسى» قوله سبحانه: «عسى اللّهُ إن يأتيَ بالفتحِ أو أمرٍ مِنْ عِنْدِه» .

ومثاله بـ «حرى» قولُ الاعشى :

إنْ يقلْ هـنَّ من بني عبدِ شمسٍ فحرىً أن يكونَ ذاك، وكانا

ومثاله بـ «اخلولق» قولك : «اخلولق الحقُّ أن يظهرَ» .

وسوى ذلك من الصيغ التي لا يطلب بها شيء .

ولا يهتمّ علماءُ المعاني بالإنشاء غير الطلبيّ لقلّةِ الأغراض البلاغية المتعلّقة به، ولأنّ جمهرة صيغة أخبارٌ نُقلت إلى معنى الإنشاء .

الإنشـاء الطـلبيّ وأنواعـه :

وهو «مايستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب»، أو هو «مايتأخرّ وجودُ معناه عن وجود لفظه» . تقول لصديقكَ : «ادرسْ ، يامحمّدُ». وتعبيرك هذا يتضمّنُ صيغتَيْن من صيغ الإنشاء الطّلبي هما: الأمر، والنداء. فقولك «ادرس» يستدعي شيئاً مطلوباً هو «الدّراسة»، وهي شيءٌ غيرُها غيرُ حاصلٍ عند تلفظك بطلبه. وقولك : «يا محمّدُ» يستدعي مطلوباً هو «إقباله» عليك وانتباهه، وهو شيءٌ غيرها حاصلٍ عند تلفظك بطلبه. وكذا فإنّ مدلول كلٍّ من التعبيرين يتأخر عن وجود لفظه .

وما نبحثه من أنواعغ الإنشاء الطلبي هنا خمسة هي :

1 – الأمر 2 – النّهي 3 – الاستفهام 4 – التمنيّ 5 – النّداء

وسنأتي على بحثها مفصّلةً إن شاء الله تعالى .

مبحث الأمـر :

الأمرُ هو طلبُ حصول الفعل على جهة الاستعلاء. ويعني الاستعلاءُ أن يَعُدّ الآمرُ نفسَه عالياً، سواء أكان عالياً على الحقيقة ونفس الأمر أم ادّعاءً. ومثال الأمر، بمعنى طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء الحقيقي، قولُ السيّد لعبده : احضُرْ حالاً. ومثالُه على جهة الاستعلاء الادّعائيّ قولُ العبد لسيّده : احضُرْ حالاً، على سبيل التعاظم .

ويتّخذ الأمرُ أربعَ صيغ هي :

1 – فعل الأمر – كقوله سبحانه حكايةً عن اليهود لموسى عليه السلام : «اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا»، وقوله سبحانه : «وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ»، وقوله سبحانه: «ذرْهُمْ يخوضُوا ويلعبُوا حتى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يُوعَدُونَ».

2 – المضارع المقرون بلام الأمر – كقوله سبحانه : «لِيُنفِقْ ذو سَعَةٍ مِن سَعَتِه»، وقوله سبحانه : «فلْيَعبدوا ربَّ هذا البيت الّذي أطعَمَهُمْ مِنْ جوعٍ وآمنَهُمْ مِنْ خوفٍ»، وقوله سبحانه : «ولْيَكتبْ بينَكُمْ كاتبٌ بالعَدْلِ».

3 – اسم فعل الأمر – ومنه «عَلَيْكُمْ»، وهو اسم فعل أمر بمعنى «الزموا»، وقد جاء في قوله سبحانه : «عليكمْ أنفسكم لا يضرُكُمْ مَنْ ضلَّ إذا

اهتديتُمْ». و«بَلْهَ» بمعنى «دعْ»، وقد جاء في قول الشاعر :

تَذَرُ الجَمَاجِمَ ضاحياً هاماتُها بَلْهَ الأكُفَّ كأنّها لم تُخْلَقِ

و«إيهِ» بمعنى «استَمِرَّ» ، كما في قول محمد الفراتي :

إيْهِ يا بلبلَ الفراتِ ترنّمْ فوقَ شُطآنِهِ وحيِّ الوُرودَا

4 – المصدر النّائب عن فعل الأمر – كقوله سبحانه : «وبالوالديْنِ إحساناً»، أي : أحسنُوا إلى الوالدَيْنِ إحساناً، وكقوله سبحانه : «وإذا لقيتُم الذينَ كفرُوا فضَرْبَ الرِّقابِ» ، أي : اضربوا الرقابَ ضربا . وكقولك : «صبراً في الضرّاءِ وشكْراً في السّرّاءِ» .

وهكذا فالدّلالة الحقيقية للأمر هي : الطّلَبُ على جهة الاستعلاء .

خروج صيغ الأمر عن معناها الأصلي :

قد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصلي وهو «الطّلب على جهة الاستعلاء» إلى معانٍ أخر، تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال. وأهمّ هذه المعاني :

1 – الدّعاء – حين تُستعمل الصيغة في سياق التضرّع والاستغاثة والاستعانة. ويكون عادةً في خطاب الأدنى لمن هو أعلى منزلةً منه، كما في قوله سبحانه حكاية عن إبراهيم عليه السلام : «ربّنا فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوي إلَيْهِمْ».

وكقوله سبحانه : «ربِّ أوزِعْني أنْ أشكرَ نِعْمتَك التي أنعمتَ عليَّ» .

ومنه في الشعر قول المتنبّي يخاطب سيف الدولة :

أخَا الجودِ، أعطِ الناسَ ماأنتَ مالكٌ   ولا تُعطِيَنَّ الناسَ ماأنا قائلُ

وقول عمر أبو ريشة يدعو ربّه أن يحيل ديار العروبة قفراً إن كانت ستعطي الرجال الشجعان :

ردّها قفراءَ إن شئتَ وموّجْها رمالا

نحنُ نَهْوَاهَا على الجدْبِ إذا أعطتْ رِجالا

2 – الالتماس – وهو طلب حصول الفعل حين يصدر عن شخصٍ إلى مساويه قدراً ومنزلةً. ومن أمثلته هذه الصيغ للأمر التي تتقاطر في خطاب أحد الشعراء لصاحبته :

يا مزاجاً من رقّةِ الزهْرِ والفجـ   ـرِ ومنْ روعةِ الضّحى والمساءِ

بُلبليٌّ التغريد صَوتُك يَسْري   في خيالي منوِّرا كالرّجاءِ

شجّعيني على الجهادِ ترَيْني   أنطقُ الصخرَ أرتقي للسّماءِ

علميني معنى الطّلاقة والخلْـ   ـدِ مقيماً ياربّةَ الإيحاءِ

طهرّيني بفَيْضِ قُدسِك مااستطعـ   ـت، وألقي عليَّ ثوبَ الرّضاءِ

وارفعيني إلى سمائكِ أُنشِدْ   لكِ شعْرا يموجُ موجَ الضياءِ

وأفيضي عليَّ بالوحْيِ أبدع   كلَّ لحنٍ معبّرٍ عن وفائي

ويتبيّن المتأمّل بيسرٍ أن أفعال الأمر التي تضمنتها الأبيات خرجت عن دلالتها الأصلية، وهي طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء، إلى معنى الالتماس؛ لأن الشاعر وصاحبته على مستوى واحدٍ من القدر والمنزلة .

3 – التّهديد – حين تُستعمل الصيغة في سياق عدم الرضى بالمأمور به، كقوله سبحانه : «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إنّهُ بِمَا تعملونَ بصيرٌ». وقوله سبحانه : «فتمتّعُوا فسوفَ تعلمونَ». وقوله سبحانه : «فذرْني ومَنْ يكذّبُ بهذا الحديثِ».

ومثله في الشعر قول الشاعر :

فطلِّقْها فلستَ لها بكُفْءٍ ... وإلاّ يَعْلُ مفرقَكَ الحُسامُ

4 – التّعجيز – حين تُستعمل الصيغة في سياق إظهار عجز المدّعي، كقوله سبحانه : «فأْتُوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِه». وقوله سبحانه : «يامعشر الجنِّ والإنس إنْ استطعتُمْ أنْ تنفذوا مِنْ أقطارِ السّمواتِ والأرض فانفُذُوا لا تنفذونَ إلاّ بسلْطانٍ».

ومنه في الشعر قول الشاعر :

أرُوني بخيلاً طالَ عُمْراً ببُخْلِهِ ... وهَاتُوا كَريماً ماتَ من كثْرةِ البَذْلِ

5 – التّسخير – حين تُستعمل الصيغة في سياقٍ يكون فيه المأمور منقاداً لما أُمِر به، كقوله سبحانه : «كونُوا قِرَدَةً خاسئِينَ». فليس في مقدورهم أن يفعلوا ما أمروا به، وهو أن يكونوا قِرَدَةً، لكنّهم وجدوا قدرة الله سبحانه قد تسلطّت عليهم وأحالتهم إلى قردة صاغرين مطرودين، دون أن يكون لهم سلطان فيما حلّ بهم .

6 – الإهانة – حين تستعمل الصيغة في سياق عدم إقامة وزنٍ للمأمور، كقوله سبحانه : «كُونُوا حِجارةً أو حديداً». وقوله سبحانه : « ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ». وقوله سبحانه حكايةً عن موسى عليه السلام

يخاطب السَّحَرة : «أَلْقُوا ما أنْتُمْ مُلْقُونَ» .

وفارق مابين التسخير والإهانة أنّه في التسخير يحصل الفعل، أي صيرورتهم قردة، وفي الإهانة لا يحصل، إذ المقصود هو قلّة المبالاة بهم .

7 – الإباحة – حين تُستعمل الصيغة في سياق توهّم المخاطب حَظْرَ الإتيان بالشيء، كقول سبحانه : «كُلُوا واشربُوا حتى يتبيَّن لكُمْ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر»، وقوله سبحانه : «فإذا قُضيت الصَّلاةُ فانتشِرُوا في الأرضِ»، وقوله سبحانه : «فكاتبوهم إنْ علمتُمْ فيهِمْ خيراً» .

ومنه في الشعر قول كثيرٌ عَزّة :

أسيئي بنا أوْ أحسِني لا ملـومةٌ لدينًا ولا مقليّـةٌ إنْ تقلّـتِ

أي : مهما اخترت في حقي من ضروب الإساءة والإحسان فأنا راضٍ به غاية الرضا، ولن تتفاوت حالي إزاءك في الحالين .

8 – التسوية بين الشيئين – حين تُستعمل الصيغة في سياقٍ يتوهّم المخاطب فيه رجحان أحد الطرفين المتساويين، كقوله سبحانه : «اصبِرُوا أو لا تَصبِرُوا»، وقوله سبحانه : «أنفقوا طوعاً أو كَرْهاً لن يُتقبّلَ منكُمْ». فليس المراد في الآيتين الأمر بالصّبر أو الإنفاق، بل بيان أنّ الصّبر وعدمه سيّان (في الأولى)، والإنفاق طوعاً والإنفاق كرهاً سيّان في القبول (في الثانية) .

ومنها في الشعر قول المتنبي :

عِـشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمٌ ... بينَ طَعْنِ القَنَا وخَفْقِ البُنُودِ

9 - التمـنّي - حين تُستـعمل الصيغـة في سيـاق طلبِ أمرٍ لا طمع في حصوله، كقول امرىء القيس :

ألا أيُّهـا الليلُ الطويل ألا انجـلِ ... بصُبْحٍ، وما الإصْبـاحُ منكَ بأمثلِ

وقول عنتـرة :

يادارَ عبـلةَ بالجـواء تكلّـمي ... وعِمي صـباحاً دارَ عبلـةَ، واسـلمي

فـالليل لا يصـح أن يطلب منه الانجـلاء، ودار عبلة لا يصحّ أن يطلب منها التكلّم .

10- الامـتنـان - حين تُستـعمل الصيغة في سيـاق إظهار الفضل وإسداء الشكر، كقوله سبحانه : «فكُلُوا مِمّا رَزَقَكُم اللّهُ»، وقوله سبحانه : «كُلُوا مِنْ رزقِ ربّكم واشكروا له» .

11- الإكـرام - حين تُستعمل الصيغة في سياق بيان الأهليّة والاستحقاق، كقوله سبـحانه : « ادخلُوها بِسَلامٍ آمنينَ»، وقوله سـبـحانه: «فادخُلي في عبادِي وادخلي جنَّتي».

12- الدّوام - حين تُستعمل الصيغة في مطلوبٍ حاصل عند الطلب، كقوله سبحانه : «ياأيُّها الّذينَ آمَنُوا آمِنُوا»، وقوله سبحانه : «اهدنا الصِّراطَ المستـقيمَ». والمعنى : داوِمُوا على إيمانكم، وأدِمْ علينا هدايةَ الصِّراط المستقيم .

13- الإذْنُ - حين تُستعمل الصّيغة في سياقِ بيانِ جوازِ الأمرِ والإذْنِ به.
تقول لمن طرق الباب : «ادخلْ»، تريد أنك أذنتَ له بالدّخول .

14- النُّصْـح والإرشـاد - حين تُستعمل الصّيغة في سياق التعليم وبيان ماينبغي فعله، كقوله سبحانه : «إذا تداينتُمْ بدَيْنٍ إلى أجلٍ مسمّى فاكتُبُوهُ وليكتبْ بينكُمْ كاتبٌ بالعَدْلِ» .

ومن الأمر الذي خرج إلى النّصح والإرشاد قولُ ابن الورديّ :

واهجُرِ الخمرةَ لا تحفلْ بِها   كيفَ يسعى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

وقول أحمد شوقيّ :

تخلّقِ الصفْحَ تَسْعَدْ في الحياة بِهِ   فالنّفسُ يُسْعِدُها خُلُقٌ ويُشقيها

15- الاعتبار - حين تُستعمل الصيغة في سياق أخذ العظة، كقوله سبحانه : «انظروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ»، وقوله سبحانه : «قلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمينَ» .

16- التّعجُب - حين تُستعمل الصّيغة في سياق الاستغراب، كقوله سبحانه : « انظرْ كيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ»، وكقولك متعجّباً : «اسمَعُوا مايقول فلان !» .

17- التّهيف أو التحسير - حين تُستعمل الصيغة في سياق النكاية والتّشفّي بالخصم، كقوله سبحانه : «قُلْ مُوتُوا بغيظِكُمْ» . ومنه في الشعر قول جرير :

موتُوا منَ الغيظِ غماً في جزيرتِكُمْ   لَنْ تقطعُوا بطنَ وادٍ دونَه مُضَرُ

والحق أنّ ثمّة معاني كثيرة غير هذه يخرج إليها الأمر، ويتبيّنها المتأملّ بشيء من إعمال البصيرة .

مبحـــث النّهْــــي :

وهو طَلَبُ الكفّ عن الفعل استعلاءً. والاستعلاء المراد هنا ضربان : حقيقيٌّ، كقول السيّد لعبده : لا تفعلْ كذا . وادّعائيّ، كقول العبد لسيّده : لا تفعلْ كذا، متعاظماً .

صيغة النّهْــــي :

للنّهي صيغة واحدة هي الفعل المضارع المقرون بـ «لا» الناهية، كقوله سبحانه : «ولا تجسَّسوا ولا يغتبْ بعضُكُمْ بَعْضاً».

الدلالة الحقيقية لصيغة النهي :

تعني صيغةُ النهي أصلاً طلب الإقلاع عن الفعل طلباً جازماً ملْزِما . وتدلّ - مع ذلك - على الفور والاستمرار. فقولك لمن يشرب الخمر . «لا تشرب الخمر» يستدعي منه أن يكفّ في الحال ويستمرّ كافًّا عنها . ولا يُعدّ ممتثلاً إذا كفّ في الحال ثم عاد إليها، أو إذا استمّر يشرب ثم كفّ عنها بعد ذلك.

الدلالات المجازية لصيغة النهي :

قد تخرج صيغةُ النهي عن دلالتها الحقيقية، أي طلب الإقلاع عن الفعل طلباً جازماً ملزماً، إلى دلالات مجازية يحدّدها السّياق وتدل عليها قرائن الأحوال . وأهمّ هذه الدلالات :

1- الدّعـاء - حين تُستعمل الصّيغة في سياق التخضّع والاستعطاف، كـقـوله سـبـحـانه : «ربَّنا لا تُؤاخذْنَا إنْ نَسينَا أوْ أخطَأْنَا»، وقـوله سبحانه: «ربَّنا لا تجعلْنَا فتنةً للذّينَ كَفَرُوا»، وقوله سبحانه : «ربَّنا لا تجعلنا معَ القومِ الظّالمينَ» .

2 - الالتمـاس - حين تُستعمل الصّيغة في سياق نَهْي صادرٍ من شخصٍ إلى مساويه سنّاً ومقاماً، كقوله سبحانه حكاية عن هارون يخاطب موسى عليه السلام : «يا ابنَ أمَّ لا تأخذْ بلِحْيتي ولا برأسِي». وكقولك لصديقك : «لا تدع الحَيْرةَ تستبدّ بك» .

3 - التّهـديد - حين تُستعمل الصّيغة في سياق عدم الرضى بالمنهيِّ عنه والتّلويح بسوء العاقبة في حال الاستمرار على هذا المنهيِّ عنه، كقولك لمن هو دونك : «لا تمتثلْ لأمري، وسترى النّتيجة» . وكقول القائد لأحد جنده : «لا تطعْ أمْرِي، ولا تفعلْ ماأمرتُك به ، .. الخ» .

4 - الإرشـاد - حين يُستعمل الصّيغة في سياق التعليم وإسداء النّصح، كقوله سبحانه «لا تسألُوا عن أشياءَ إنْ تُبدَ لكُمْ تسؤكمْ». ومنه في الشعر قول الشاعر :

إذا ماخلَوْتَ الدهرَ يوماً فلا تقـلْ　　خلوتُ ، ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنّ اللّه يغفـلُ ساعة　　ولا أنّ ما تُخفيهِ عنهُ يَغيبُ

5 - التّيئيس - حين تُستعمل الصّيغة في سياق قطع الأمل في حصول المراد، كـقـوله سـبـحـانه : «لا تـعـتـذِرُوا اليـومَ إنمّا تُجزَوْنَ ماكنتُمْ تعملونَ». وقوله سبحانه : «لا تعتذِرُوا قد كفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ» .

ومنه في الشعر قول المتنبّي يمدح سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريماً بعدَ رؤيتهِ إنّ الكرامَ بأسخاهُمْ يداً خُتِمُوا

6 – الدّوام – حين تُستعمل الصّيغة في النهي عما هو مكفوفٌ عنه، كقوله سبحانه : «ولا تحسبنَّ اللّهَ غافلاً عمّا يعملُ الظّالمون»، وقوله سبحانه : «فلا تحسبنَّ اللّهَ مخْلِفَ وعدِهِ رسلَهُ إنّ اللّهَ عزيزٌ ذو انتقام».

7 – التمـنّي – حين تُستعمل الصّيغة في نهي غير العاقل، كما في قول الشاعر :

ياليـلُ طُـلْ ، يانومُ زُلْ يا صـبحُ قِفْ ، لا تطلُـعِ

8 – التّحقـير – حين تُستعمل الصّيغة في سياق الحطّ من قدر المخاطب والاستهانة به، كقول الشاعر :

لا تطلبِ المجدَ ، إنّ المجدَ سلَّمُهُ صعبٌ ، وعِشْ مستريحاً ناعمَ البالِ

وكقول الحطيئة في الزبرقان بن بدر :

دَعِ المكارِمَ لا ترحَلْ لبُغيتِهَا واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطّاعِمُ الكاسِي

9 – التّوبيـخ – عندما تستعمل الصيغة في النّهي عن أمر يشين الإنسانَ ولا يليق به أن يصدر عنه، كقوله سبحانه : «لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم»وكقول الشاعر :

لا تنـهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيم

10– الائتنـاس – حين تُستعمل الصّيغة في سياق بثّ الطمأنينة والأنس، كقوله سبحانه : «لا تحزنْ إنَّ اللّهَ مَعَنَا»، وقوله سبحانه : «فلا تخشَوُا النّاسَ واخشَوْنِ» .

11 – بيان العاقبة – حين ترد الصّيغة في سياق الدّعوة إلى التبصّر وإدراك حقائق الأمور، كقوله سبحانه: «ولا تحسبنّ الّذين قُتلُوا في سبيل اللّهِ أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقُونَ» .

وعلى الجملة، فإنّ المعاني التي يخرج إليها النّهي عصيةٌ على التّحديد الدّقيق، ويكفي في إدراكها قدرٌ من نفاذ البصيرة والذوق المميِّز .

أسئلة وإجاباتها حول الأمر والنّهي (1)

– حدّد دلالة صيغ الأمر والنّهي فيما يأتي :

1 – قال سبحانه : «خذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرضْ عن الجاهلين» .

2 – يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكلّمي وعمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

3 – أسيئي بنا أوْ أحسني لا ملومةٌ لدينا، ولا مقليّةٌ إن تقلّتِ

4 – قال سبحانه : «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» .

5 – ياليلُ طُلْ يانومُ زُل يا صبحُ قِفْ لا تطلعِ

6 – لا تعاندْ مَنْ إذا قال فعل .

7 – عِشْ مابدا لك سالماً في ظلِّ شاهقة القصورِ

8 – قال سبحانه : «يا أرضُ ابلعي ماءَكِ» .

9 – قال سبحانه : «وأسرُّوا قولَكُم أو اجهروا بهِ إنّهُ عليمٌ بذات الصدور» .

10– قال سبحانه : «لا يسخرْ قومٌ من قومٍ» .

الإجـــــابات :

1 – جاء الأمر فيه للإرشاد 2 – جاء الأمر فيه للتّمنيّ 3 – جاء الأمر فيه للتّسوية
4 – جاء النّهي فيه للدّعاء 5 – جاء النّهي فيه للتمنيّ 6 – جاء النّهي فيه للإرشاد
7 – جاء الأمر فيه للدّعاء 8 – جاء الأمر فيه للتمنىّ 9 – جاء الأمر فيه للتسوية
10– جاء الأمر فيه للتوبيخ

أسئلة وإجاباتها حول الأمر والنّهي (2)

– حدّد دلالة صيغ الأمر والنّهي فيما يأتي

1 – ترفّـقْ أيُهـا المـولى عليهـمْ فإنّ الرفـقَ بالجـاني عتـابُ

2 – اتّخـذْ لنفسـكَ سلُماً في السـماء .

3 – أرى العنقاءَ تكبرُ أن تُصـادا فعـاندْ من تُطـيق له عنادا

4 – أعينـيَّ جـددا ولا تجمـدا ألا تبكيـان لصـخر الندى

5 – أريني جواداً ماتَ هُزْلاً لعلّني أرى ماتَرَيْنَ أو بخيلاً مخلّدا

6 – لا تقم لأداء واجبـكَ

7 – قال سبحانه : «قلْ هاتُوا برهانكُمْ إن كنتمْ صادقينَ».

8 – اربْأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل .

9 – لا تبارح أيّها الشبابُ .

10– قال سبحانه : «ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري».

الإجـــــابات :

1 – جاء الأمر فيه للدّعاء 2 – جاء الأمر فيه للتّعجيز 3 – جاء الأمر فيه للإهانة
4 – جاء النّهي فيه للتمنىّ 5 – جاء النّهي فيه للتّعجيز 6 – جاء النّهي فيه للتهديد
7 – جاء الأمر فيه للتّعجيز 8 – جاء الأمر فيه للإرشاد 9 – جاء النّهي فيه للتّمني
10– جاء الأمر فيه للدعاء

مبحـث الاســـــتفهام :

الاستفهام – لغةً – طَلَبُ الفهم. واصطلاحاً : طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبلُ، بوساطة واحدةٍ من أدواته .

أدوات الاســـــتفهام :

للاستفهام إحدى عشرة أداة هي : الهمزة – هل – ما – مَنْ – متى – أيّانَ – أينَ – كيفَ – أنّى – كمْ – أيّ .

وهذه الأدوات على ثلاثة أقسامٍ من حيث مايُطلب بها :

1 – ما يُطلب به التصوّر تارةً، التّصديق أخرى – وهو الهمزة .

2 – مايطلب به التّصديق فحسب – وهو «هَلْ» .

3 – ما يُطلب به التصوّر فحسب – وهو بقية أدات الاستفهام .

وسنتناول كلاً منها على نحو مفصّل إن شاء اللهُ .

الهمـــزة – ولهـا حالان :

أولاً – أن يُطلب بها تصوّر المفرد كإدراك المسند إليه وحده أو المسند وحده. تقول في طلب تصوّر المسند إليه : أعليٌّ زارَكَ أم أحمدُ ؟. أنت ههنا تعرف أنّ أحدهما زارَ ولكنّك لا تعرف أهو عليّ أم أحمد ؛ فتطلب بالسؤال بالهمزة تعيينه وتصوّره، فتجاب حينئذ بأنّه عليّ – مثلاً. وتقول في طلب تصوّر المسند : أشاعرٌ عليٌّ أمْ كاتبٌ ؟. فأنت ههنا تعرف أنه يتّصف بإحدى هاتين الصفتين : الشعر والكتابة، ولكنك لا تعرف تحديداً أهي الشعر أم الكتابة؛ فتطلب بالسؤال بالهمزة تعيين الصفة، فتجاب بأنه : شاعرٌ، مثلاً. وهكذا يظهر أن التصوّر يعني إدراك المفرد وتعيينه ولذا يجاب بالتعيين. وفي مقدورنا القول إنّ التصوّر هو طلبُ معرفة المفرد وتحديده، ويتوصّل إلى ذلك باستعمال الهمزة .

وحكم همزة التصوّر هذه أن يليها المسؤول عنه بها. والمفرد الذي يطلب تصوّره وتحديده بالهمزة قد يكون :

1 – مسنداً إليه، كالمثال السّابق، وكقولك : أأنْتَ نظمتَ هذه القصيدةَ أم أخوك ؟. أنت تعرف أنّ هذه القصيدة قد نظمها ناظم، ولكنّك لا تعرف تحديداً أن ناظمها هو مخاطبك أم أخوه، ولذلك تستعمل همزة التصوّر لطلب تحديد هذا الناظم الذي جاء هنا مسنداً إليه (مبتدأ)، وجاء بعد الهمزة .

2 – أو مسنداً، كقولك : أمدرّسٌ أنت أم قاضٍ ؟ وأنت تعرف أنه متّصفٌ بإحدى الصّفتين، لكنّك لا تعرف تحديداً أيّ الصّفتين له، فتستعمل همزة التصوّر لطلب معرفة المفرد (كونه مدرّساً أو قاضياً) وتعيينه .

3 – أو مفعولاً به كقولك : «أحَلَبَ زُرْتَ أم دمشقَ ؟. تعرف أنت أن الزيارة منه حاصلةٌ لا محالة، لكنّك لا تعرف تحديداً أزار حلبَ أم دمشق، ومن هنا تستعمل همزة التصوّر تطلب بها تحديد المفرد (المكان المزور : حلب، دمشق).

4 – أو حالاً، كقولك : «أمبتسماً تلقّاكَ أم متجهّماً ؟». تعرف أنت أنّ الشّخص تلقيّ مخاطبك في إحدى حالين : مبتسماً، مشرقَ الوجه – أو متجهّماً، فتقبضَ الأسارير. وابتغاء أن تتصوّر الحال التي تلقّاه فيها تستعمل همزة التصوّر لتطلب تعرّف المفرد (كونه مبتسماً أو متجهماً) .

5 – أو ظرفاً كقولك : «أصَباحاً وصلتَ أمْ ظهراً ؟». تعرف أنّ مخاطبك وصلَ إمّا صباحاً وإمّا ظهراً، وابتغاء تصوّر أيّ منهما وتحديده استعملتَ همزة التصوّر؛ الأداة المعدّة لهذا الغرض .

وقد لاحظتَ في الأمثلة المتقدمة جميعاً مجيء المسؤول عنه بعد الهمزة التي للتصوّر، ومجيءَ معادلٍ لهذا المسؤول عنه بعد «أم» غالباً؛ وتسمّى «أم» هذه : متّصلة. ويجوز حذف المعادل .

ثانياً – أن يُطلب بالهمزة التّصديق بنسبة بين شيئين ثبوتاً أو نفياً. بمعنى التّصديق انقياد الذهن وإذعانه لوقوع نسبةٍ تامّة بين شيئين. فعندما تقول : «أجَاءَ أخوكَ ؟» لا تسأل عن ذات المجيء، ولا عن ذات الأخ بل تسأل عن نسبة المجيء إلى الأخ : هل حصل منه هذا المجيء. ونسبة المجيء إلى الأخ هذه تردّد عقلَك بين أن تكون محقّقةً في الواقع الخارجيّ أو غير محقّقة. ويكثر دخولُ همزة التصديق على الجملة الفعلية كقولك :

أتقرأ القصَص ؟، أتحبّ السّفَرَ ؟، أتحافظ على الصلَوات الخمس ؟ ..،
ويقلّ دخولُها على الجملة الاسمية كقولك : «أعليٌّ شاعرٌ»، حيث تسأل عن نسبة الشعر إليه، حاصلة أو غير حاصلة. ويجاب التصديق بـ «نعم» أو «لا»، ولا يلي المسؤولُ عنه الهمزة؛ وليس لها لفظ خاصّ يمكن أن يلي الهمزة.

وحاصل القول أنّ الهمزة تكون للاستفهام عن التّصوّر والاستفهام عن التّصديق، والاستفهام عن التصوّر يكون عند العلم بثبوت أصل الحكم لأحد الشيئين والتردّد في تعيين واحدٍ منهما، والاستفهام عن التصديق يكون عند الجهل بثبوت أصل الحكم وتردّد الذهن في النسبة (الحكم) بين ثبوتها ونفيها.

هَـــلْ - ولها صفتان :

1 - اختصاصُها بطلب التصديق بنسبةٍ بين شيئين ثبوتاً أو نفياً؛ بمعنى أنّ السائل بها ينشُد معرفةَ حصول النسبة أو عدم حصولها. وتدخل على الجملتين الفعلية كقولك : «هل زارَكَ أحمدُ ؟»، والاسميّة، كقولك : «هل أحمدُ زائرُك ؟». ويذهب البلاغيّون إلى أنّ «هَلْ» لمّا كانت إنمّا تجيء لطلب التّصديق امتنع أن تأتي في كل تركيب يُذكر فيه المعادل، كقولك : «هل زارَك أحمد أم عليٌّ»؛ لأنّ ذكر المعادل يفيد علم السّائل بثبوت أصل الحكم، وهو وقوع الزيارة، ويُطلب تعيين الزائر أهو أحمد أم عليّ، و«هَلْ» تفيد جهل السائل بأصل الحكم (وهي لطلب التّصديق به)؛ ومن ثم فالجمع بين ذكر المعادل (المفيد علم السائل بثبوت أصل الحكم) وهل (المفيدة جهل السائل بأصل الحكم) في تركيب واحد

يفضي إلى التناقض. ويقبح استعمال «هَلْ» في كلّ تركيب يقدَّم فيه المعمول على العامل كقولك : «هل أحمدَ قابلت ؟»؛ لأنّ تقديم المعمول على العامل يعني غالباً تخصيص العامل بالمعمول، فقولك «هل أحمدَ قابلتَ ؟» يفيد أنّك مقرّ بوقوع المقابلة فيه وأنها حصلت حقاً، لكنّك تسأل عن الشّخص الذي خصّه مخاطبُك بالمقابلة. فتقديم المفعول هنا «أحمد» يفيد التصديق بأصل الحكم (حصول المقابلة»، و«هل» مخصّصة لطلب التصديق بأصل الحكم. وهكذا .. يجتمع لدينا في تركيب واحدٍ مايفيد التصديق بأصل الحكم (التقديم) ومايسأل به عن أصل الحكم (هَلْ)، ويؤدي ذلك في النّهاية إلى طلب حصول الحاصل والاستفهام عن أمر تقرّ بأنّك تعرفه، وهو ضربٌ من العبث .

2 - تخليصُها المضارع للاستقبال وضعاً، بعد أن كان محتملاً للاستقبال والحال، ومن ثم لا يصحّ أن يُسأل بها عن الفعل الواقع في ا لماضي أو ا لحال، فلا يجوز أن تقول : «هل تضرب زيداً وهو أخوك ؟». فمثل هذا استفهام توبيخ، ويكون التّوبيخ على فعل حصل في الماضي أو يحصل الآن. ولأنّها مختصّة بالتصديق وتخصّص المضارع للاستقبال اختصّت بدخولها على الفعل لفظاً أو تقديراً. وقد تدخل على الجملة الاسمية لغرض بلاغيّ هو تصوير ماسيحصل مستقبلاً في صورة الحاصل اهتماماً بشأنه وتدليلاً على شدّة الرغبة فيه. تقول : «هل أيامُنا الخوالي عائدة ؟»، تريد : هل ستعود أيامنا الخوالي فيما بعد ؟؛ لكنّه لمّا كانت عودتها مما يحبّه القائل ويحرص عليه كثيراً أُبرزت في صورة الحاصل الآن . وهكذا عبِّر بالجملة الاسمية؛ لأنها أدلّ على طلب حصول عودة الأيام الخوالي .

نوعا «هَل» :

«هـل» نوعان : بسيطة ومركَّبة

فأمّا البسيطة فهي التي يُستفهم بها عن وجود الشيء في نفسه، أو عدم وجوده، كقولنا : هَلْ الحركةُ موجودةٌ ؟» أو «هَلْ هي غيرُ موجودة ؟» – وكقولنا : «هَلِ العنقاءُ موجودة ؟» أو «هَلْ هيَ غيرُ موجودة ؟». وسمّيت هذه بسيطة لأنه يُلحظ فيها شيء واحدٌ غير الموجود هو «الحركة» في المثال الأول، و«العنقاء» في الثاني .

وأمّا المركَّبة فهي التي يُستفهم بها عن وجود شيءٍ لشيء أو لا وجوده له. كقولنا : «هَلْ الحركةُ دائمةٌ ؟». أو «هَلْ هي غيرُ دائمة ؟»، وكقولك : «هل الشّمسُ طالعةٌ ؟» أو «هل هي غيرُ طالعةٌ ؟». وقد سمّيت هذه مركّبة ؟ لأنّها يُلحظ فيها شيئان غير الوجود، هما «الحركة» و«الدّوام» في المثال الأول، و«الشّمس» و«الطلوع» في الثّاني. وفارق مابين الاثنتين أننا في «البسيطة» نسأل عن وجود الشيء نفسه أو عدم وجوده؛ وفي «المركبة» نفترض أنّ الشيء موجود مسلّمٌ بوجوده، ونحن نسأل عن صفةٍ من صفاته هل هي موجودة أو لا. وعلى الجملة فإنّ مطلوب هل البسيطة هو التصديق بوجود الشيء فحسب ، ومطلوب المركبة هو التصديق بوجود الشيء ووجود شيءٍ له .

أدوات الاستفهام الأخر :

تشترك أدواتُ الاستفهام الأخر في أنها تكون لطلب التصوّر، أي معرفة المفرد، فحسب، وتتباين في أنّ المطلوب تصوّره بكلٍّ منها مختلفٌ عن المطلوب تصوّره بالأخرى. وإليك بيان ذلك :

1 – مَـا – ويُستفهم بها عن غير العاقل ، وهو أحدُ أمرين :

(أ) شرح الاسم وإيضاحه، كقولك : «ما الفَدَوْكس ؟» طالباً أن يُشرح هذا الاسم ويوضح مفهومه؛ وتجاب بلفظ أشهر وأنت به أعرفُ .

(ب) ماهية المسمّى، أي حقيقته وجوهره، كقولك : «ما الحركةُ ؟» طالباً أن يبيّن لك حقيقة مسمّى هذا اللفظ، فتجاب بايراد ذاتياته وخصائصه الدّقيقة . قال سبحانه : «ماهذه التماثيلُ التي أنتم لها بماكنون ؟»، وقال سبحانه : «ياأيُّها الإنسانُ ماغرَّك بربكَ الكريم ؟» . قال العلامة التفتازاني : « والفرق بين المفهوم من اللفظ بالجملة، وبين الماهية التي تُفهم من الحدّ (التعريف) بالتّفصيل غيرُ قليل؛ فإنّ كلَّ مَنْ خوطب باسمٍ فهم فهماً ما، ووقف على الشيء الذي يدلّ عليه الاسم إذا كان عالماً باللغة؛ وأمّا الحدّ فلا يقف عليه إلاّ المرتاض (المدرَّب) بصناعة المنطق» .

2 – مَنْ – ويُسأل بها عن العاقل، فيجاب بما يشخصّه ويعيِّنُه؛ كأن يقال: «مَنْ صَقرُ قريش ؟» و«مَنْ قائدُ معركةِ حطِّينَ ؟»، فيجاب باسمه الخاصّ، فيقال : «عبدُ الرحمن الداخل» في إجابة الأول، و«صلاحُ الدين الأيوبي» في إجابة الثاني. وقد يجاب بوصفه المعيّن، كأن يسأل: «مَنْ أتاكَ بهذا الكتاب ؟» فيجاب : « الرجلُ الضّرير الذي

رأيته عندي البارحة». قال سبحانه : «فلمّا نبّأها به قالت : مَنْ أنبأكَ هذا ؟ : قال : نبّأني العليمُ الخبيرُ». وقال سبحانه : «فمن ينصرنا من بأسِ اللّهِ إن جاءنا ؟».

3 – متى – ويُسأل بها عن الزمان ـ ماضياً كان أو مستقبلاً – تقول : «متى جئتَ ؟» – فيُجاب: «البارحةَ». وتقول : «متى تجيء ؟» – فتجاب : «غدا». قال سبحانه: ويقولونَ متى هذا الوعدُ إن كنتُمْ صادقينَ ؟»، وقال سبحانه : «وزُلْزِلُوا حتىّ يقولَ الرسولُ والّذينَ آمنُوا مَعَهُ متى نصرُ اللّهِ ؟».

4 – أيّانَ – ويُسأل بها عن الزمان المستقبل خاصّة، وترد كثيراً في مواضع تعظيم المسؤول عنه، كقوله سبحانه: «يسألونَ أيّانَ يومُ الدّينِ؟»، وقوله سبحانه : «يسألونك عن الساعة أيّان مرساها ؟» .

5 – أين – ويُسأل بها عن المكان، كقوله سبحانه : «يَقُولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ ؟»، وقوله سبحانه : «أينَ شُركاؤكُمْ الّذينَ كنتُمْ تزعمونَ ؟».

6 – كيف – ويُسأل بها عن الحال، كقوله سبحانه : «فكيفَ إذَا جِئنَا مِنْ كلِّ أمّةٍ بشهيدٍ ؟». ومثالها في الشعر قول الشاعر :

وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرَمُ الغنى   ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

7 – أنّى – وتستعمل تارة بمعنى «كيف» فيسأل بها عن الحال، ويجب أن يكون بعدها فعل، كقوله سبحانه : «أنّى يُحيي هذه الله بعدَ مَوتِها ؟».

وتستعمل تارة بمعنى «من أينَ» فيسأل بها عن المكان، كقوله سبحانه: «يامريمُ أنّى لك هذا ؟»، على معنى : مِنْ أينَ لك هذا الرزق ؟. وتستعمل بمعنى «متى» فيسأل بها عن الزمان، كأن تقول : «أنّي

رأيتَ أحمد ؟» و«أنّى تسافر ؟»، على معنى متى .

8 – كَـمْ – ويُسأل بها عن العدد المبهم ، كما في قوله سبحانه : «قالَ قائلٌ منهمْ كَمْ لبثْتُمْ قالُوا لبثْنَا يوماً أَوْ بعضَ يومٍ»، وقوله سبحانه : «قالَ كَمْ لبثتَ قالَ لبثتُ يوماً أو بعضَ يومٍ» .

9 – أيٌّ – ويُسأل بها عمّا يميّز أحدَ المتشاركين في أمرٍ يعمُّهما، كقوله سبحانه : «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً ؟»، و«أيّ الحزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُوا أمَلاً ؟». وتستمدّ دلالتها مما تضاف إليه، فتفيد المعنى الذي تفيده أدوات الاستفهام من السؤال عن العاقل ، وغير العامل، والزّمان، والمكان، والحال، والعدد .

الدّلالاتُ المجـازيّة لأدوات الاستفهام :

يجدر الانتباه إلى أنّ أدوات الاستفهام في معانيها الأصلية (طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل) أمرٌ لا ينتمي إلى البلاغة ولا يتجاوز الاستعمال النّحوي الصرف. أمّا المهمّ بشأن البلاغة ههنا هو أنّ هذه الأدوات قد يُستفهم بها عن الشّيء «مع العلم به» وهكذا يكون لها دلالات مجازية تُفهم من سياق الكلام بوساطة قرائن الأحوال. وأهم هذه الدلالات :

1 – الأمـر – كما في قوله سبحانه : «فهلْ أنتُمْ منتهونَ ؟» أي : انتهوا . وقوله سبحانه : «فهلْ أنتُمْ مُسلِمُونَ ؟» أي : أسلِموا . وقوله سبحانه : «ولقد يَسَّرْنَا القرآنَ للذّكرِ فهَلْ من مُدّكرٍ ؟» أي : تذكّرْ واتعظْ .

ومن الاستفهام الذي خرج إلى معنى الأمر وورد كثيراً في الذكر الحكيم صيغة «أرأيتَ» بمعنى : «أَخْبِرْني». كقوله سبحانه : «أفرأيتَ

الذّي تولّى، وأعطى قليلاً وأكدى ؟». أي : أخبرني عن هذا الذي أعطى قليلاً ثم أكدى (توقّف عن العطاء). وقوله سبحانه :«أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلّى، أرأيتَ إن كان على الهدى أو أمرَ بالتّقوى، أرأيتَ إنّ كذّبَ وتولىّ ؟»، على معنى : أَخْبَرَني أيُّها السامعُ عن حال هذا الرجل .

2 – النّـهي ، كقوله سبحانه : «أتخشونَهُمْ فاللّهُ أحقُّ أن تخشوه ؟» أي : لا تخشوهم؛ فاللّهُ وحده الجديرُ بأن يُخشى. ومنه قول الشاعر :

أتحسبُ أنّك جِرمٌ صـغيرٌ   وفيكَ انطـوى العـالَمُ الأكبـرُ

أي : لا تحسـب .

وقول الآخـر :

أخالُني أرضي الهوانَ ؟ فحـاذرِ   واسلَمْ بنفسِكَ مِنْ أبيٍّ قادرِ

أي : لا تخلني أرضي الهوان، فحاذرني ..

3 – النّفـي ، كما في قوله سبحانه : «هَلْ جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ؟» أي : ماجزاء الإحسان إلا الإحسان. وقوله سبحانه : «مَنْ ذا الّذي يشفعُ عندَهُ إلا بإذنه ؟» .

أي : لا أحد يشعف عنده إلا بإذنه . ومنه قول المتنّبي :

ومَنْ لَمْ يعشقِ الدّنياَ قديماً ؟   ولكنْ لا سبيلَ إلى الوِصـالِ

أي : لا أحد لم يعشق الدنيا قديماً .

وقـوله :

يفـنى الكلامُ ولا يُحيطُ بفضـلِكُمْ   أيحيطُ ما يَفـنى بما لا ينفَـدُ

أي لا يحيط مايفنى بما لا ينفد .

4 – التّشويق ، كقوله سبحانه : «هل أدلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجيكُمْ مِنعذابٍ أليم ؟».

يشوّقهم الباريء سبحانه إلى تجارة رابحة هي التمسّك بكتاب الله وسنّة رسول الله عليه الصلاة والسلام. وكقوله سبحانه حكايةً عن إبليس عندما أخذ يوسوس لآدم عليه السلام ويغريه بالأكل من الشّجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها :

«هَلْ أدلُّك على شجرة الخلْدِ ومُلكٍ لا يبلى ؟» .

5 – التعجّب، كقوله سبحانه حكايةً عن سليمان عليه السلام : «مالِي لا أرى الهُدْهُدَ ؟ ». وقوله سبحانه : مالهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسْواقِ ؟» .

ومنه في الشعر قول المتنبي يخاطب الحمّى :

أبنتَ الدّهْرِ عِنْدي كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ مِنَ الزّحامِ ؟

وقول المرحوم عمر أبي ريشة :

ما أنتِ يا دنيا وما أبقيت للأحلام منّي ؟
تطوينَ بالإغراء أيّـ ـامي وأطويها تمنّيّ

وقول الشاعر وهو في المغترَب* :

مالي أغالبُ م الأحزانِ أرمضَها : هَجْرَ الحبيبِ وبُعدَ الدّارِ عن بَلَدِي

(*) عيسى العاكوب .

6 – التّنبيه على ضلال، كقوله سبحانه : «فأينَ تذهبُونَ ؟»، والمراد تنبيههم على أنهم ضالّون وأنّ العذاب مدركهم حيثما كانوا . وقوله سبحانه : «أفأنت تُسمع الصمَّ أو الهدِي العُمْيَ ؟ » .

7 – التّمنّي ، كما في قوله سبحانه : «فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا» بمعنى : ليت لنا شفعاء؛ لأنهم يعلمون أن لا شفيع لهم. ومنه في الشعر قول سلطان العاشقين ابن الفارض :

أيْ ليالي الوصْلِ، هَلْ من عودةٍ   ومِنَ التعليلِ قولُ الصّبِّ أيْ

8 – التهكّم، كقوله سبحانه : «أصلاتُك تأمرُكَ أنْ نتركَ مايعبدُ آباؤُنا ؟».
كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، فإذا رآه قومه يصلي تضاحكوا، وقالوا له ذلك؛ قصداً إلى السّخرية والتهكم، لا إلى حقيقة الاستفهام. وكقوله سبحانه حكايةً عن إبراهيم عليه السلام : «فراغَ إلى آلِهَتِهِمْ فقالَ : ألا تأكلونَ مالَكُمْ لا تنطقونَ ؟»، وكقوله سبحانه : «أهذا الّذي يذكرُ آلهتَكُمْ ؟».

9 – الاستبطاء ، كقوله سبحانه : «متى نصرُ اللّهِ ؟»، ومنه في الشّعر قول الشّاعر :

حتّى متى أنتَ في لهوٍ وفي لَعِبٍ   والموتُ نحوَكَ يهوي فاتحاً فَاهُ ؟

وقول الآخر يشتكي طول التّرحال :

حتّامَ أبقى دائراً   حولَ البسيطة كالقمر ؟

وقول الشيخ عدنان حقّي :

فالى متى الآمال يسفها اللّظى   في سجنها من دهرنا الغدّار ؟

10 – الاستبعاد – وهو اعتداد الشيء بعيداً حسًا ومعنىً ، كقوله سبحانه : «أنّى لَهُم الذّكرى وقدْ جاءهُمْ رسولٌ مبينٌ ؟»، أي : لا يمكن أن يذكروا ويعتبروا ويرجعوا إلى الحقّ. وكقوله سبحانه : «أإذا متْنَا وكنّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بعيدٌ».

ومنه في الشعر قول الشاعر :

أنّى يكونُ، وليسَ ذاكَ بكائنٍ، لبني البناتِ وراثةُ الأعمامِ

وقول البعيث يهجو جريراً :

أترجو كليبٌ أن يجيءَ حديثُها بخيرٍ وقدْ أعيا كليباً قديمُها

11 – التّحقير ، كقوله سبحانه حكايةً عن المشركين : «أهذَا الّذي بعثَ اللّهُ رسولاً ؟». ومنه في الشعر قول أحدهم :

ومن أنتمُ ؟ – إنّا نسينا من أنتمُ وريحكُمُ مِنْ أيِّ ريحِ الأعاصرِ ؟

12 – التّكثير ، كقوله سبحانه : «سلْ بني إسرائيلَ كَمْ آتيناهُمْ من آيةٍ بيّنةٍ ؟» المراد أنّ ماأتاهم من الآيات البيّنات كثير العدد، لكنهم مع ذلك مكابرون.

ومنه في الشّعر قول المعّري :

صاحِ ، هذي قبورُنا تملأ الرّحْـ ـبَ، فأينَ القبورُ مِنْ عهدِ عادِ ؟

وقول الشاعر يخاطب العرب :

كَمْ تُظلمون ولستمُ تشتكونَ وكَمْ تُستغصبونَ فلا يبدُو لَكُمْ غضبُ

13 – التّعظيم ، كقوله سبحانه : «مَنْ ذَا الّذي يشفعُ عنْدَهُ إلاّ بإِذْنِه ؟».

ومنه في الشعر قول الشاعر :

أَضَاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا   ليوم كريهةٍ وسَدادِ ثَغْر ؟

أي : أضاعوا فتىً عظيمَ الشأن رفيع المنزلة .

وقول الآخر :

إذا القومُ قالُوا : مَنْ فتىً ؟ - خلتُ أنّني   عُنيتُ، فلمْ أكسلْ ولَمْ أتبلّدِ

14 - التّسوية ، كما في قوله سبحانه : «سواءٌ عليهِمْ أأنْذَرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لا يؤمنونَ».

الاستفهامُ هنا للدّلالة على أنّ إنذار الرسولُ - عليه الصلاة والسلام - وعدمه سواءٌ عند هؤلاء. وكقوله سبحانه : « وإنْ أدرى أقريبٌ أم بعيدٌ ماتوعدون ؟».

أي : قرب ماتوعدون وبعده سواء عندي في عدم الدراسة .

وكقوله سبحانه : «سواء علينا أجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مالَنَا مِنْ محيصٍ»، أي : جَزَعُنا وصبرُنا سواءٌ علينا فلا محيص لنا .

ومنه في الشّعر قول المتنبي :

ولستُ أبالي بعدَ إدراكي العُلا   أكانَ تراثاً ماتناولتُ أمْ كَسْبَا

أي : كونه تراثاً أو كسباً سواء عندي ولاّ أبالي بذلك بعدَ إدراكي العلا

15 - التّقرير ، وهو حَمْلُ المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتاً أو نفياً لغرض من الأغراض، كقوله سبحانه : «ألَمْ نشرحْ لَكَ صدرَكَ ؟» أي : لقد شرحنا لك صدرك، وقوله سبحانه : «ألم نربِّكَ فينا وليداً ؟»، أي : لقد ربيّناكَ فينا وليداً .

ويشترط أن يذكر بعد الهمزة خاصةً ماحمل المخاطب على الإقرار به. وقد جاءت الهمزة للتقرير بالفاعل في قوله سبحانه : «أأنتَ فعلتَ هذا بآلِهَتِنا ياإبراهيمُ ؟». قال عبد القاهر الجرجاني : «لا شبهةَ في أنّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ لهم بأنّ كسر الأصنام قد حصل، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان».

وقد تأتي الهمزة للتقرير بالمفعول كقولك :« أنحواً قرأتَ ؟»، وقد تأتي لغير ذلك.

16 – الإنكار ، ويكون أيضاً بأن يلي المنكَرُ الهمزة، كقوله سبحانه : «قالوا أبَعثَ اللّهُ بَشَراً رسولاً ؟» أي : مابعث الله بشراً رسولاً، وقوله سبحانه: «أصطفى البناتِ على البنينَ ؟»، أي : لم يصطف البنات على البنين وقد يرد الإنكار للتّوبيخ على أمرٍ وقع في الماضي، ومعناه حينئذ : «ماكان ينبغي أن يكون»، كقولك : «أعصيتَ ربَّك ؟»، أي : لِمَ كان العصيان وماكان ينبغي أن يقع؛ أو يقع في المستقبل، ومعناه حينئذ «لا ينبغي أن يكونَ» كقولك : «أتعصي ربَّك ؟»، ومعناه حينئذ : لا ينبغي أن يكون منك عصيان .

وقد يرد الإنكار للتكذيب في أمر مضى، فيكون بمعنى : «لم يكنْ»، كقوله سبحانه : «أفأصفاكم ربكم بالبنين ؟»، أي : لم يفعل ذلك؛ أو في أمر يأتي، فيكون بمعنى «لا يكون»، كقوله سبحانه : «أنُلزِمُكُموها وأنتُمْ لها كارهون ؟» أي : أنُكرِهُكم على قبول الحجّة وأنتم كارهون لها. والمعنى في هذه الحال : لا يكون منا هذا الإلزام. ومن هذا

الأخير في ميدان الشعر قول الشاعر :

أأتركُ، إنْ قلّتْ دراهمُ خالدٍ ، زيارتَهُ ، إنّي إذاً لَلَئـيمُ

أي : لا يكون منّي هذا الترك .

والمنكَرُ الّذي يلي الهمزة قد يكون :

– الفعل، كقوله سبحانه : «وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتّخذُ أصناماً آلهةً ؟» فالمنكر هنا هو الفعل نفسه، أي اتخاذ الأصنام آلهة. ومنه في الشعر قول امرىء القيس :

أيقتُلُني والمشرَفيُّ مُضَاجِعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ

أي : لا يكون قتلي وذلك السيفُ البتّار وتلك السهامُ المسنونة سلاحي الذي لا يفارقني .

– الفاعل، كقوله سبحانه : «أهُمْ يَقْسِمونَ رحمةَ ربِّك ؟»، ينكر عليهم أن يكونوا مَنْ بيده تقسيم رحمة الله سبحانه وإعطاؤها لمن يشاء؛ فهذه الرحمة من شأنه وحده سبحانه، وهو المتصرِّف بها .

– المفعول، كقوله سبحانه : «أغيرَ اللهِ أتّخذُ وليًا ؟»، أي : لا يكون اتخاذي غيرَ الله وليًا . وقوله سبحانه : «أغيرَ اللهِ تدعونَ ؟» .

17 – التّهويل ، ومثاله ماجاء في قراءة ابن عبّاس للآية الكريمة : «ولقد نجيّنَا بني إسرائيلَ مِنَ العذابِ المُهينِ. مَنْ فرعونُ»، بلفظ الاستفهام ورفع «فرعونُ». يقول بعض البلغاء إنّ المراد هنا أنه لما وصف الله تعالى العذاب بالشدّة والفظاعة زادهم تهويلاً بقوله : «مَنْ فرعونُ ؟» أي : هل تعرفون من هو في فرط عتوّه وشدة شكيمته فما ظنكم

بعذاب يكون المعذَّبُ به مثله ؟ - ولهذا قال سبحانه : «إنَّهُ كانَ عالياً من المسرفينَ» زيادة لتعريف حاله وتهويل عذابه .

18 - الوعيد ، أو «التهديد» - كقوله سبحانه : «ألَمْ ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بعادٍ ؟». وكقولك للمسيء : «ألَمْ أؤدِّبْ فلانا ؟»، إذا كان ذا علمٍ بذلك التأديب .

19 - «التَّحسر ، أكقول أبي البقاء الرندي يبكي حواضر الأندلس التي سقطت في أيدي الإفرنج :

فاسألْ بلَنْسِيَةً ما شأنُ مُرْسِيَةٍ   أم أينَ شاطبةٌ بل أين جيّانُ

وأينَ قرطبةٌ دارُ العلــوم فكَـمْ   مِنْ عالمٍ قد سَمَا فيها لَـهُ شانُ

وقول شمس الدين محمود الكوفي :

ما للمنازلِ أصبحتْ لا أهلُها   أهلي ، ولا جيرانها جيراني

وقول شوقي يتحدّث عن جامع بني أميّة في دمشق :

مررتُ بالمسجدِ المحزون أسأله   هل في المصلّى أو المحراب مروانُ ؟

20 - الاستئناس ، كقوله سبحانه : «ومَاتِلْكَ بيمينِكَ ياموسى ؟» .

والحق أنه حيث يُمتنع حملُ كلمة الاستفهام على حقيقته ينبغي تلمُّسُ معنى آخر بلاغيّ يحددّه السّياق وقرائن الأحوال ، ولا يجوز في حالٍ من الأحوال حصر المعاني التي يخرج إليها الاستفهام. ويصحّ هذا الحكم على أدوات الاستفهام جميعاً ، فلا تختصّ به أداة دون الأدوات الأخر .

مبحث التمنيّ :

التمنيّ هو طلبُ الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله :

1- إما لكونه مستحيلاً كقوله سبحانه : «ياليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً مَنْسيًا»، وقوله سبحانه : «ياليتَنا نُردّ ولا نكذّبُ بآيات ربّنا». ومنه في الشعر قول الشاعر :

ليتَ الكواكبَ تدنو لي فأنظمهَا وعقودَ مدْحٍ ، فما أرضى لكمْ كَلِمِي

وقول الآخـر :

ألا ليتَ الشـبابَ يعـود يوماً فأخبره بمـا فعــل المشـيبُ

2- وإمّا لكونه ممكناً ولكنه بعيد الحصول وغير مطموع في نيله ، كقوله سبحانه : ياليتَ لنا مثلَ ماأوتي قارونُ». وقوله سبحانه : «قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي ». ومنه في الشعر قول مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة :

فليتَ الشامتينَ به فَدَوْه وليت العُمْـرَ مُدَّ له فطـالا

صيغة التّمنّي :

الصيغة الأصلية للتمنّي هي «لَيْتَ». وتتمنّى العرب بثلاث صيغ أخر هي :

1 - هَلْ ، ويُتمنّى بها، وينصب المضارع بعدها بأن مضمرة على غرار «ليت». كما في قوله سبحانه : «فهَلْ لَنَا من شفعاءَ فيشفعُوا لَنَا»، بمعنى : ليت لنا شفعاء حيث يعلمون أن لا شفعاء لهم، وقوله سبحانه : «فهل إلى خروج من سبيل ؟».

والغرض البلاغيّ من التمنّي بـ «هل» والعدول عن «ليت» إبراز المتمنّي المستحيل في صورة المستفهم عنه الممكن الحصول ؛ إظهاراً لكمال العناية به .

2 – لَوْ ، ويُتمنّى بها، ويُنصب المضارع في جوابها بأن مضمرة على غرار «ليت»، كما في قوله سبحانه : «لو أنّ لنا كرّةً فنكونَ من المؤمنينَ»، بمعنى : ليتَ لنا كرّة .

ومنه في الشّعر قول جرير :

وليّ ا لشـبابُ حميدةً أيّامُـهُ   لَوْ كانَ ذلكَ يُشترى أو يُرجَعُ

وقول مسلم بن الوليد الأنصاريّ :

واهـاً لأيّـامِ الصِّـبا وزمـانِهِ   لو كان أسـعفَ بالمقـامِ قليلاً

والغرض البلاغيّ من التمنّي بـ «لو» والعدول عن «ليت» الإشعار بعزّة المتمنّي حيث يُبرز في صورة الممتنع؛ لأنّ «لو» حرف يدلّ على امتناع جواب الشرط لامتناع الشرط .

3 – لعلّ ، فقد يُتمنّى بها، فتُعطى حكم «لَيْت»»، ويُنصب في جوابها المضارع على إضمار أنْ، كما في قوله سبحانه حكاية عن فرعون : «لعلّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السّموات فأطّلعَ إلى إلهِ موسى»، وقوله سبحانه : «واتخذوا من دونِ اللّهِ آلهةً لعلّهم يُنصرونَ»، وقوله سبحانه : «وأخذناهُمْ بالعذاب لعلّهم يرجعونَ». أصل لعلّ للترجيّ، وهو طلب الأمر المحبوب الذي يرجى حصوله. ولكنها لم تُحمَل هنا على معناها الحقيقيّ (الترجّي) لاستحالة بلوغ الأسباب، ونصرة الأصنام لهم،

ورجوعهم عن الكفر. وكان مقتضى الظاهر استخدام الأداة الموضوعة أصلاً للتمني وهي «ليت»، لكنه عُدل عن ذلك وجيء بـ «لعلّ» التي تفيد الرجاء (وهو إمكان الوقوع) لغرضٍ بلاغيّ هو: إبرازُ المتمنَّى البعيد الحصول في صورة القريب المترقَّب الحصول؛ دلالة على كمال العناية به والتشوُّق إليه.

أما كيف نتبين أنّ هذه الأدوات (هَلْ، لَوْ، لعلّ) قد خرجت عن معناها الحقيقيّ واستعملت للدلالة على التمنيّ، فهو أن نلحظ أنها مستعملة في شيءٍ بعيد الحصول أو مستحيل الوقوع.

استخدام «ليّت» في الترّجي لغرض بلاغيّ:

أسلفنا أنّ أداة الترجيّ «لعلَّ» قد تستخدم في التمنّي مكان «لَيْتَ»، لغرضٍ بلاغيّ هو إبراز المتمني البعيد الحصول في صورة القريب المترقب الحصول للدلالة على كمال العناية به، ونضيف هنا أنّ عكس هذه الحال قد يحدث أحياناً، فتستعمل أداة التمني «ليت» في سياق «الترجي» لغرض بلاغي هو: إبراز الممكن في صورة المستحيل أو البعيد المنال مبالغةً في صعوبة نيله. ومن ذلك قول المتنبي:

فياليتَ مابيني وبينَ أحبّتي ... مِنَ البُعْدِ ما بَيْني وبينَ المصائبِ

أسـئلة وإجاباتها حول الاستفهام (1)

- حدّد دلالة الاستفهام فيما يأتي :

1 - ألستمْ خيرَ مَنْ ركبَ المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ

2 - قال سبحانه : «سواءٌ علينا أجَزِعْنا أم صَبَرْنا».

3 - أنلهوا وأيّامُنا تذهبُ ونلعبُ والموتُ لا يلعبُ

4 - هل الحياة غير قنطرةٍ تُعْبَر ولا تُعبرَ .

5 - متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَه إذا كنتَ تبنيه وغيرُكَ يهدِمُ

6 - قال سبحانه : «أفي اللّهِ شكٌّ» .

7 - فعلامَ يلتمسُ العدوُّ مساءتي مِنْ بعدما عرف الخلائقُ شاني

8 - أتصونُ يديكَ عن الأذى ؟

9 - وهلْ نافعي أن تُرفعَ الحُجْبُ بيننا ودونَ الذي أمّلتُ منكَ حجابُ

10- أتغضبُ والديكَ ؟

- الإجـــابات :

1 - التّقرير والتّأكيد؛ لأنّ المقام للمدح، وذلك أبلغ وأقوى؛ فقد وضع جرير معناه في صورة الاستفهام الذي هو إنشاء لا يحتمل الصّدق والكذب، وجعل منه حقيقة لا مشادة فيها . 2 - التسوية 3 - النهي عن اللعب أو التهكّم. 4 - النفـي . 5 - الإنكار وبيان أنّ ذلك لن يكون. 6 - النفـي. 7 - التعجّب من عملٍ لا يعود عليه بطائل . 8 - الأمـر 9 - النفي وبيان أن ذلك غير مفيد. 10 - النهـي .

أسئلة وإجاباتها حول الاستفهام (2)

– حدّد دلالة الاستفهام فيما يأتي :

1 – أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا   ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

2 – فهل تسمع قولاً فيه صلاحُك ؟

3 – ومَنْ مثْلُ كافورٍ إذا الخيلُ أحجمتْ   وكان قليلاً مَنْ يقول لها اقدمي

4 – مَنْ ذا الذيُ بنى الأهرام ؟

5 – أعندي و قدْ م ارستُ كلَّ خفيّةٍ   يصدّقُ واشٍ أو يخيّبُ سائلُ

6 – أهذا الذي شغلتَ نفسَك به ؟

7 – فدعِ الوعيدَ فما وعيدُكَ ضائري   ماطنينُ أجنحةِ الذّبابِ يَضيرُ

8 – أأنتَ الذي نجحَ أم أخوكَ .

9 – ومَنْ ذا الذي يُدْلي بعُذرٍ وحجّةٍ   وسيفُ المنايا بينَ عينيهِ مُصلّتُ

10 – قال سبحانه : «يسألونَ أيّانَ يومُ الدّين ».

– *الإجـــــــابات :*

1 – التعظيم وإظهار أنّه عليّ المنزلة . 2 – التّشويق . 3 – النّفي والتّنويه بشجاعته . 4 – التّعظيم . 5 – الإنكار وبيـان أنّ ذلك لا ينبـغي أن يكون. 6 – التّحقيـر . 7 – التهكّم والتّحقير . 8 – تصوّر المسند إليه . 9 – التّعظيم وبيان هول الموقف . 10 – االتّهـويل .

أسـئلة وإجاباتها حول التّمـنـيّ :

- حدّد دلالة صيغ التّمني فيما يأتي :

1 – قال سبحانه : «فهلْ إلى خروجٍ منْ سبيل» .

2 – فليتَ اللّيلَ كان فيه شهراً ومرَّ نهارُه مرَّ السّحابِ

3 – علّ الليّالي التي أضنتْ بفُرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمعُهُ

4 – فياليتَ مابيني وبينَ أحبّتي منَ البعدَ مابيني وبين المصائبِ

5 – لعلّني أحجُّ فأزورَك .

6 – فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتَكَ ترضى والأنامُ غضابُ

7 – هل زرتَ أخاكَ . وهلاّ تزورني فنتذكّرَ الأيام الخوالي

8 – لو تسالمني الأيامُ فأتقىَ شرَّها .

9 – لعلّي أرى طيفكَ في المنام .

10 – لو تزورني فتُسعدَني .

- الإجـــابات :

1 – التّمنّي؛ لإبراز المتمنّي الذي لا طماعية فيه في صورة المطموع في حصوله، إظهاراً لكمال العناية به . 2 – التمنّي . 3 – التمنّي، حيث نُزّل المرتجى القريب الحصول منزلة المتمنّي البعدي الحصول . 4 – التّرجي، حيث نزّل المرتجى القريب الحصول منزلة المتمنّي البعيد الحصول؛ لاستبعاد حصوله . 5 – التمنّي، حيث نزل المرتجى الممكن الحصول منزلة البعيد الحصول؛ لاستبعاد حصوله . 6 – التّرجي، حيث نزّل المرتجى

الممكن الحصول منزلة المتمنّي البعيد الحصول؛ لاستبعاده . 7 - التمنّي على معنى التنديم؛ إذا المعنى : ليتك زرتَ أخاكَ (في المثال الأول). والتّمنّي على معنى التحضيض مستقبلاً، إذا المعنى : ليتك تُخلص في عملكَ (في المثال الثاني) . 8 - التمنّي . 9 - التمنّي؛ لاستبعاد حصوله 10 - التمنّي .

مبحث النّداء :

النّداءُ هو طلَبُ المتكلّم إقبالَ المخاطب عليه بحرفٍ نائبٍ مناب «أدعو»، وهذا الحرف قد يكون ملفوظاً كما في قوله سبحانه : «يا عيسى إنيّ متوفيك ورافعك إليّ»، وقد يكون مقدّراً كما في قوله سبحانه : «يوسفُ أعرضْ عن هذا»، إذ التقدير : يايوسف .

- صيغ النّداء :

تنادي العربُ بثماني صيغٍ، هي : الهمزة - أيْ - يا - آ - آيْ - أيا - هَيَا - وا . وهي نوعان من حيث الاستعمال :

1 - ماينادى به القريب ، وهو الهمزة و أيْ .

2 - ما ينادي به البعيد ، وهو بقيّة الأدوات .

تنزيل البعيد منزلة القريب :

الأصل في استعمال الهمزة وأي أن تكونا لنداء القريب، كأن تقول في النداء بالهمزة : «أسعيدُ، ذاكرْ دروسَك، فالامتحانُ على الأبوابِ»، وكقول الشاعر :

أبُنيَّ، إنّ أباكَ كاربُ يومه فإذا دُعيتَ إلى المكارم فاعجل

وكأنْ تقول في النداء بـ «أيْ» : «أيْ أحمدُ، الزمِ الصدْقَ في كلّ ماتقول»، وكقول الشاعر :

أيْ صديقي، إنّي قصدتُك لمّا لم أجْد في الحياة غيركَ شَهْمَا

هذا هو الأصل في استعمالها، لكنّه قد يُخالف الأصل وتستعملان في نداء البعيد تنبيهاً على أنه حاضرٌ في القلب لا يغيب عنه أصلاً، كقول الشاعر :

أسكّانَ نَعْمَانِ الأراكِ تيقّنوا   بأنّكُمُ في رَبْعِ قلبيَ سُكّانُ

وقول الآخر :

أعليُّ إنْ تكُ بالعراقِ نسيتَني   فأنَا بمصرَ على هواكَ مقيمُ

وقولي قد ذكرت بلادي الحبيبة وأنا في القطر الشقيق ليبيا :

أيْ شامُ ، وأنت مهوى فؤادي   كيف أحيَا والرّوحُ عنّي بعيدُ

هاجني الشوقُ للرّبوع فقلبي   في التياعٍ وعيشتي تنكيدُ

تنزيل القريب منزلة البعيد :

وقد ينزّل القريب منزلة البعيد، فينادي بغير الهمزة وأيْ لأغراضٍ بلاغية يحدّدها السّياق وقرائن الأحوال، ومن هذه الأغراض :

1 – الإشارة إلى علّو منزلة المنادي ، فيُنزّلُ بعد المنزلة منزلةً بعد المكان، كما في قولكَ : «أيا مولاي» وأنت معه؛ إشارةً إلى أنّ المنادي عظيم القدر سنيّ المنزلة. ومن ذلك في الشعر قول الشاعر :

يامَنْ يرجّى للشدائد كلّها   يامَنْ إليه المشتكى والمفزعُ

وقول الآخر :

يا رجاء العيونِ في كلّ أرضٍ   لم يكنْ غيرَ أنْ أراكَ رجائي

2 – الإشارة إلى انحطاط منزلة المنادي، فينزّل انحطاط المنزلة منزلة

البعد عن ساحة الحضور، كما في قولك لمن يجلس معك «يامسكين، ابحث عمّا يفيدك». ومن ذلك في الشعر قول الشاعر

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامِعُ

وقول الآخر

أيا هذا أتطمعُ في المعالي وما يحظى بها إلاّ الرّجالُ

3 – الإشارة إلى غفلة السّامع وشروده كأنه غير حاضر في مجلس الخطاب، كقولك للساهي : «أيافلان». ومن ذلك في الشّعر قول أبي العتاهية :

أيَا مَنْ عاش في الدنيا طويلاً وأفنى العمْر في قليلٍ وقالِ

وأتعبَ نفسَهُ فيما سيفنى وجمّع من حرامٍ أو حلالِ

هبِ الدنيا تقاد إليك عفواً أليس مصيرُ ذلك للزوالِ

وقول محمود سامي البارودي :

ياأيّها السادرُ المزورُّ من صلفٍ مهلاً، فإنك بالأيام منخدعُ

وأضاف الزّمخشريّ أغراضاً بلاغية إضافية يؤدّيها استخدام «يا» في نداء القريب وهي :

4 – استبعاد الدّاعي نفسَه عن مرتبة المدعوّ، نحو : «يا الله» .

5 – التّنبيه على عِظم الأمر وعلوّ شأنه وأنّ المخاطب مع شدّة حرصه على الامتثال كأنه غافلٌ عنه، كقوله سبحانه : «ياأيُّها الرسولُ بلّغْ ماأُنزلَ إليكَ».

6 - الحرص على إقبال المنادي حتى لكأنّه أمرٌ بعيد نحو «ياموسى، أقْبِلْ»

خروج النّداء عن دلالته الحقيقية :

قد تخرج صيغ النّداء السابقة عن دلالتها الحقيقيّة وهي «طلب الإقبال» إلى دلالات أخر مجازية يحدّدها السياق وقرائن الأحوال. ومن أهمّها : .

1 - الإغراء ، وهو الحثّ على التزام الشيء والزيادة فيه، كما في قولك لمن أقبل يتظلّم : «يا مظلوم»، تقصد إلى إغرائه ببثّ الشكوى وزيادة التظلّم؛ لأنّ الإقبال حاصلٌ منه .

ومنه في الشعر قول المتنبّي يخاطب سيف الدولة :

ياأعدلَ الناس إلاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وأنت الخصمُ والحَكَمُ

أعيذُهَا نظراتٍ منكَ صادقةً أن تحسب الشحمَ فيمن شحمُهُ ورَمُ

2 - الاستغاثة، كقولك : «يَالِلّهِ من ألمِ الفراقِ»، و«ياَلَلعربِ لِفلسطينَ»، و«ياَلَلرّجالِ ليوم الثأر» .

3 - النُّدبة ، كقول الشاعر :

فواكبدي مما أُلاقي مِنَ الهوى إذا حنَّ إلفٌ أو تألّق بارقُ

4 - التّعجُّب ، كقول الفرزدق :

فواعجباً حتى كليبٌ تسبّني كأنّ أباها نهشلٌ أو مُجاشِعُ

5 – الزّجْر ، كقول الشاعر :

أفؤادي ، متى المتابُ ألمّـا   تَصْـحُ والشّيبُ فوقَ رأسي ألمّـا ؟

6 – التحسّر والتوجّع ، كقوله سبحانه : «ويقولُ الكافرُ ياليتني كنتُ تُراباً».
وكقول الشاعر :

فيا قبرَ معْنٍ، كيف واريتَ جودَهُ   وقد كانَ مِنْهُ البَرُّ والبحرُ مُتْرَعَا

7 – التذكُّـر ، كقول الشاعر :

أيا منزلَيْ سلمى، سلامٌ عليكُما   هل الأزمُنُ اللّاتي مضينَ رواجعُ

8 – التدلّه والتحيرّ والتضجّر ، ويكثر هذا في نداء الأطلال والمنازل والديار
– ، كقول الشاعر :

أيا منازلَ سلمى، أينَ سلماكِ   من أجلِ هذا بكيناها بكيناكِ

وقد يأتي في نداء المطايا كقول الشاعر :

يا ناقَ جِدّي فقدْ أفنتْ أناتُك بي   صَبْري وعُمْري وأحلاسِي وأنساعي

ومن التضجّر قول الشاعر :

يا همـومَ الحياةِ فُكّـي إسـاري   واتركيني لحـومتي ونِفـاري

وقول سلطان العاشقين ابن الفارض :

يا قلبُ أنتَ وعدتَني في حبِّهم   صَبْراً فحاذرْ أن تضيقَ وتضجرا

9 – الاختصـاص ، حيث تخرج صيـغة النداء عن دلالتها الأصلية، وهي طلب إقبـال المنادي عليك، إلى دلالة جديدة هي تخصـيص الشيء من بين أمثاله بما نُسب إليه. تقول: «أنا أساعد المحتاجين أيّها الرجل»،

وتقول : «أنا أيها المدرّس أوضحت المسألة»، تريد في المثال الأول أن تقول : أنا مختصٌ من بين الرجال بمساعدة المحتاجين. وفي الثاني أن تقول : أنا مختصّ من بين المدرّسين بإيضاح المسألة. وعلى هذا الايراد بـ «أيّ» وماجاء بدلاً منه (الرجل) أو وصفاً له (المدرّس) المخاطبُ، بل هو عبارة عما دلّ عليه ضمير المتكلّمّ السابق (أنا) .

ولا يجوز في هذه الصّيغة إظهار حرف النّداء؛ لأنّه فقد معنى النّداء تماماً، وتأتي هذه الصيغة بعد ضمير لبيانه. ومايأتي بعد الضّمير يأخذ واحدة من أربع صور :

1 – صورة المنادي ، كما في قولك : «عليكَ أيُّها القائدُ تتوقّفُ نتائجُ المعركةِ»، على معنى : أنتَ مختصٌّ من بين سائر القوّاد بتوقّف نتائج المعركة عليك .

2 – اسماً معرّفاً بـ «أل»، كقولك : «نحنُ الأساتذةَ نهتمّ بأمور طلاّبنا»، و«نحن العربَ أقرى الناس للضّيف» .

3 – اسماً معرّفاً بالإضافة كقولك : «علينا مدرّسي العربية يقع عبء ثقيلٌ» و«أنتَ قتيلَ الحبِّ لا شفاءَ لكَ» .

4 – اسماً معرّفاً بالعلمية، كقول العربيّ : – بنا تميماً يُكشف الضبابُ –

ويحقّق النّداء الذي يخرج إلى الاختصاص أغراضاً بلاغيّة، منها :

1 – التفاخر، كقولك : «أنا أحلُّ الصّعابَ أيُّها الرجلُ»، و«نحن نكرمُ الضيفَ أيّها القومُ».

2 – التّصاغر والتّواضع، كقولك : «أنا الفقيرُ المسكينُ أيّها الرجلُ»،

و«نحن معشرُ المضطهدين أيّها العربُ».

3 – تفسير الضّمير وبيانه، كقولهم : «اللهمّ، اغفر لنا أيُّها العصابة»، ومعناه : اللهمّ، اغفر لنا مخصوصينَ من بين العصائب. فالصيغة صيغة نداء، لكنّها لا تعني النداء، بل تعني مادلّ عليه ضمير المتكلّم السابق «نا» .

وقـــوع الخبـر موقع الإنشـــاء :

قد يقع الخبر موقع الإنشاء، وذلك لأغراضٍ ، منها :

1 – التفاؤل بلفظ الماضي لتصوير الشيء في صورة الواقع المحقّق، كما إذا قيل لك في مقام الدعاء لك : «عافاك اللّهُ من كلّ بليّة، وعصمك من الزلل، وأذاقك حلاوة التقوى، وأودع صدرك بردَ اليقين». فهذه الأمور جميعاً ممّا لم يقع ، ومقتضى الظاهر أن يعبّر عنها بصيغة الدعاء فيقال : اللهّم عافِه ، واعصِمْهُ، وأذِقْهُ ..، وأودِعْ صدره.. ؛ لكنّ المتكلّم أوردها بصيغة الماضي، ووضع الخبر موضعَ الإنشاء ليصوّرها في صورة الأمور الحاصلة التي حقُّها أن يخبر عنها بألفاظٍ ماضية تفاؤلاً بأنّ حصولها في حكم الأمر المنتهي .

2 – إظهار الحرص على وقوع الأمر، ذلك أنّ طالب الشيء حين تعظم رغبتهُ به يظلّ يهجس به ويكثر من تصوّره، حتى إنه قد يخيَّل إليه حاصلاً، كما تقول : «رزقني اللّهُ حجَّ بيته المعمور وأكرمني بزيارة قبر نبيِّه»، وأنت هنا تعبّر عمّا لم يقع في صورة ماوقع ؛ قصداً إلى إظهار حرصك الشديد على وقوع هذا الأمر؛ ونقول من ثمّ أنّ الخبر وقع موقع الإنشاء لهذا الغرض .

3 – الاحتراز عن صورة الأمر تأدّباً واحتراماً، كقول الولد لوالده : يخصّني الوالدُ بساعةٍ من وقته»، بدلاً من «خُصَّني بساعةٍ مِنْ وقتِكَ».

4 – حَمْلُ المخاطب على المطلوب، بأن يكون المخاطب ممّن لا يحبّ أن يكذّب الطالب، كقولك لزميل لك يصعب عليه أن تُنْسَبَ إلى الكذب : «تنتظرُني غداً» بدلاً من : «انتظرْني»، فأنت بهذا الصنيع تحمله على الانتظار بألطف وجه، لأنّه إن لم ينتظرك غداً كان خبرُك الذي قلتَه له «تنتظرني غداً» كاذباً، وهو لا يريد لك ذلك، ومن ثم ينتظرك ويحقّق صيغة الخبر الذي توجهت به إليه.

5 – المبالغة في الطّلب للتنبيه على سرعة الامتثال، كقوله سبحانه : «وإذْ أخذْنَا ميثاقكم لا تَسفِكونَ دِمَاءَكُمْ». لم يقل بصيغة النهي : «لا تسفكوا»، بل جاء بدلاً من ذلك بالخبر «لا تسفكون» قصْداً للمبالغة في النهي، حتى كأنّهم نُهُوا فامتثلوا ثم جيء بصيغة الخبر لتصوّر هذا الامتثال .

6 – التّنبيه على تيسير المطلوب لقوة الأسباب، كقول القائد لجنده : «تأخذون بنواصي ذوي الهياج، وتذبحونهم ذَبْحَ النّعاجِ». لم يقل خذوا بنواصيهم، واذبحوهم.. بصيغة الأمر المناسبة لهذا المقام، بل آثر الصيغة الخبرية لينبّه على سهولة الأمر وقوة أسباب فتْك جنده بأعدائهم من ذوي الشّغَبِ والهياج، حتى كأنّهم يقومون بذلك في الحال دون أيّ عائق .

أسئلة وإجاباتها حول النداء :

- حدّد دلالة النداء فيما يأتي :

1 - قال الضبّي يرثي ابنه :

أأبَيُّ لا تَبْعَدْ وليس بخالدٍ حيٌّ ومَنْ تُصبِ المنونُ بعيدُ

2 - أولئكَ آبائي فجئني بمثلِهِمْ إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ

3 - يالله للمسلمين .

4 - ياأيُّها السّادرُ المزورُّ من صَلَفٍ مَهلاً فإنّكَ بالأيّام منخدعُ

5 - فواعجباً كمْ يدّعي الفضلَ ناقصٌ ووأسفاً كمْ يُظهرُ النقصَ فاضلُ

6 - أسكّانَ العقيق كفى فِراقا .

7 - ياهمومَ الحياةِ فُكّي إساري واتركيني لحومتي ونفاري

8 - أيامنزِلَيْ سلمى، سلامٌ عليكما هلِ الأزمنُ اللّائي مضينَ رواجعُ

9 - يالَكَ مِنْ قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ خلالكِ الجوّ فبيضي واصفري

10- إيهٍ يابلبل ا لفراتِ ترنَّمْ فوقَ شطآنه وحيِّ الورودا .

11- قال سبحانه: «رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكمْ أهلَ البيتِ إنّهُ حميدٌ مجيدٌ»

12- أيا شجر الخابورِ مالَكَ مورقاً كأنّكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ

13- نصحتُك يانفسُ لا تطمعي وقلتُ حذارِ فلمْ تسمعي

فإنْ كنتِ تستهلين الوداعَ كما تدّعينَ إذاً ودِّعي

14- أيْ بلادي، وأنتِ مهوى فؤادي كيفَ أحيا والروحُ عنّي بعيدُ

15- أيُّها القلبُ ، قد قضيتَ مراما فإلامَ الولـوعُ بالشّهواتِ

- الإجـــــــابات :

1 - نزّل البعيد منزلة القريب فناداه بالهمزة ؛ للتنبيه على أنّه حاضرٌ في القلب، لا يغيب عن الخاطر . 2 - نزّل القريب «جريراً» منزلة البعيد؛ للإشارة إلى انحطاط منزلته . 3 - الاستغاثة. 4 - نزّل القريب منزلة البعيد فناداه بـ «يا»؛ إشارة إلى أنّه لغفلته وشرود ذهنه كأنّه غير حاضر 5 - الندبة . 6 - التحسُّر والتحزّن؛ لعدم تأتيّ الإقبال من المناديَيْنَ . 7 - الزجـر . 8 - التذكـرّ . 9 - التعجّب ؛ لإيحاء المقام بذلك . 10- الإغراء؛ لأنه لا يراد منه الإقبال . 11- الاختصاص . 12- التحسّر والتفجّع . 13- الزجر واللوم . 14- التحيّر والتضجّر . 15- الزجر واللوم

المبحث السّابع - الفَصْل والوَصْل

ويتضمّن:

- تمهيد في حاجة البليغ إلى إدراك مواطن الفصل والوصل في الكلام
- تعريف الفصل والوصْل
- شرط قبول الوصْل وجود الجهة الجامعة .
- تأتِّي بلاغة الوصْل بـ «الواو» دون بقيّة حروف العطف .
- مواضع الفصل :
  1 – كمال الاتصال .
  2 – كمال الانقطاع .
  3 – شبْه كمال الاتصال .
  4 – شبْه كمال الانقطاع .
  5 – التوسّط بين الكماليْن .
- مواضع الوصل :
  1 – كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المراد .
  2 – التوسّط بين الكماليْن مع عدم وجود مانع من الوصل .
  3 – إشراك الجملة الثانية في المحلّ الإعرابيّ للأولى .
- محسّنات الوصل .
- العدول عن تناسب الجمل المتّصلة لغرضٍ بلاغي .

- *تمهيد : حاجة البليغ إلي إدراك مواطن الفصل والوصل :*

لا غنى للبليغ عن المعرفة الدقيقة لمواقع الجمل ومايبنغي أن يحدث فيها من عطف بعضها على بعضٍ أو ترك هذا العطف وإرسالها مستأنفة دون ربطها بما سبقها، وعن الاستعمال الصحيح لحروف العطف وإيقاعها مواقعها. وقد نبّه الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - على ذلك، فقال في «دلائل الإعجاز» : «أعلم أن العلمَ بما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعضٍ أو ترك العطف فيها والمجيء بها منشورةً تُستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يأتي بتمام الصّواب فيه إلاّ الأعراب الخُلّص والأقوام طُبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام، وهم به أفراد» .

تعريف الوَصْــل والفَصْــل :

الوَصْل هو عطفُ جملةٍ فأكثر على جملة أخرى بالواو خاصة؛ لصلة بينهما في المبنى والمعنى، أو دفعاً لِلَبسٍ يمكن إن يحصل .

والفَصْل تركُ هذا العطف؛ إمّا لأنّ الجملتين متحدثان مبنى ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، وإمّا لأنه لا صلة بينهما في المبنى أو في المعنى .

ومثال الوصل قوله سبحانه : «فَمِنْهُمْ ظالمٌ لنفسِه، ومنهم مقتصدٌ، ومنهم سابقٌ بالخَيْراتِ». وليس من البلاغة ترك العطف بالواو في الجملتين الأخيرتين؛ لأسباب سنبيّنها إن شاء اللهُ .

ومثال الفصل قوله سبحانه : «وإذَا خَلَوْا إلى شياطِنِهِمْ قالوا إنَّا مَعَكُمْ، إنّما نحنُ مُسْتَهزِئونَ، اللهُ يستهزِيءُ بِهِمْ». لم تعطف جملةُ «اللهُ يستهزيء بهم» على جملة «إنّا معكم»؛ لأنها ليست من مقولهم .

شرطُ قبولِ العطف (الوصل) وجودُ الجهة الجامعة :

لا يكون عطف الجملة الثانية على الأولى بالواو مقبولاً حتى يكون بين الجملتين «جهةٌ جامعة»؛ كالتناسب في قوله سبحانه : «فأمّا مَنْ أعطى واتّقى وصدّقَ بالحُسْنَى فسنُيَسِّرُه لليُسْرى»، فبين الإعطاء والاتقاء والتصديق (وهي مسندٌ) تناسبٌ ظاهر في المعنى (كونها من أفعال الخير) والمبنى (كونها أفعالاً ماضية مبنية على الفتح)، كما أنّ ثمة تناسباً في المسند إليه (الفاعل في الجمل الثلاث، وهو واحد). وقد تكون الجهة الجامعة التضادّ، كما في قوله سبحانه : «فَلْيَضْحكُوا قليلاً وليَبكُوا كثيراً»، فالذهن يتصوّر البكاء عند ذكر الضحك، كما أنّ ثمة تناسباً بين الجملتين في الإنشائية .

لا تتأتّى بلاغة الوصل إلا بـ «الواو» دون بقية حروف العطف :

لا تتحقّقُ بلاغةُ الوصل إلا بـ «الواو» العاطفة دون سائر حروف العطف الأخر؛ ذلك أنّ الواو هي التي يقع فيها الاشتباه دون سائر حروف العطف؛ لأنها لمطلق الجمع ولمجرّد جعل مابعدها مشاركاً لما قبلها في الإعراب، فيحتاج العطف بها إلى إدراك معنى جامع بين المتعاطفين؛ وهذا المعنى هو ما يحتاج البليغ إلى إدراكه وتعرّفه . أما بقيةُ حروف العطف فيفيد العطف بها مع الإشراك في الحكم الإعرابي معانيَ أخرى كالتّرتيب مع التّعقيب في «الفاء»، وكالتّرتيب مع التّراخي في «ثمّ»، وكالتّخيير مع الإباحة في «أو». ولذلك يحسن العطف بهذه الأحرف حين تَحقُّقِ هذا المعنى، وإن لم تتوافر الجهة الجامعة بين المتعاطفين .

مواضـــع الفصـــل :

يجب الفصلُ بين الجملتين في كلّ موضع من المواضع الخمسة الآتية :

الأول – أن يكون بين الجملتين «كمالُ الاتّصال»، ويكون ذلك حين تكون الجملة الثانية بمعنى الأولى أو جزءاً منها، حيث تعامل الثانية كأنها الأولى نفسها. وهاهنا يجب الفصل لعدم جواز عطف الشيء على نفسه، أو الجزء على كلّه. وقد حدّد البلاغيون مواضع كمال الاتصال التي يجب فيها الفصل على هذا النحو :

1 – أن تكون الجملة الثانية بمنزلة التّأكيد اللفظي للأولى (مضمون الثّانية هو مضمون الأولى) – كما في قوله سبحانه : ««فمهّلِ الكافرينَ أمْهِلْهُمْ رُوَيْداً»، فصل بين الجملتين لأنّ الثانية في منزلة التأكيد اللفظي للأولى. أو تكون الجملة الثانية بمنزلة التأكيد المعنويّ للأولى (أن يختلف مضمونا الجملتين، لكنّ مضمون إحداهما يقرّر مضمون الأخرى) – كما في قوله سبحانه : «ماهذا بَشَراً، إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ»، فإثبات ملكيته بمنزلة التأكيد المعنوي لنفي بشريّته .

2 – أن تكون الثانية بدلاً من الأولى يوضح دلالتها. وهذا البدل قد يكون

(أ) بدل بعض كقوله سبحانه : «أمدَّكُمْ بِمَا تعلمونَ. أمدَّكُمْ بأنعامٍ وبنينَ وجنّات وعيونٍ». وجب الفصل بين الجملتين؛ لأنّ الثانية بمثابة بدل البعض من الأولى، حيث فصّلت النعم التي أجملتها الأولى .

(ب) بدل اشتمال كقوله سبحانه : «اتّبِعُوا المرسلينَ، اتّبِعُوا مَنْ لا يسألُكُمْ إجراً وهمْ مهتدونَ». وجب الفصل بين الجملتين؛ لأنّ الثّانية

بدل اشتمال من الأولى، إذ يشتمل الاتباعُ الأول (اتباع المرسلين) الاتباعَ الثّاني المنطوي على عدم خسران شيء من أشياء الدنيا وضمان الهداية .

(جـ) بدل كلّ، كقوله سبحانه : «بَلْ قالُوا مثلَ ماقالَ الأوّلونَ. قالُوا أئذَا متْنَا وكنَّا تُراباً وعِظاماً أئنّا لمبعوثونَ». وجب الفصل بين جملة «قال الأوّلون» وجملة «قالوا» لأن الثانية بدلُ كلّ من الأولى، إذ هي أوفى من الأولى في بيان المراد .

3 – أن تكون الجملةُ الثّانية بياناً لخفاء في الجملة الأولى مع اقتضاء المقام إزالة هذا الخفاء، كقوله سبحانه : «فَوَسْوَسَ إليهِ الشّيطانُ، قال ياآدم هل أدلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى». وجب فصلُ جملة «قال ياآدم» عن جملة «فوسوس»، لأنها موضحة لها مبيّنة لدلالتها .

وكذا الأمر في قوله سبحانه : «وإنَّ لَكُم في الأنعامِ لَعِبْرةً، نُسْقِيكمْ ممّا في بُطُونِها» .

الثاني – أن يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاع»، ويكون ذلك حين تكون الجملةُ الثانية مباينةً للأولى تمامَ المباينة. حيث يجب الفصل؛ لغياب الجهة الجامعةِ بين الجملتين. وقد حدّد البلاغيون مواضع «كمال الانقطاع» التي يجب فيها الفصلُ على هذا النحو :

1 – أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً في اللفظ والمعنى، أو في المعنى وحده .

– مثال اختلافهما لفظاً ومعنى والأولى إنشاء قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسُوا نزاولها   فحتْفُ كلّ امرىءٍ يجري بمقدارِ

وجب الفصل بين الجملتين «أرسوا» و«نزاولها» لاختلافهما خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى، حيث الأولى إنشاء لفظاً ومعنى والثانية خبرٌ لفظاً ومعنى .

– ومثال اختلافهما ، لفظاً ومعنى، والأولى خبر قول الشاعر :

لستُ مستمطِراً لقبركَ غيثاً   كيفَ يظما وقد تضمّـنَ بحـرا ؟

وجب الفصل بينَ الجملتين «لستُ مستمطراً» و«كيف يظما» لاختلافهما خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى .

– ومثال اختلافهما معنىً (وهما خبران لفظاً) قولك : «سافرَ محمدٌ رافقَتْهُ السّلامةُ». وجب الفصل بين الجملتين لكمال الانقطاع بينهما، حيث الأولى خبرٌ لفظاً ومعنى، والثانية خبرٌ لفظاً إنشاء معنى؛ إذ هي دعاء بمعنى : «اللهم اجعل السلامة رفيقةً له في سفره» .

– ومثال اختلافهما معنى (وهما إنشاءان لفظاً) قولك : «أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ، أحسِنْ الظنَّ باللهِ». وجب الفصل بين الجملتين لاختلافهما معنى، حيث الأولى خبر معنى، أي الله كافٍ عبده، وإن كانت إنشاء لفظاً، والثانية إنشاء معنى ولفظاً .

2 – أن تتفق الجملتان خبراً وإنشاء، ولكن لا توجد بينهما جهة جامعة، كأن تقول : «زارني أحمدُ، السّماءُ صافيةٌ». حيث وجب الفصل بين الجملتين لكمال الانقطاع ، أي التباين التام بينهما .

الثالث – أن يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الاتصّال»، ويكون ذلك حين تكون الجملة الثانية جواباً لسؤالٍ نشأ عن الجملة الأولى . ويجب

الفصل هاهنا كما يفصل الجواب عن السؤال. ويسمّى الفصل في مثل هذه الحال «استئنافاً»، لكون الجملة الثّانية جواباً لسؤال اقتضته الأولى. وتسمّى الجملة الثانية «استئنافاً»، و«مستأنفة».

ومن أمثلة ذلك :

قوله سبحانه : «وما أبرِّيءُ نفسي، إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء». وجب الفصل بين الجملتين؛ لأنّ الثّانية جاءت في منزلة جواب عن سؤال ناشيء عن الجملة الأولى؛ فكأنّ سائلاً سأل حين ترامى إلى سمعه الحكم الذي تضمنته الجملة الأولى : ولِمَ لا تبرِّيء نفسك ؟» – فأجابَ : «إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء» .

وقوله سبحانه : «إذْ دخلُوا علَيْه فقالوا سلاماً، قالَ سلامٌ». وجب فصل الجملة الثانية «قالَ سلامٌ» عن جملة «فقالوا سلاماً»؛ لأنّ الثانية جاءت في موقع جوابٍ عن سؤال ناشيء عن الجملة الأولى؛ فكأن سائلاً سأل حين سمع «فقالوا سلاماً» – : وماذا قال إبراهيمُ عليه السّلام في ردّ سلامهم ؟ فأجاب : «قال سلامٌ». ويشير هذا من وجهة أخرى إلى أنّ الخليل عليه السلام حيّاهم بأحسن من تحيّتهم؛ لأنّه حيّاهم بالجملة الاسمية الدّالة على الدّوام والثبوت، في حين كانت تحيتهم بالجملة الفعلية الدّالة على التجدّد والحدوث .

ومنه في الشعر قول الشاعر :

جَزَى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ   عرفتُ بِها عدوّي من صَديقي

وقول الآخر :

زَعَمَ العواذلُ أنّني في غمرةٍ   صَدَقُوا، ولكنْ غمرتي لا تنجلي

والملاحظ في الأمثلة المتقدّمة جميعاً أنّ المانع من الربط بين الجملتين في هذا الموضع هو وجود الرابطة القوية بينهما، فأشبهت حالة كمال الاتصال، وعوملت معاملتها

الرابع – أن يكون بين الجملتين «شبهُ كمالِ الانقطاع»، ويكون ذلك حين تُسبق جملةٌ بجملتين يصحّ عطفُها على أولاهما لوجود الجهة الجامعة، لكنّ في عطفها على الثانية فسادُ المعنى؛ وابتغاء تفادي توهّم العطف على الثانية، واحترازاً من مساء المعنى، يتخلى عن العطف مطلقاً، ويفصل بين الجملتين .

ويمثّل علماءُ البلاغة لذلك بقول الشاعر

وتظنُّ سلمى أنّني أبغي بها بَدَلاً أراهَا في الضَّلالِ تَهِيم

فقد وجب فصل جملة «أراها» عن جملة «تظنّ» – رغم توافر المناسبة بين الجملتين – لكيلا يتوهّم السّامع أنها معطوفة على جملة «أبغي» القريبة منها وتكون عندئذ من فطنونات سلمى. ويصير المعنى على هذا الظنّ هكذا : وتظنّ سلمى أنّني أبغي بها بدلاً وأنّني أراها تهيم في الضلال، وفي ذلك فساد للمعنى ينبغي تفاديه. ويقول البلاغيون إنّ فصل الجملة الثّانية عن الأولى في مثل هذه الحال شبّه بـ «كمال الانقطاع»؛ لاشتماله على مانعٍ من العطف، ولم يجعل «كمالَ انقطاعٍ» لكونه خارجياً يمكن التخلّص منه بإقامة القرينة .

الخامس – أن يكون بين الجملتين «توسّطٌ بين الكمالَيْن مع قيام المانع من الوصل»، ويكون ذلك حين يُلحظ بين الجملتين تناسبٌ وترابط قويّ، لكنّه يحول دون العطف مانع هو معدم صحّة تشريك الجملة الثّانية في

حكم الأولى؛ لما ينشأ عن ذلك من اختلال في المعنى .

ومما يمثّل لذلك قوله سبحانه : «وإذَ خَلَوْا إلى شياطِينِهِمْ قَالوا إنَّا مَعَكُمْ إنّما نحنُ مستهزِئون. اللهُ يستهزِيءُ بِهِمْ». وفي النص القرآني شاهدان :

1 - فصْلُ جملة «اللهُ يستهزىء بهم» عن جملة «قالوا»؛ لأنّ جملة «قالوا» جواب شرط لـ «إذا»، فهي مقيَّدة بهذا الظّرف، ويعني هذا أنّ قولهم لشياطينهم إنّا معكم لا يحدث إلا عندما يخلون بهم، ومن ثمّ فإنّ عطف جملة «اللهُ يستهزيء بهم» على جملة «قالوا» يُشركها في حكمها وهو «التّقييد بالظرف المذكور»، وينشأ عن ذلك أنّ استهزاء اللهُ سبحانه، بهم لا يكون إلاّ وقت خلوّهم بشياطينهم، وهذا باطل طبعاً، وهكذا وجب فصل جملة «اللهُ يستهزيء بهم» عن جملة «قالوا»، لتفادي المحظور .

2 - فصْل جملة «اللهُ يستهزيء بهم» عن جملة «إنّا معكم»؛ لأنّ جملة «إنّا معكم» مفعول الفعل «قالوا»، أي إنها مقول المنافقين؛ ومن ثمّ فإنّ عطف جملة «الله يستهزيء بهم» عليها يترتب عليه إشراكها في حكمها؛ أي أن تكون مفعولاً لـ «قالوا»، وتكون عندئذ من مقول المنافقين؛ وواقع الحال أنّها من مقوله سبحانه، على سبيل الدعاء عليهم :

وإذا كان التّطوّف في رحاب موجبات الفصل بين الجمل قد طال بنا، فيمكننا تلخيص القول في هذا الشأن، وعلى الجملة نقول إنّ الفصل بين الجملتين يكون واجباً في كلّ من المواضع الخمسة الآتية :

1 – عندما يكون بين الجملتين «كمالُ الاتصّال»؛ وذلك حين تكون الجمل الثانية بمعنى الجملة الأولى أو جزءاً منها «أن تكون بمنزلة التأكيد اللفظي أو المعنوي، أو البدل، أو البيان والإيضاح، للجملة الأولى) .

2 – عندما يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاع»، وذلك حين تكون الجملة الثانية مباينة للأولى تمام المباينة (أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، أن لا توجد بينهما جهة جامعة).

3 – عندما يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الاتصّال»، وذلك حين تكون الجملة الثانية جواباً لسؤال ناشيء عن الجملة الأولى (الفصل الاستئنافي) .

4 – أن يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الانقطاع»، وذلك حين تسبق جملةٌ بجملتين يصحّ عطفها على أولاهما، لكنه يتخلّى عن العطف البتّة ابتغاء دفع توهّم العطف على الثانية، الذي يترتّب عليه فساد المعنى

5 – أن يكون بين الجملتين «توسّطٌ بين الكمالين مع قيام المانع من الوصل»، وذلك عند توافر الترابط القويّ بين الجملتين، لكنه يُفصَل بينهما لعدم صحّة إشراك الجملة الثانية في حكم الأولى، لاختلال المعنى .

مواضع الوصل :

يجب الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع :

الأول – أن يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاع» مع إيهام الفصل خلاف المراد. ويعني ذلك أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، لكنّه يُضطرّ

إلى الوصل؛ لأنّ الفصل يوهم المخاطب بخلاف مقصود المتكلّم. كأن يجري بينك وبين شخص حديثٌ، ثم تقصد أن تنفي شيئاً تقدّم في ذلك الحديث وتدعو لمخاطبك في الوقت نفسه، فتقول : «لا، وسدّدَ اللهُ خُطَاكَ». فـ«لا» هنا ردٌّ لكلام سابق، كأن يكون مخاطباً قد سألك: «هل الأمر كذلك ؟» ، فتقول : «لا»، أي : ليس الأمر كذلك. وهذه جملة خبرية. ثم تضيف داعياً له : «وسدّد اللهُ خطاكَ». وهذه جملة إنشائية دعائية. وكأن يسألك ابنُك عند مَقْدَمِك من السّفر : «أرأيتَ أخي يا أبتي ؟» فتقول : لا، ورعاكَ اللهُ. فـ«لا» هنا قائمة مقام جملة خبرية. و«رعاكَ اللهُ» جملة إنشائية دعائية. وهكذا فبين الجملتين في المثالين «كمالُ الانقطاع»؛ لاختلافهما خبراً وإنشاءاً، ويستلزم ذلك الفصل بينهما، لكنّه وجب الوصل هنا تخلصاً من إيهام خلاف المراد، وهو أن يتسلّط النفي على الجملة بعده لو ترك الوصل فيقال : «لا سدّد اللهُ خطاك» و«لا رعاك اللهُ» فيكون التّعبير في الحالين دعاءً على المخاطب بدلاً من الدعاء له. ومثله مايقال من أنّ أبا بكر الصديق – رضي اللهُ عنه – مرّ برجلٍ في يده ثوبٌ، فقال له : أتبيع هذا ؟ فقال الرجل : «لا – يرحمك اللهُ» فقال الصدِّيقُ : «لا تقل هكذا، بل قل : لا، ويرحمكَ اللهُ».

الثاني – أن يكون بين الجملتين «توسّطٌ بين الكمالين» مع عدم وجود مانع من الوصل . ويكون ذلك عندما تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، مع جامع بينهما . وقد تبيّن علماء البلاغة ثماني صور لهذا الأمر :

1 – أن تكون الجملتان خبر يّتبين لفظاً ومعنىً، كقوله سبحانه : «وقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ»، وقوله سبحانه : «إنَّ الأبرارَ لفي نعيمٍ وإنّ

الفجّارَ لفي جحيم».

2 – أن تكون الجملتان إنشائيتين لفظاً ومعنىً، كقوله سبحانه : «كُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا وقوله سبحانه :«فادعُ واستقمْ كما أُمِرْتَ» .

3 – أن تكون الجملتان خبريّتين معنىً (ولفظاهما إنشائيّان)، كقولك : «ألَمْ أخبرْكَ بِمَاحَدَثَ وألَمْ أنصحْك باجتناب أمثال ذلك ؟». ومعنى ذلك : أخبرتُك بما حدث ونصحتُك باجتناب أمثال ذلك؛ فالجملتان خبرٌ معنىً إنشاءٌ لفظاً .

4 – أن تكون الجملتان خبريّتين معنى (ولفظ الأولى خبر ولفظ الثانية إنشاء)، كقوله سبحانه : «إنّي أشهدُ اللهَ، واشْهَدُوا أني بريءٌ ممّا تُشركونَ». ومعنى ذلك : إنّي أشْهِدُ اللهَ وأُشْهِدُكُمْ؛ فالجملة الثانية إنشائية لفظاً وخبرية معنى .

5 – أن تكون الجملتان خبريّتين معنىً (ولفظ الأولى إنشاء ولفظ الثانية خبر)، كقوله سبحانه : «ألَمْ يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدَكَ ضالاً فهدى»، على معنى : وجدك يتيماً فآواك ووجدك ضالاً فهداك. وقوله سبحانه : «ألَمْ يؤخذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألاّ يقولوا على اللهِ إلاّ الحقَّ ودَرَسُوا مافيه». على معنى : أُخِذ عليهم ميثاقُ الكتابِ ودرسوا مافيه .

6 – أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنىً (واللفظان خبران)، كقولك : «شافاكَ اللهُ وعافاكَ». على معنى : ليشفِكَ اللهُ وليعافِكِ .

7 – أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنى (ولفظ الأولى إنشاء والثانية خبر)، كما تقول : «زرْه وتعرفُ مايأتيكَ منه». على معنى : زرْه واعرف مايأتيك منه، وكقولك : «قمْ الليل ، وتصوم النهار». على معنى : قم اللّيلَ،

وصُمِ النهارَ .

8 – أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنى (ولفظ الأولى خبر والثانية إنشاء)، كقوله سبحانه : «وإذْ أخَذْنَا ميثاق بَني إسرائيلَ لا تعبدونَ إلاّ اللهَ، وبالوالدَيْنِ إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للنّاس حُسْناً» عطفت جملة «قولوا» على جملة «لا تعبدون»؛ لكونهما إنشائيتين معنى، ولفظ الأولى خبر بمعنى «لا تعبدوا».

الثالث – أن يكون للجملة الأولى محلٌّ من الإعراب ويراد إشراكُ الجملة الثانية فيه، حيث لا مانع منه .

وقد تكون الأولى خبر مبتدأ كقولك : «زيدٌ يقرأُ ويكتبُ»، وجملة يكتب معطوفة على جملة يقرأ في محل رفع. وقد تكون خبر إنّ أو إحدى أخواتها كقول المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم : «إنّكم لتكثرونَ عندَ الفزعِ وتقلّون عند الطمع» .

محسّنات الوصل :

تبيَّن البلاغيون أوضاعاً أنِسُوا أنّ الوصل يزداد فيها حسناً وروعة. ومن ذلك :

1 – تناسب الجملتين في الاسميّة والفعليّة – وتناسب الاسميّتَيْن في نوع المسند من حيث كونه مفرداً أو جملةً أو ظرفاً – وتناسب الفعليتين في نوع الفعل :

– مثال تناسب الجملتين من الاسمية وفي كون المسند مفرداً قولهم في المثل : «الأخذُ سُرَيْطى والقضاءُ ضُرَيطى»؛ أي يأخذ الدَّينَ

ويبتلعه، فإذا طولب للقضاء، أضطرّته. فكلٌّ من الجملتين اسميّة، والمسند في كلّ منهما مفرد. وكذا قول الشاعر الأندلسي الرّمادي :

من حاكمٌ بيني وبينَ عَذُولي　　　الشجوُ شجوي ، والعويلُ عويلي

الشاهد في قوله : «الشجوُ شجوي ، والعويلُ عويلي » .

– ومثال تناسب الجملتين في الاسمية وفي كون المسند جملة قولهم في المثل : «يَدَاكَ أوْكتا ، وفُوكَ نَفَخ». وقول أهل زماننا : «العُصْفورُ يتسلّى والصيّادُ يتقلّى». حسن الوصلُ هاهنا لتناسب الجملتين في الاسميّة وفي كون المسند في كلّ منهما جملة فعلية .

– ومثال تناسب الجملتين في الاسمية، وفي كون المسند ظرفاً قولك : «أنتَ منّي وأنا منكَ» .

– ومثال تناسب الجملتين في الفعليّة وفي كون الفعل ماضياً قولُه سبحانه : «وقلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ».

– ومثال تناسب الجملتين في الفعلية وفي كون الفعل مضارعاً قولُه سبحانه : «يَهَبُ لمنْ يَشاءُ إناثاً ويَهَبُ لِمَنْ يشاءُ الذكورَ»، وقوله سبحانه : «يتلُو عليهم آياتِك ويعلِّمُهُمْ الكتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهِمْ» .

2 – تناسب الجملتين في الإطلق والتقييد :

– مثال تناسب الجملتين في التقييد قولُ أبي بكر الصدّيق رضي اللهُ عنه عندما انتقل الرسولُ الكريم عليه الصّلاة والسّلام إلى ربّه : «بأبي أنتَ وأميّ طِبتَ حياً ، وطِبتَ ميتاً». والشاهد قوله «طبت حياً، وطبتَ ميتاً»، حيث حسُن الوصل بين الجملتين لتناسبهما في التقييد، إذ

قُيدت كلّ منهما بـ «الحال»

ومثاله أيضاً قولك لصديقك : «أعرفُك عندما تعرفُ، وأعرفك عندما لا تعرفُ، وأعرفك عندما تكون بينَ بينَ». فقد حسن الوصل لتناسب الجمل في التقييد بالظرف .

- أمّا أمثلةُ التناسب في الإطلاق فكثيرةٌ كقول أبي نواس :

نسيبُك مَنْ ناسَبْتَ بالودِّ قلبَهُ   وجارُكَ مَنْ صافيتَ لا مَنْ تُصاقِبُ

وقول الآخر :

وترمينَنِي بالطَّرفِ ، أيْ أنتَ مذنبٌ   وتقلينَنِي ، لكنَّ إيّاكِ لا أقلي

العدول عن التناسب لغرض بلاغيّ :

ذكرنا أنّ ثمة أوضاعاً يزداد الوصلُ فيها حسناً، ورأينا أنّ هذه الأوضاع تدور في فلك التناسب بين الجملتين في بعض النواحي. ويحسن إنّ نشير هاهنا إلى أنّ هذا التناسب ليس مطلقاً في تحقيقه حسن الوصل بين الجملتين، فقد يُعدل عنه لأغراض بلاغية منها :

1 - حكاية الحال الماضية واستحضار الصّور الغريبة في الذهن، كما في قوله سبحانه : «فَفَريقاً كذّبتُم وفريقاً تقتلونَ». فالتّكذيب حدث في الماضي والقتل حدث في الماضي، لكنّه عُبِّر عن القتل بلفظ «المضارعة» لفظاعة الأمر وقصدا استحضار صورته البغيضة في النفوس. وهكذا تلحظ أنّ التناسب بين الفعلين عُدل عنه لغرض بلاغيّ هو حكاية الحال الماضية وتمثيل صورتها أمام البصيرة كأنّها تجري الآن، والذي يسّر ذلك وأمكن منه هو الفعل المضارع «تقتلون». ومثله

قوله سبحانه «إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله»

2 – إفادة التجدّد في إحدى الجملتين والثّبوت في الأخرى، كقوله سبحانه : «أجئتَنا بالحقِّ أمْ أنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ». كانوا يزعمون أنّ مجيئه لهم بالحقّ أمر حادث، وأنّ اللعب حالة دائمة لإبراهيم عليه السلام.

وهكذا استفهموا عن حدوث مجيئه لهم بالحقّ بالجملة الفعلية، لإفادتها التجدّد والحدوث؛ وعن كونه من العابثين بالجملة الاسمية، لإفادتها الثبوت والدوام.

ومثله قوله سبحانه : «يخادِعونَ اللهَ وهو خادعُهم». فقد قصد بالجملة الأولى التجدّد والحدوث، وبالثانية «الثبوت والدوام».

ومحصّلة القول في هذا الشأن : أنّ التناسب بين الجملتين إنما يعدّ من محسّنات الوَصْل عندما يتّفق ومرادَ المتكلّم، أمّا عندما يخالف هذا المراد فلا يعدّ من الأمور التي تضفي على الوصل طلاوة وحسناً.

أسئلة وإجاباتها حول الفصل والوصل (١)

- حدّد سبب الفصل والوصل فيما يأتي

1 - إنّما الدنيــا فنــاءٌ   ليس للدّنيــا ثبــوتُ

2 - أخطُ مع الدهرِ إذا ماخطا   واجرِ مع الدهرِ كما يجري

3 - قال سبحانه : «استغفِروا ربَّكُمْ إنّه كانَ غفّـارا»

4 - قال سبحانه : «يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصالِ رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ».

5 - حكمُ المنيّة في البريّةِ جاري   ماهذه الدنيـا بدار قـرارِ

6 - استعدّ أخي للسفر، حزم أمتعته

7 - قال سبحانه : «فلْيضحكُوا قليلاً ولْيبكُوا كثيراً».

8 - مَنْ للمحافلِ والجحافل والسُّرى   فقدت بفقدِكَ نيِّراً لا يطلُعُ

9 - يظنّ أحمد أنّني أكرهه أراه مخطئاً في تصوُّره هذا

10- قال سبحانه : «إنّ الأبرار لفي نعيمٍ وإنّ الفجّارَ لفي جحيمٍ»

- *الإجـــــــــابات :*

1 - فصل بين صدر البيت وعجزه: لكمال الاتصال بين الجملتين؛ فإنّ الثانية تأكيد للأولى .

2 - وصل بين الجملتين؛ لما بينهما من التوسّط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف؛ فقد اتفقتا إنشاءً ووجدت بينهما مناسبة

3 - فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من كمال الانقطاع لاختلافهما خبراً

وإنشاءً؛ أو لما بينهما من شبه كمال الاتّصال؛ فإنّه يصح أن تكون الثانية جواباً عن سؤال مقدّر نشأ عن الأولى؛ فكأنهم تساءلوا : وهل للاستغفار من نتيجة ؟ – فأجاب : إنه كان غفّارا .

4 – فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ إذ يصحّ أن تكون الثانية جواباً عن سؤال ناشيء عن الأولى .

5 – فصل العجز عن الصدّر؛ لما بينهما من كمال الاتصال؛ إذ أنّ الثانية بمثابة التّوكيد المعنويّ للأولى .

6 – فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من كمال الاتصال؛ إذ أنّ الثانية من الأولى بمثابة عطف البيان .

7 – وصل بين الجملتين؛ لما بينهما من التوسّط بين الكمالين، حيث اتفقتا إنشاءً مع التناسب التامّ بين المفردات .

8 – فصل بين الصدّر والعجز؛ لما بينهما من كمال الانقطاع المتمثّل في اختلافهما خبراً وإنشاءً .

9 – فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من شبه كمال الانقطاع؛ إذ يوهم عطف جملة «أراه مخطئاً» على جملة «يظنّ» أن جملة «أراه» معطوفة على جملة «أنّني أكرهه» لقربها منها، فتكون من مظنونات أحمد، وهو غير مراد .

10– وصل بين الجملتين، لما بينهما من التوسّط بين الكمالين المتمثّل في اتفاقهما خبراً لفظاً ومعنىً مع المناسبة التامة بين مفرداتهما .

أسئلة وإجاباتها حول الفصل والوصل(2)

- حدّد سبب الفصل والوصل فيما يأتي :

1 - اصبر على كيد الحسود لا تضجر من مكائده .

2 - قال سبحانه : «وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً» .

3 - فما الحداثةُ عن حِلْمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحِلْمُ في الشبّانِ والشّيب

4 - أنت حسنُ السيرة تصنع المعروف وتغيث الملهوف .

5 - قال سبحانه : «وإذا تتلى عليه آياتُنا ولّي مستكبراً كأنْ لم يسمعها كأنّ في أذنيه وَقْراً» .

6 - ظلّ يسعى إلى المعالي بِجِدٍّ والعُلا لا تُنال إلاّ بكدٍّ

7 - لا طلبنّ بآلةٍ لكَ حاجةً قلمُ البليغِ بغير حظٍّ مِغزَلُ

8 - قال سبحانه : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى» .

9 - قال سبحانه : «واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون» .

10- قال سبحانه : «يدبّر الأمرَ يفصّلُ الآياتِ لقومٍ يعقلون» .

- *الإجـــــــابات :*

1 - فصل بين الجملتين: لما بينهما من كمال الاتصال المتمثّل في أنّ الثانية بمثابة التوكيد اللفظي للأولى .

2 - فصل بين الجملتين: لما بينهما من كمال الاتصال المتمثّل في أنّ الثانية بمثابة بدل اشتمال من الأولى .

3 - فصل بين الجملتين: لما بينهما من شبه كمال الاتصال المتمثل في أنّ

الثّانية بمثابة الجواب عن سؤال ناشيء عن الأولى ، وكأنّ سائلاً سأل: وكيف لا تحول حداثة السنّ دون العقل ؟ - فأجاب : قد يوجد الحلم ...

4 - فصلت الثّانية عن الأولى؛ لما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ إنها بيانٌ لها .

5 - فصلت الجملتان الثّانية والثّالثة عن الأولى؛ لأنّ كلاً منهما بمثابة التوكيد المعنويّ للأولى .فبينهما كمال الاتصال .

6 - فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من التوسط بين الكمالين المتمثّل في اتفاقهما خبراً، ووجود المناسبة، وعدم وجود مانع العطف .

7 - فصل بين الصدر والعجز؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال المتمثل في أن العجز بمثابة الجواب عن سؤال ناشيء عن الصدر، فكأن سائلاً سأل : ولِمَ لا ينبغي طلب الحاجة بالآلة ؟ - فأجاب : قلم البليغ ..

8 - فصل بين الجملتين؛ لما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ الثانية بمثابة التوكيد المعنوي للأولى، لأنّ تقرير كونه وحياً نفيٌ لأن يكون عن هوى .

9 - وصل بين الجملتين؛ لما بينهما من التّوسط بين الكمالين بوجود المناسبة، وعدم وجود المانع من العطف .

10- فصل بين الجملتين ؛ لما بينهما من كمال الاتّصال المتمثّل في أنّ الثّانية بدل بعض من كلّ .

أسئلة تُطلب إجابتها علي نحو ماتقدّم :

– حدّد سبب الفصل والوصل فيما يأتي :

1 – قال سبحانه : «قالوا سلاماً قال سلامٌ» .

2 – قال سبحانه : «ومِنَ الناسِ مَنْ يقول آمنّا باللهِ وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعونَ اللهَ» .

3 – لا ، وطيّبَ اللهُ ثراه .

4 – قال سبحانه : «واصبروا إنَّ اللهَ معَ الصّابرينَ» .

5 – قال سبحانه : «ولا تجسّسوا ولا يغتبْ بعضكمْ بعضاً أيحبُّ أحدكُمْ أنْ يأكلَ لحم أخيه ميتاً» .

6 – قال سبحانه : «واصبرْ وما صبركَ إلاّ باللهِ ولا تحزنْ عليهم» .

7 – قال سبحانه : «سبحانك لا علمَ لنا إلاّ ماعلّمتَنا إنّكَ أنتَ العليم الحكيمُ» .

8 – أخوك في البيت ، السماء صافية .

9 – قال سبحانه : «لها ماكسَبَتْ وعليها مااكتسبتْ» .

10– يزعم صديقي أنى أحسده على ماعنده أراه مخطئاً في هذا .

المبحث الثامن

المعنى وطولُ العِبارة عنه : المساواة - الإيجاز - الإطناب

ويتضمّن :

- تقديم في دلالة المساواة والإيجاز والإطناب.
- المساواة (حدّها - أمثلة لها)
- الإيجاز (نوعاه : إيجاز القصر - إيجاز الحذف - وجوها الحذف)
- الإطناب (أنواعه : الإيضاح بعد الإبهام - التوشيع - عطف الخاصّ على العام - عطف العام على الخاص - الإيغال - التكرير

وأغراضه - والتكميل أو الاحتراس - التتميم - التذييل وقسماه وجمالياته - الاعتراض وأغراضه)

تقديم في دلالة المساواة والإيجاز والإطناب :

كلّ ما يقصد الإنسان إلى التّعبير عنه وإيصاله إلى الآخرين من المعاني والإنفعالات يمكنه أن يعبِّر عنه بثلاث طرائق :

(أ) المساواة، وهي أن يكون لفظ المتكلّم بمقدار أصل مراده لا يزيد عنه ولا ينقص.

(ب) الإيجاز ، وهو أن يكون لفظُ المتكلّم ناقصاً عن أصل مراده، لكنَّه مؤدٍّ لدلالته الكاملة.

(جـ) الإطناب، وهو أن يكون اللفظ زائداً عن أصل المراد، لفائدة إضافية.

وفي مقدور البليغ أن يختار الطريقة التي يشاء، على شرط أن يجيء هذا الاختيار مطابقاً لمقتضى حال المخاطب. فمقام المساواة يقتضي منه أن يجعل ألفاظه مساوية لمعانيه، ومقام الإيجاز يقتضي منه إنقاص مقدار ألفاظه عن معانيه، ومقام الإطناب يملي عليه أن يجعل ألفاظه أكثر من معانيه. لكلّ مقام مقاله المناسب.

فلدينا هاهنا، إذاً، ثلاثة موضوعات :

أولا : المساواة – ثانيا : الإيجاز – ثالثاً : الإطناب ويقتضي المقام أن نفصّل القول في كلّ منها.

أولاً – المساواة :

لا تبعد الدّلالة الاصطلاحيّة لـ «المساواة» عن دلالتها اللغوية.

فـ «المساواة» في اللغة مصدرُ الفعل «ساوى بين الشيئيْن» إذا ماثل بينهما. ومن ثَمّ فإنّ «المساواة» – من حيث هي أسلوب – حال للكلام يتطابق فيها اللفظُ والمعنى من حيث المقدار. وتُعرف المساواة بين المعنى والعبارة التي تُختار لتأديته بالقياس إلى كلام الأوساط من النّاس الذين لم يرتقوا إلى مرتبة البلاغة ولم ينحطّوا إلى دركِ العِيّ والفهاهة. فإن ماثل مقدارُ تعبيرك عن معنى من المعاني مقدارَ التعبير عن هذا المعنى لدى أوساط النّاس، فطر يقتك هذه «مساواة». ويجعل علماء البلاغة من صور المساواة في الأساليب قوله سبحانه : «ومَا تُقدّموا لأنفسكم منْ خيْرٍ تجدوه عندَ الله». وقوله سبحانه : «ولاَ يحيقُ المكرُ السيِّء إلاّ بأهلِه». وقوله سبحانه : «وإذا رأيتَ الذّينَ يخوضونَ في آياتِنا فَأعرِضْ عنهُمْ حتّى يخوضواْ في حديثٍ غيرِه».

ومن صور المساواة في الشعر قول النّابغة :

فإنّكَ كاللّيـلِ الذّي هوَ مُدْرِكي وإنْ خلتُ أنّ المنتأى عنكَ واسِعُ

وقول أبي ذؤيب الهذليّ :

والنّفسُ راغبـةٌ إذا رغّبتَهـا وإذا تُـردُّ إلى قليـلٍ تقنـعُ

والملاحظ في هذه الأمثلة تكافؤٌ بين المعنى والمبني في المقدار، دون زيادة أو نقصان.

ومساواة اللفظ للمعنى معلَمٌ من معالم البلاغة وميسمٌ من مياسم البراعة لا يتأتّى إلاّ لأفذاذ البلغاء وأساطين الكلام.

والمساواة هي المقدار الوسط، والمستوى الذي تنسب إليه طرائق التعبير

الأخرى، فما نقص عن مقدار «المساواة» دون إخلال بالمراد سمّي «إيجازاً» ومازاد عنه لفائدة سمّي «إطناباً».

ثانياً - الإيجاز :

تقول العربُ : «أوجز الكلام : قلّ، وأوجزَ الرجلُ كلامَه : قلّله». وقد أسلفنا أنّ «الإيجاز» هو أن يكون اللفظ ناقصاً عن أصل المراد مؤدّياً لدلالته الكاملة. ويعني ذلك تكثيف اللفظ وتركيزه على نحو تخرج فيه العبارة مُثقَلة بالدّلالةِ مشبعةً بالمعنى وقد رأي فيه العربُ صورة مثلى للبيان العالي، وأنسوا فيه جمالية أعلوا من شأنها كثيراً، حتى عدّه بعضهُم خير الكلام حين قال :

خيرُ الكلام قليلٌ   على كثير دليــلٌ

واشترط علماء البلاغة لقبول الإيجاز وتفضيله أن تؤدّي العبارة المعنى دون إنقاص، فإن كان ثمّة انتقاص من الدّلالة سمّوا ذلك «إخلالاً» لا «إيجازاً». ومن أمثلة الإخلال عندهم قول الحارث بن حِلّزة اليشكُريّ :

والعيشُ خيرٌ في ظلا   لِ النّوكِ ممّن عاشَ كدّاً

فما أراد الشاعر قوله هو : إنّ العيش الهانيء الرغيد مع الحُمْق خيرٌ من العيش الشاقّ المجهد مع العقل. لكنّ عبارته لم تسعفه، إذ لا تدلّ دلالةً واضحة على هذا المراد؛ ذلك أنه ذكر العيش على الإطلاق ودون تحديد لنوع معيّن منه؛ ممّا أوقعه في نقيصة الإخلال.

ولا تسمّي طريقة تعبيره هذه «إيجازاً»؛ لأنّها قصّرت عن أداء مراده من التعبير. ويجعلون من الإخلال أيضا قول عروة بن الورْد :

عجبتُ لهمْ إذ يقتلونَ نفوسَهُم ومقتلُهمْ عندَ الوغى كانَ أعذرَا

أراد عروة أن يقول : عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسَهم في السلْم، لكنّ عبارته لا تدلّ على ذلك؛ ممّا أوقعه في نقصية «الإخلال».

نوعا الإيجاز :

للإيجاز نوعان، هما :

1 - إيجاز القِصَر، ويسمّونه «إيجاز البلاغة». ويتحقّق بأداء المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة دون حذف. وهذا الضرب هو الذي تطمح إليه أبصارُ البلغاء، وتتوق إليه قلوبُهم، وهو الحَلْبةُ التي يتنافس فيها المتنافسون. وللقرآن الكريم الحظّ الأوفر من هذه الخصلة. ومن صور الإيجاز في الذِّكر الحكيم قوله سبحانه : «خُذ العَفْوَ، وأْمُرْ بالعُرْف، وأعرضْ عن الجاهلينَ». فتحت كلّ من هذه التعابير القِصار تنطوي دلالةٌ كَبيرة يستلزم تحديدها فيضاً من الكلام. وتأمّل ما يقول القاموس المحيط في مادّة «العَفْو» : «العَفْوُ : عفوُ اللّه، جلّ وعزّ، عن خَلْقه، والصَّفْحُ، وتركُ عقوبةِ المستحقّ، والمحْوُ، والامّحاءُ، وأَحَلُّ المال وأطيبُه، وخِيارُ الشيء وأجودُه، والفضلُ، والمعروف...». ولستُ إخالُك إلا أدركتَ بعض المدلولات الكثيرة لهذه الآية الكريمة.

وممّا هو مضرب المثل في هذا الضرب من الإيجاز قولُه سبحانه : «في القصاصِ حياةٌ». فقد تضمنّت هذه الجملة من المعاني ماتنوء بحمله الجمل الكثيرة. إذ جعلت في قتْل القاتل حياةً للناس. أما كيف يكون في القصاص حياة فواضحٌ من أنّ الإنسان حين يضع في حسابه أنّه متى

قتل اقتُصَّ منه فقُتِل تفادي القتلَ وامتنع عنه أيّما امتناع. وفي هذا حياةٌ له وحياةٌ لمن همَّ أن يقتله، وحياة لمجموعة كبيرة لا يُعرف لها عَدٌّ. وهكذا تنطوي الآية الكريمة على دلالة كبيرة دون أن يكون فيها حذف. وإنّه لايدانيها في بلاغة الإيجاز قولُ العرب «القتلُ أنفى للقتلِ». وقام نفرٌ من علماء البلاغة بعقد مقارنة بين الآية الكريمة وقول العرب، وانتهوا إلى تفوّق النصّ الكريم على النصّ العربيّ لأمورٍ، أهمّها :

1 - حروف النصّ القرآنيّ الملفوظة عشرة وحروف النصّ العربيّ أربعة عشر، فهو أقلّ لفظاً وأوفى معنى.

2 - يوضح النصُّ القرآنيّ المطلوبَ وهو «الحياة»، فيكون أزْجَرَ عن القتل بغير حقّ؛ لكونه أدعى إلى الاقتصاص، بينما يدلّ النّصُّ العربيّ على «الحياة» لزوماً لانصّاً، وفرْق بين التّصريح بالمطلوب والإيماء إليه من بعيد.

3 - يفيد تنكير كلمة «حياةٌ» في النص القرآنيّ كونّها حياةً عظيمة، إذ هي حياة للجميع، وليس ذلك في النصّ العربيّ.

4 - يفيد النصُّ القرآنيّ أنّ القصاصَ سببٌ في الحياة في كلّ الأزمان والأمكنة ولدى كلّ الأفراد، في حين أنّ القتل في النصّ العربيّ ربّما لا يكون أنفى للقتل.

5 - سلامة النصّ القرآنيّ من التكرار ووقوع النصّ العربيّ فيه.

6 - أدخل النصّ القرآنيّ «في» على «القصاص»، وهذه الصيغة تجعل

القصاص كالمنبع الذي لا يتوقّف للحياة، وليس في النّصّ العربيّ شيءٌ من هذا.

7- تحلّي النصّ القرآنيّ بزينة «الطِّباق» بين «القصاص والحياة»، وخلا النصّ العربيّ من ذلك.

8- يفوحُ من النصّ القرآني عبيرُ عدالة السّماء؛ إذ مؤدّي الأثر الكريم هكذا: في نوعٍ من القتل حياةٌ عظيمة. ففيه، من ثمّ، وعْيُ الأشياء بكلّ أبعادها. أمّا النصّ العربيّ فتفوح منه رائحة ظلم الجاهلية وتعميماتها التي لا تبُقي ولا تذر.

9- ثمّة فرقٌ هائل تتلمسه البصيرة المستنيرة بين «القِصاص» الموحي بجناية الجاني على نفسه وبين «القتْل» الذي قد ينصرف إلى غير الجاني.

ومَن الإيجاز قوله سبَحانه: «فلمّا استيأسُوا منهُ خَلَصُوا نجيًّا». هذه الآية التي حار في فصاحتها جميع البلغاء.

ومن صوره الرائعة في الشعر قول الشريف الرضيّ قوماً بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام:

ما لُوا إلى شُعَبِ الرّحالِ وأسندوا   أيدي الطعّانِ إلى قلوبٍ تخفُقُ

2- إيجاز الحذف، ويتحقّق بأداء المعنى مع حذف شيء من التركيب تدلّ عليه قرينة. والجزء المحذوف أنواعٌ كثيرة. فإمّا أن يكون.

1- حزماً، كقوله سبحانه: «ولمْ أكُ بَغِيًا»، حيث حُذفت نون «أكن» تخفيفاً.

2 - أو اسماً مضافاً، كقوله سبحانه : «واسألِ القريةَ»، أي : «أهلَ» القرية. وكقوله سبحانه : «حُرِّمتْ عليكُمُ الميتةُ»، أي : تناولها. وقوله سبحانه : «حَرَّمْنَا عليهِمْ طيبات أُحِلَتْ لَهُمْ»، أي : «تناول» طيبات.

3 - أو اسماً مضافاً إليه، كقوله سبحانه : «وواعدْنا موسى ثلاثينَ ليلةً وأتمَمْنَاها بِعَشْرٍ»، أي : بعشر «ليالٍ». وقوله سبحانه : «لِلّهِ الأمرُ من قبلُ ومِنْ بعدُ»، أي : من قبل «ذلك» ومن بعده.

4 - أو اسماً مضافاً، كقوله سبحانه : «وعندَهُمْ قاصراتُ الطَّرْفِ أتراب»، أي : «حورٌ» قاصرات الطّرف. وقوله سبحانه : «ومَنْ تابَ وعملَ صالحاً»، أي : «عملاً صالحاً. وقوله سبحانه : «أنِ أعملْ سابغاتٍ»، أي : «دِرعاً» سابغات.

5 - أو اسماً صفة – وهو قليل في كلام العرب، كقوله سبحانه : «وكانَ وراءَهُمْ ملِكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً» أي : كلّ سفينة «صالحة». وقوله سبحانه : «فزادتْهم رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ» أي : مضافاً إلى رجسهم.

6 - أو شرطاً، كقوله سبحانه : «اتّبعوني يُحْبِبْكُمْ اللّهُ»، أي : فإن تتبعوني يحببْكم اللّهُ.

7 - وجواب شرط، وهو نوعان :

(أ) أن يُحذف لمجرّد الاختصار، كقوله سبحانه : «وإذَا قيلَ لَهُمْ اتّقُوا ما بينَ أيديكُمْ ومَا خلفَكُمْ لعلَّكُمْ ترُحَمُونَ» أي : أعرضوا. وكقوله سبحانه : «ولَوْ أنَّ قرآناً سُيِّرتْ بِهِ الجبالُ أو قطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى» أي : لكان هذا القرآن.

(ب) أن يُحذف للدلالة على أنّه شيء لا يحيط به الوصف وأنّ العبارة عاجزة عن تحديده، لتذهب النّفسُ في تصوّره كلّ مذهب، كقوله سبحانه : «وسيقَ الذّينَ اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زُمَراً حتّى إذَا جاؤوها وفُتحتْ أبوابُها وقالَ لهُمْ خزنتُها سلامٌ عليكم طِبْتُم فادخلُوها خالدينَ». حذف جواب الشرط هنا لتتخيّل النّفس ما شاءت أن تتخيّل مطلَقةَ العِنان لا يعوق تصوّرها تعبير أيّا كانت قدرته على التصوير. والتصوّر البشريّ مقيّدٌ بمعطيات الحسّ من المرئيّ والمسموع، ومن ثم يظلّ التعبير دون الغاية. ألم يقل المصطفى صلّي اللّهُ عليه وسلّم مشيراً إلى الجنّة : «فيها مالا عينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَر»، منبّهاً على قصور تصوّر البشر.

ومن هذا أيضاً قوله سبحانه : «ولو ترى إذْ وُقِفُوا على النّارِ». وقوله سبحانه : «ولو ترى إذِ المجرمونَ ناكِسُوا رؤوسِهم عندَ ربِّهم».

8- أو مسنداً، كقوله سبحانه : «ولئنْ سألتَهُمْ مَنْ خلَقَ السموات والأرضَ ليقولُنّ اللّهُ»، أي : خلقهنّ اللّهُ.

9- و مسنداً إليه – كما في قول حاتم الطّائيّ :

أماويَّ ما يُغني الثّراءُ عن الفتي إذا حشرجَتْ يوماً وضاقَ بِها الصدْرُ

أي : حشرجت «النّفسُ» يوماً.

10- أو متعلّقاً، كقوله سبحانه : «لا يُسأَلُ عمّا يَفعَلُ وهُمْ يُسألون» أي : عمّا يفعلون.

11 - أو جملةً، كقوله سبحانه : «كان النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فبعَثَ اللّهُ النبيِّينَ»، أي : فاختلفوا، فبعث. وكقوله سبحانه : «فقلنا اضرِبْ بعَصاكَ الحجرَ فانفجرتْ»، أي : فضرب بها فانفجرت.

12 - عدد من الجمل، كقوله سبحانه : «أنا أُنبِّئُكُمْ بتأويله فأرسلون يوسفُ أيُّها الصِّدِّيقُ». أي : فأرسلونِ إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه، فقال له : يا يوسف.

وجهان للحذف :

يستخدم البلغاء الحذفَ على وجهين :

1 - أن يقيموا مقامَ المحذوف شيئاً يدلّ عليه، كقوله سبحانه : «وإن يكذّبوكَ فقدْ كُذِّبَتْ رسلٌ مِنْ قبلِك» لا تكون جملةُ «فقد كذّبت رسلٌ» جواب الشرط؛ لأنّ جواب الشرط ينبغي أن يترتّب مضمونه على مضمون الشرط، وليس الأمر كذلك هنا؛ لأنّ تكذيب الرسل سابقٌ لتكذيب النبيّ عليه الصّلاة والسّلام. وجملة «فقد كذبت» علّة للجواب المحذوف، وهو «الصّبر على الابتلاء». ويمكن تقدير الكلام هكذا :

«وإن يكذّبوكَ – فاصْبِرْ ولا تحزَنْ – فقد كذّبتْ رسلٌ من قبلك»، فحالك كحالهم. فهذه، إذاً، دعوةٌ للتأسّي وتعزية النفس.

2 - ألاّ يقموا مقام المحذوف شيئاً يدلّ عليه، بل يتركوا أمر إدراكه إلى القرينة الدّالّة. وفي هذه الحال يُستدلّ على الحذف بأدلّة منها :

1 - العقل والعُرْف، كما في قوله سبحانه : «حُرِّمتْ عليكمُ الميتةُ»، أي : حُرِّم عليكم أكلها والانتفاع بها. وقد دلّ العقل على أنّ في الكلام حذفاً، وحدّد العرف نوع المحذوف، وهو «الأكل والانتفاع»، إذ شأن الناس أن يستفيدوا من المذبوح المحلّل في هذين الأمرين.

2 - العقل والشروع في الفعل، كما إذا قال القارىء : «باسم الله»؛ أي : باسم اللّهِ أقرأ. حيث دلّ العقل على أنّ في الكلام حذفاً لحاجة الجارّ والمجرور إلى التعليق، ودلّ الشروع في الفعل (وهو هنا القراءة) على خصوص المحذوف وهو «أقرأ». وكذا الأمر في تقدير متعلّق البسملة عند البدء بكلّ فعل.

3 - العقل وحده، حيث يُعتمد عليه في تبيّن الحذف وفي تحديد المحذوف، كما في قوله سبحانه : «وجاءَ ربُّكَ». أي أمر ربك. قال الزّمخشري : «إنّ تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره وتبيّن آثار قهره وسلطانه مُثّلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسّياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلِّها ووزرائه».

4 - ارتباط الكلام بمناسبة معيّنة، كقولك لمن أعرس : «بالرِّفاء والبنينَ»، أي : بالرفاء والبنين أعرستَ. وكقولك لمن أتي من فريضة الحجّ «حجّاً مبروراً وسعياً مشكوراً» أي : «حججتَ حجّاً مبرراً وسعيت سعياً مشكوراً».

ثالثا – الإطناب :

الإطنابُ – كما قدّمنا – أن يكون اللفظُ زائداً على أصل المراد لفائدة. ويتحقق هذا حين يؤدّي المتكلّم معناه بعبارة زائدة عمّا يستحق أداءُ هذا المعنى وتوصيله حسبَ متعارف أوساط الناس؛ بمعنى أن تكون عبارته التي يوصلُ بها هذا المعنى أطولَ من عبارة متوسّطي الناس عن هذا المعني نفسه، لو حدث أنّهم عبّروا عنه.

وشرط زيادة العبارة أن تكون لفائدة. ومثال ذلك من الذّكر الحكيم قوله سبحانه حكايةً عن زكريّا عليه السلام : «ربِّ إنّي وهَنَ العظمُ منّي واشتعلَ الرأسُ شيباً».

مثل هذا المعنى يمكن أن يؤدّي حسب متعارف الأوساط بأن يقول سيّدنا زكريّا عليه السلام : «ربِّ إنّي كَبُرتُ». هذه الألفاظ الثلاثة هي التي يستحقها أصلُ المراد، وما زاد عن ذلك داعية إلى وصف العبارة بـ «الإطناب» على غرار ما جاء النصّ القرآنيّ. ولكنّ هذه الزيادة يقتضيها موقفُ بثّ الشّكاية واستدرار الرحمة واستعطاف الباريء، جلّ وعلا.

ومثال «الإطناب» أيضاً قوله سبحانه : «وما تلكَ بيمينِك يا موسى قال : هي عصايَ أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى». فمقول كليم اللهِ – عليه السلام – يمكن تأديته بلفظٍ أقلّ في متعارف الأوساط، كأن يقال : «هي عصا» لكنّ هذه الزيادة في العبارة يقتضيها مقام التكلّم مع الحبيب، حيث يثير المتكلّم من الأحاديث مالزم ومالم يلزم لإطالة أمد الحديث والظفر بالمشاهدة. وعن هذا المعنى صدرتُ حين قلتُ أخاطب مدينة الرّقّة :

جارةَ الشّطِّ، حدِّثِينا وزِيــدي فحـديثُ العشّاق شوقاً يزيدُ

وقـد تكون الزيادة في اللفظ لغـير فـائدة، فـلا تسمّي «إطنـاباً»، بل هي أحد شيئين :

1 - تطويل، وذلك حين تكون الزيادة في الكلام غير متعيّنة، كقول عديّ بن زيد العِبادي يصوّر فعل الزبّاء بجذيمة بن الأبرش :

وقــدَّدتِ الأديــمَ لراهِشـَـيْهِ وألفــى قولَهــا كَذبـاً ومَيْنا

قـدّدَت : قطّعت. والراهشـان : العرقـان في بطن الذّراع. والشّاهد قوله: «كذباً ومـيناً» فـالكذب والمَيْن بمـعنى واحد، ولا فـائدة في الجمع بينهمـا، وليس في مقدورنا أن نحدّد الزائد منهما، إذ في مقدورنا حذف أيٍّ منهما دون تغيّر المعنى. ومن ثمّ يسمّي هذا «تطويلا».

ومثله أيضاً قول الشاعر :

ألا حبّـذا هنـدٌ وأرضٌ بهــا هنـدٌ وهندٌ أتى مِنْ دونِها النأيُ والبُعْدُ

فالنأي والبعد بمعنى واحد، وليس في مقدورنا تعيين الزائد منهما

2 - الحَشْو، وذلك حين يكون في مقدورنا تعيين الزائد. وهو ضربان :

(أ) حشو مفسد للمعنى، وهو زيادة متعيّنة دون فائدة، كزيادة لفظ «النّدى» في قول المتنبّي يرثي غلاماً.

ولافضلَ فيها للشجاعة والنّدى وصبرِ الفتى لولا لقاءُ شَعُوبِ

شَعـوب : اسمُ المنيّة. يريد الشـاعر أن يقـول إنّ الذي جـمل الشّجـاعـة والكرم والصّبـر في الشّدائد هـو صـعـوبة الموت؛

فصعوبة الموت وكره الناس إيّاه هما اللذان جعلا للشجاعة والبذل والصّبر هذه القيمة التي نعرفها.

وهذا الاستنتاج صحيح بالنّسبة إلى الشجاعة والصّبر، وغير صحيح بالنّسبة إلى الندى. فلا فضل حقيقة للشّجاعة عندما يتيقّن الشّجاع بعدم الهلاك، ولا فضل حقيقة للصبر عندما يتيقّن الصابر بزوال المكروه. والفضل كلّ الفضل للرجل الذي يبذل ماله وهو متيقّن بالخلود وعارف حاجته الدائمة إلى المال. وهكذا فإن إدراج «النّدى» في سياق الحديث عن الشّجاعة والصّبر في هذا المقام لا يستقيم، وهو حشو مفسد للمعنى.

(ب) حشْو غير مفسد، كلفظ «قبلَه» في قول زهير بن أبي سلمى :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبلَهُ ولكنّني عن عِلْمِ مافي غدٍ عَمي

فقوله «قبلَه» زيادة متعينة دون فائدة؛ لأنّ لفظ الأمس يدلّ هو نفسه على القبْليّة، فلا حاجة إلى التّدليل عليها بلفظ «قبله». ومادام المعنى لا يبطل بوجود هذا اللفظ، فهو إذاً «حشوٌ غير مفسد». ومثله قول الشاعر :

ذكرتُ أخي فعاودني صُداعُ الرأسِ والوصَبِ

فالمعروف أنّ الصّداع لا يكون في غير الرأس، ومن ثم فإضافته إلى الرأس زيادة متعينة، لكنّ المعنى لا يبطل بذكرها، وهكذا فلفظ «الرأس» في البيت «حشو غير مفسد».

أنواع الإطنـــــاب :

للإطناب أنواع كثيرة، ولعلّ أهمّها ما يأتي :

1 - الإيضاح بعد الإبهام، إذ يعمد البلغاء أحياناً إلى طريقة في عرض معانيهم يأتون فيها بالمعنى مبهماً أولاً، وموضحاً ثانيا. وذلك ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين : إحداهما مبهمة، والأخرى موضحة، فيكون كعَرْض الحسناء في لباسين متغايرين، يبرز كلّ منهما جانباً من جمالها. ولهذه الطريقة جماليّة أخرى، وهي تمكين المعنى في النفس؛ وذلك لأنّ المعنى إذا ألقي مبهماً تاقت النفسُ إلى معرفته موضَحاً، فتتنبّه إلى ما يأتي بعد ذلك، فإذا جاءها كما تشتهيه تمكّن لديها فضلَ تمكّن، وكان شعورها به أتمّ. وقد يحقق جماليّه ثالثة، وهي إكمال لذّة العلْم بهذا المعنى؛ وذلك لأنّ الشيء الذي يُعلَم دفعةً واحدة لا يسبق حصولَ اللذّة به ألمٌ، وإذا عُلم جزء منه دون آخر تشوّقت النفس إلى تعرّف المجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذّة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، حتى إذا علمت الجزء المجهول حصلت لها لذّة أخرى، ومعلومٌ من أحوال النفس أنّ اللّذة بعد الألم أقوى من اللّذة التي لم يسبقها ألم.

ومن أمثلة الإطناب القائم على الإيضاح بعد الإبهام قوله سبحانه: «يا أيُّها الذينَ آمنوا هَلْ أدلُّكم على على تجارة تنجيكُمْ منْ عذابٍ أليم : تؤمنونَ باللّهِ ورسولِهِ وتجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالكُمْ وأنفسكُمْ». وقوله سبحانه: «ربِّ اشرَحْ لِي صَدْري»؛ فإن «اشرحْ» يفيد طلب شرْحٍ لشيءٍ ما له، وقوله «صدري» يفيد تفسيره. وقوله سبحانه: «وقَضَيْنَا

إليه ذَلِكَ الأمرَ أَنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ مُصْبِحِينَ». جاء «الأمر» مبهماً أولاً، ثمّ وضّحَ وبيّن في قوله سبحانه : «أنَّ دابرَ هؤلاء»، وفي ذلك توجيهٌ للذهن إلى معرفته وتفخيم لشأن المبيّن وتمكينه في النفْس.

2 - التَّوشيع، وهو أن يُؤتى في آخر الكلام بمثنّى مفسّر باسمَيْن ثانيهما معطوف على الأوّل. وبذلك يُرى المعنى في صورتين، يخرج فيهما من الإبهام إلى الإيضاح. وأصل «التوشيع» في اللغة : لفّ القطن المندوف. فكأنهم جعلوا التعبير عن المعنى الواحد بالمثنّى المفسَّر باسمين بمنزلة لفِّ القطن بعد الندف.

ومن أمثلة التوشيع في الشعر قول الشاعر :

سَقَتْنيَ في ليل شبيه بِشَعْرِهَا ... شبيهةُ خدَّيْها بغير رقيبِ

فمازلتُ في ليلَيْنِ : شَعْرٍ وظُلْمةٍ ... وشمسَيْنِ : مِنْ خَمْرٍ ووجهِ حبيبِ

والشاهد هنا قوله : «لَيْلَيْنِ : شعرٍ وظلمة» و«شمسَيْنِ : خمرٍ ووجه حبيبٍ».

وقول البحتريّ :

لَمّا مشيْنَ بذِي الأراكِ تشابَهَتْ ... أعطافُ قُضبانٍ بهِ وقد ودِ

في حلّتَيْ حِبَرٍ وروْضٍ فالتقى ... وشْيانِ : وشْيُ رُبى ووشيُ برودِ

وسَفَرْن فامتلأتْ عيونٌ راقَها ... وردانِ : وردُ جنى وورد خدود

قال في البيت الثاني : «وشيانِ : وشيُ رِبى ووشيُ بُرُودٍ»، وقال في الثالث: «وردَانِ : وردُ جنى وورد خدود».

3 - عطف الخاصّ على العام للتّنبيه على فضله حتى كأنّه ليس من جنسه، كقوله سبحانه : «حافظُوا على الصلّوات والصّلاة الوسْطي». وكقوله سبحانه : «من كانَ عدوّاً للهِ وملائكتهِ ورُسُلهِ وجبريلَ وميكالَ»، بالذّكر، مع أنهما من الملائكة؛ لفضلهما كأنهما من جنس آخر.

4 - عطف العام على الخاصّ للدلالة على الاهتمام بالخاصّ بذكره مرّتين، كقوله سبحانه : «ربِّ اغفرْلي ولوالديّ ولِمَنْ دَخَلَ بيتّي مؤمناً وللمؤمنينَ والمؤمنات»، وقوله سبحانه : «ومَا أوتيَ موسى وعيسى والنبيّون».

5 - الإيغال، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتةً يتمّ المعنى من دونها، كالمبالغة في التشبيه أو تحقيقه، أو زيادة الحثّ والترغيب. وأصل «الإيغال» في اللغة : الإبعاد في الأمر والوصول فيه إلى غاية بعيدة.

ومن الإيغال الذي يفيد المبالغة في التشبيه قول الخنساء :

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به   كأنّه علَمٌ في رأسهِ نارُ

. العلَم : الجبل. شبهّت صخراً بالجبل في الظهور والارتفاع، وكان يكفيها ذلك تطاولاً وفخرا، لكنّها لم تكتف بهذا القدر بل مضت حتى جعلت في رأس الجبل ناراً، مبالغة في الظهور والوضوح والاشتهار. ومهما يكن، فإنّ قول الخنساء «في رأسه نار» إيغالٌ للمبالغة في التشّبيه.

ومن الإيغال الذي يفيد تحقيق التشبيه قول زهير بن أبي سلمى :

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ في منزلٍ   نَزَلْنَ به حَبُّ الفنا لم يحطَّمِ

شبّه زهير قطع الصّوف الصغيرة في منازلهنّ بحَبِّ الفَنا، وزاد

على ذلك بأن جعل حبَّ الغنا غير محطّم؛ لأنَّ الغنا أحمر الظاهر أبيض الباطن، فلا يشبهه الصّوف الأحمر إلاّ حين يكون غير محطّم. وهكذا فقوله «لم يحطم» إيغال تمّ المراد من دونه، ولكن جيء به لنكتة هي تحقيق التشبيه.

6- التكرير، وهو ذكر الشيء مرّتيْن أو أكثر لأغراض :

(أ) التّأكيد وتقرير المعنى في النّفس، كقوله سبحانه : «كلاَّ سَوْفَ تعلمــون، ثمّ كـــلاّ ســوفَ تعلمـــون». أكّد الرّدع والإنذار بتكريرهما، ليكون ذلك أوقع للمعنى في النفس وأبلغ تأثيراً فيها. ومثل ذلك أيضاً قوله سبحانه : «فإنَّ معَ العُسْرِ يسراً إنَّ مع العسرِ يُسْراً». ذُكر التعبير نفسه مرّتين ليقع في رُوع الإنسان وجود اليسر مع العسر، وما أجمل ما قال المصطفى صلّى اللّهُ عليه وسلّم : «ما غلَبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن»؛ إذ «العسْر» المعرّف واحدٌ في التعبيرين، أمّا «اليُسْر» المنكّر في التعبيرين فليس واحداً، بل هما «يسران».

(ب) ملاينة المخاطب لقبول مضمون الخطاب، كقوله سبحانه : «وقال الذى آمنَ يا قوم اتّبعونِ أهْدِكُمْ سبيلَ الرَّشاد، ياقوم إنمّا هذه الحياةُ الدّنيا متاعٌ»، كرّر هذا المؤمن قوله «ياقوم» تليناً لقلوبهم وإظهاراً لإخلاصه لهم في النّصح؛ ليتلقّوا الكلام منه بالقبول.

(جـ) قصد الاستقصاء والاستيعاب، كقولك: «مشيتُ المدينة شبْراً شبراً، وتعرّفتُ أعلامها علَماً علَماً». والتّكرير في المثالين لقصد بيان الاستيعاب والشمول.

(د) التّنويه بشأن المتحدَّث عنه أو النَّيل منه :

الأول كقولهم : «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ».

والثّاني كقول جرير يهجو الفرزدق :

هو القينُ وابنُ القينِ لاقينَ مثله   لفَطْح المساحي أو لجدْلِ الأداهم

القين : الحدّاد. المساحي : جمع مسحاة : أداة تسوّى بها الأرض. وفطحها: تسويتُها وتعريضها. والأداهم : جمع أدهم، القيد. كرّر لفظ «قين» ثلاث مرّات للنَّيل من مهجوّه، وإظهار أنّه حدّاد ابن حدّاد، متمكّن من صنعته، مستغرق في شؤونها، ولا شأن له بمعالي الأمور.

(هـ) المبالغة في التوجّع والتحسّر، كقول الحُسَين بن مطير الأسديّ :

فياقَبْرَ مَعْنٍ، أنتَ أوّلُ حُفرةٍ   من الأرض خُطّتْ للسّماحة موضعا

وياقبرَ مَعْنٍ، كيفَ واريتَ جودهُ   وقدْ كانَ منهُ البَرُّ والبحرُ مترَعَا

كرّر الشّاعر تعبير «ياقبرَ معْنٍ»؛ تعبيراً عن توجّعه وتحسّره.

(و) وَصْلُ الكلام، حيث يكرّر ما قد بعُد لئلاّ يجيء الكلام مبتورا لاطلاوة فيه، كما في قوله سبحانه : «يا أبتَ إنّي رأيتُ أحدَ

بقوم يحبُّهم ويُحبّونَه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين». زاد سبحانه «أعزّة على الكافرين» ليفهم أنّ تذلّلهم للمؤمنين ليس ناشئاً عن ضعف وعجز. وقوله سبحانه: «محمدٌ رسول الله والذينَ مَعَهُ أشدّاءُ على الكُفّار رُحَماءُ بينَهُمْ». زاد سبحانه «رحماء بينهم»؛ ليفهم أنّ شدّتهم على الكفار ليست جبلّةً لهم وخُلُقاً لا يستطيعون منه فكاكا.

ومنه في المنظوم قول طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلمة الحنفيّ ويدعو له:

فسقى ديارَكَ غيرَ مفسدِها صَوْبُ الربيع وديمةٌ تهمي

الديمة: المطر يدوم وقتا. تهمي: تسيل. لأنّ المطر قد يفسد الديار ويأتي عليها، تحرّز عن ذلك بقوله «غير مفسدها».

8 - التّتْميم، وهو أن يُؤتى في كلام لايوهم خلاف المقصود بزيادة لغرض بلاغيّ كالمبالغة، كما في قوله سبحانه: «ويُطعمونَ الطّعامَ على حبِّه» أي: مع حبّه. وقد زيد قوله سبحانه «على حبّه» للتدليل على فرط سخائهم؛ لأنّ الجود الحقيقي لا يكون حتى تجود وما لديك قليل. وقد يكون الغرض البلاغيّ تقليل المدّة، كما في قوله سبحانه: «سبحانَ الّذي أسرى بعبدِه ليلاً». الإسراء في الليل دائماً، فزيدت «ليلا» للدلالة على تقليل مدّة الإسراء وأنّه كان في بعض الليل؛ فالتّنكير فيه يدلّ على معنى البعضية.

9 - التذييل، وهو تعقيبُ جملةٍ بأخرى تتضمّنُ معناها؛ تأكيداً لها. وهو قسمان:

(أ) قسم يجري مجري المثل لاستقلاله بمعناه وشيوع استعماله، كقوله سبحانه : «وقل جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كانَ زهوقاً». فقوله سبحانه «إنّ الباطل كان زهوقاً» تذييل مستقلّ بمعناه جارٍ مجرى المثل، وقد جيء به تأكيداً لمفهوم ماقبله.

ومنه في الشعر قول الحطيئة :

نزور فتى يُعطي على الحَمْدِ مالَه ومن يُعطِ أثمانَ المحامدِ يُحمَدِ

قول الحطيئة «ومن يعطِ أثمانَ المحامدِ يُحمد» تذييل مستقلّ بمعناه جارٍ مجرى المثل، أكدّ مضمون ما قبله وسوّغ قبوله.

وقول النابغة :

ولستَ بمُستْبقٍ أخاً لاتلُمُّهُ على شَعَثٍ، أيّ الرّجالِ المهذّبُ

دلّ صدر البيت على نفي وجود الكامل من الرجال، وأنّ الإنسان لا يستطيع الاحتفاظ بصديقه إلاّ بقبول ما فيه من عيوب ونقائض، وجاء عجز البيت ليحقق هذا ويقرّره؛ فأيّ الرّجال الخالص من كلّ العيوب.

(ب) لا يجري مجرى المثل، حيث لا يستقلّ بمعناه بل تتوقّف دلالته على ما قبله، كقوله سبحانه : «ذلكَ جزيناهُمْ بما كفروُا، وهل يجازى إلاّ الكفورُ». أفاد مطلع الآية الكريمة أنّ هذا الجزاء سببه كفرهم، ومن ثم فقوله سبحانه : «وهل يجازى إلاّ

الكفورُ» تذييل أريد منه تأكيد مدلول الجملة السابقة. وهو لا يجري مجري المثل؛ لأنّه يعتمد في دلالته على ما قبله، ومعناه على هذا: وهل يجازى ذلك الجزاء هذا في أحد رأيين.

جماليّـــــة التذييـــــل :

يقـول بعض علمـاء البـلاغـة عن التـذييل : «ولَهُ في الكلام مـوقع جليلٌ ومكانٌ شريف خطير؛ لأنّ المعنى يزداد به انشراحاً، والمقصد اتضاحا.... وينبـغى أن يُستـعـمل فـي المواطن الجـامـعـة والمواقف الحـافلة؛ لأنّ تلك المواطن تجـمـع البطيء الفَهْم، والبـعـيـد الذهن، والثّاقب القـريـحـة، والجـيّد الخـاطر، فـإذا تكرّرت الألفـاظ على المعنى الواحـد تأكّد عند الذّهـن اللّقِنِ، وصحّ للكليل البليد» (التلخيص في علوم البلاغة – شرح البرقوقي ط -2- – دون نسبة).

10 - الاعتراض، وهو أ يُؤتى في تضاعيف الكلام بجملةٍ أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب؛ لغرضٍ من الأغراض. وأهم هذه الأغراض :

(أ) التنزيه، كمـا في قوله سبـحـانه : «ويجـعلون للهِ البناتِ سبـحـانه ولَهُمْ مـا يشتـهونَ». قـوله «سبـحـانه» اعـتـراض جيء به في تضاعيف الكلام لقصد تنزيهه تعالى عمّا يقولون.

(ب) الدُّعاء، كمـا في قول عـوف بن مـحلّم الشيـباني يشكو كبـره وضعفه :

إنّ الثمـــانيـن – وبلّغتَهـــــا – قدْ أحوجتْ سَمْعي إلى تَرْجُمانِ

تَرْجُمان : مـفـسّر ومكرّر. وقـوله «وبلّغـتَهـا» اعـتـراضٌ في

تضاعيف الكلام؛ قصداً إلى الدُّعاء لمخاطبه أن يوصله البارىء سبحانه إلى سنّ الثّمانين التي بلغها الشاعر. والواو اعتراضية، لا عاطفة ولا حالية.

وقول المتنبّي :

وتحتقرُ الدّنيا احتقـارَ مجرِّبٍ يرى كلّ ما فيها، وحاشاكَ، فانيا

قوله «وحاشاكَ» اعتراض على سبيل الدُّعاء، وهو رائعٌ في موضعه.

(جـ) التّنبيه، كقول الشاعر :

واعـلمْ، فعِـلْمُ المرءِ ينفعُـهُ، أنْ سـوفَ يـأتي كلُّ ما قُـدِرا

قوله «فعلم المرء ينفعه» اعتراض جيء به في تضاعيف الكلام؛ قصداً إلى التّنبيه على فضيلة العلم ومنزلته، مما يزيد المخاطب إقبالاً عليه.

(د) تخصيص أحد الأمرين بزيادة التّوكيد في أمرٍ علّق بهما، كقوله سبحانه : «ووصَّيْنَا الإنسانَ بوالدَيْهِ – حملتْه أمُّه وهناً على وهْنٍ وفِصالُهُ في عامين – أنِ اشْكُرْ لي ولوالِدَيْكَ». فقوله سبحانه «أن اشكر لي» تفسيرٌ لقوله سبحانه» ووصّينا الإنسان»، وقد جاءت جملة «حملته أمّه» معترضة بين المفسَّر والمفسِّر تخصيصاً للوالدة بزيادة توكيد حقّها العظيم.

(هـ) الاستعطاف، كقول المتنبي :

وخُفُوقُ قلْبٍ لو رأيتِ لهيبَه يا جـنّتي لرأيت فيه جهنّمـا

قوله «ياجّنتي» اعتراضٌ؛ جيءَ به للاستعطاف والمطابقة مع جهنم.

(ر) التّهويل، كقوله سبحانه : «وإنَّهُ لَقَسَمٌ - لو تعلمونَ - عظيم».

قوله سبحانه «لو تعلمون» اعتراضٌ جيء للتّهويل وإعلاء شأن القسم.

(و) بيان السّبب لأمرٍ فيه غرابة - كما في قول ابن ميّادة :

فلا هجرةٌ يبدو، وفي اليأس راحةٌ   ولا وصلُهُ يبدو لنا فنكارمه

فقوله فلا هجرهُ يبدو يوحي بأنّ هجر الحبيب أحد مطلوبَيْه، ولأنّ من المستغرب أن يطلب المحبُّ هجر المحبوب جاء قوله «وفي اليأس راحة»؛ ليوضح سبب طلبه ظهور هجره؛ فهذا القول إذاً اعتراض أريد منه بيان سبب الأمر الغريب.

أسلفنا أنّ الاعتراض قد يكون بجملةٍ، وقد جاءت الأمثلة المتقدمة لتدلّل على ذلك. وقد يكون الاعتراض بأكثر من جملة، كما أشرنا قبل. ومن صوره في الذكر الحكيم قوله سبحانه : «فَأتُوهُنّ من حيثُ أمَرَكُمُ اللّهُ - إنّ اللّهَ يُحِبّ التّوابينَ ويحبّ المتطهّرين - نساؤكم حرثٌ لكم». فقوله سبحانه «إنّ الله يحبّ التّوابين ويحبُّ المتطهرين» اعتراضٌ بين المفسَّر «فأتوهن...» ومفسِّره «نساؤكُمْ حرثٌ لكم»، وهو أكثر من جملة. ومنه أيضاً قوله سبحانه حكاية عن أم مريم عليها السلام : «قالت ربِّ إنّي وضعتُها أنثى - واللّهُ أعلمُ بما وضعتْ وليس الذكرُ كالأنثى - وإنّي سمّيتُها مريمَ». قوله سبحانه

«والله أعلم... وليس الذكر...» ليس من كلام أمّ مريم؛ فهو اعتراضٌ في تضاعيف الكلام بأكثر من جملة.

جماليّات الإيجاز والإطناب :

لم تكن كلمةُ علماء البلاغة واحدة بشأن فضل الإيجاز والإطناب. إذ رجّح فريق منهم جانب الإيجاز، وبيّنوا أنّ مبعث فضله أنّه معلَمُ تمكّنٍ في الفصاحة ورسوخ قدم في ميدان ملكة البلاغة، وأنّه يحقّق للنّفس المتلقّية ملاذّ كثيرة دفعة واحدة، إذ يأتيها ما يشبه الشّعاع الغامر من مصدر ضئيل، فيفعل فيها الأفاعيل. وانتصر آخرون للإطناب مؤيّدين مذهبَهم بأن النّطق في أساسه تعبيرٌ وبيانٌ، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والإشباع لا يقع إلا بالإقناع. وعند هؤلاء أنّ أفضلَ الكلام أبينُه، وأبينَه أشدُّه إحاطةً بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطةً تامّة إلاّ بالاستقصاء والإطناب. ومضى فريق ثالث إلى القول إنّ لكلّ مقامٍ مقالا، فللايجاز مواضع وللإطناب مواضع، والحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه. وقالوا إنّ كتب السلطان في الأمور العظيمة وتفخيم مواقع النّعم المتجدّدة أو في التّرغيب في الطّاعة والتّحذير من العصيان ينبغي أن تكون مشبعة مستقصاة. وعلى الجملة فإنّ الذّوق المميّز هو الحاكم الأوّل في استجادة الجميل واستقباح القبيح في كلّ الأساليب.

أسئلة وإجاباتها حول الإيجاز والإطناب والمساواة(1)

- حدّد فيما يأتي الطريقة التي أتي عليها الكلام من إيجاز أو إطناب أو مساواة:

1 - فهمتُ المسألة 2 - قال سبحانه: «إنّ في خلْقِ السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار والفُلْكِ التي في البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللّهُ منَ السّماءِ منْ ماءٍ فأحيا به الأرضِ بعدَ موتِها، وبثَّ فيها منْ كلّ دابّةٍ وتصريفِ الرّياح والسّحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلونَ».

3 - قال سبحانه: «ويطعمونَ الطعامَ على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا».

4 - قال سبحانه: «ولا يحيق المكرُ السيِّءُ إلاّ بأهلِه».

5 - مقتلُ المرءِ بينَ فكّيْه.

6 - لا توقظ الفتنة، دعْها نائمة.

7 - قال سبحانه: «تاللّهِ تفتأُ تذكرُ يوسُفَ».

8 - اقرأ المحاضرات كلهاّ، واللغةَ العربية.

9 - قال سبحانه: «فأوحينا إلى موسى أنِ اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلقَ».

10 - كلّ ابن آدم خطّاءٌ.

الإجـــابات :

1- فيه مساواة؛ إذ جاء اللفظُ على قدر المعنى دون زيادة أو نقصان.

2- في هذه الآية الكريمة إطناب؛ إذ صُرّح بأمـهـات الممكنات؛ ليكون ذلك دليـلاً على القـدرة، وكـان في الإمكـان تلخيص هذا بالقـول : إنّ في خلق كلّ ممكن لآياتٍ للعقلاء، لكنّ التّفصيل هنا مفيدٌ؛ ابتغاء لفت الأنظار إلى باهر صنعه ولطيف تدبيره، سبحانه.

3- فيه إطناب بالتتميم؛ إذ إنّ «على حبّه» فضلة أريد بها المبالغة في مدحهم بالسخاء إذا المعنى : يطعمونه مع حبّهم واشتهائهم له.

4- فيه مساواة؛ لأن اللفظ على قدر المعنى.

5- فيه إيجاز بالقِصَر؛ لأنّ ألفاظه أقلّ كثيراً من معانيه.

6- فيه تكرير؛ إذ إنّ الجملتين بمعنى واحد لقصد الزّجر والردّع.

7- فيه إيجاز بالحذف؛ حيث حذف منه حرف «لا» إذ الأصل : لاتفتأ.

8- فيه إطناب بذكر الخاصّ بع العام؛ لبيان فضل الخاص.

9- فيه إيجاز بالحذف؛ حيث حذفت منه جملة؛ إذ الأصل : فضرب فانفلق.

10- فيه إيجاز قِصَر؛ لتضمن اللفظ القصير المعنى الكثير.

أسئلة وإجاباتها حول الإيجاز والإطناب والمساواة[2]

– حدّد فيما يأتي الطريقة التي أتي عليها الكلام من إيجاز أو إطناب أو مساواة :

1 - كلّ النّاس – إلاّ من عصم ربّك – مبتلَوْن بداء الحرص.

2 - ممّن تعلّمت الجدَّ والاجتهادَ؟

3 - إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُهُ

4 - قال سبحانه : «فقلنا اذهبَا إلى القوم الذينَ كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرا».

5 - جوزي المذنبُ بما اغترف، وهل يجازى إلا المذنب.

6 - أكرمتُ أولادي وبناتي ووالدي وأفراد أسرتي.

7 - قال سبحانه : «أفأمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمون. أو أمنَ أهلُ القرى أن يأتيَهمْ بأسُنا ضحًى وهم يلعبون. أفأمنوا مكرَ اللّهِ فلا يأمنُ مكرَ اللّهِ فلا يأمنُ مكرَ اللّهِ إلاّ القومُ الخاسرونَ».

8 - قال سبحانه : « ومَنْ يعملْ منَ الصّالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كفرانَ لسَعْيه».

9 - قال أعرابيٌّ لآخر : «إن شككتَ فيَّ فاسأل قلبك عن قلبي».

10 - لكلّ شيء إذا ماتمّ نقصانُ

الإجـــابات :

1 - فيه إطناب بالاحتراس.

2 - فيه تطويل؛ لأنّ الزّائد غير متعيّن في كلمتي «الجدّ والاجتهاد».

3 - فيه إطناب بالتّذييل، وقوله : «وأيّ النّاس تصفو مشاربه» جارٍ مجرى المثل.

4 - فيه إيجاز بحذف جملتين، فتقدير؛ فذهبا بالرسالة فكذّبوهما.

5 - فيه إطناب بالتّذييل، وليس جارياً مجرى المثل؛ لتوقفه على ما قبله.

6 - فيه إطناب بذكر العام بعد الخاصّ اهتماماً بالخاصّ.

7 - فيه إطناب بالتّكرار، للتّأكيد والإنذار والتّهديد.

8 - فيه إطناب بالاحتراس في قوله : «وهو مؤمن».

9 - فيه إيجاز القِصَر؛ إذ يتضمّن سؤال القلب عن القلب معاني عصية على الحصر.

10 - فيه إطناب بالاحتراس.

أسئلة وإجاباتها حول الإيجاز والإطناب والمساواة(3)

– حدّد فيما يأتي الطّريقة التي أتي عليها الكلام من إيجاز أو إطناب أو مساواة :

1 - «البخيلُ بعيدٌ من اللّهِ بعيدٌ من الناس بعيد من الجنّة».

2 - واحرصْ على حفظِ القلوبِ منَ الأذى   إنّ الزجاجة كســرُها لايُشعبُ

3 - إنّ امرأً أحسن إليك، وصانَ حرمتَكَ، وحفظ سرّكَ، إنّه جدير بثقتك به.

4 - كان عمر – رضي اللّه تعالى عنه – ثانّي الخلفاء الراشدين.

5 - قال سبحانه : «ولكنّ البرَّ من اتّقى».

6 - قـال سـبحـانه : «والشّفع والوَتْرِ والليلِ إذا يسرِ هـلْ في ذلكَ قَسَمٌ لذي حِجْر».

7 - نجح محمدٌ باجتهاده، وما ينجح إلاّ الجادّون.

8 - نزرُ الكلام منَ الحياءِ تخالُهُ ضَمِناً وليسَ بجسمه سُقْمُ

9 - أُمسي وأصبحُ منْ تذكاركمْ وَصِبا   يرثي ليَ المشفقان : الأهلُ والولَدُ

10 - قال سبحانه : «وقضينا ذلك الأمرَ أنّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصْبحينَ».

الإجـــابات :

1 - فيه إطناب بالترديد.

2- فيه إطناب بالتذييل الجاري مجرى المثل.

3- فيه إطناب بالتكرير لطول الفصل.

4- فيه إطناب بالاعتراض؛ لقصد الدعاء.

5- فيه إيجاز بحذف المضاف؛ إذ أصلُ الكلام: ولكنّ ذا البرِّ من اتقى.

6- فيه إيجاز بالحذف؛ لحذف جواب القسم؛ إذ تقدير الكلام: وحقِّ هؤلاء لأعذبنّ أولئك.

7- فيه إطناب بالتذييل غير الجاري مجري المثل لتوقفه على ما قبله.

8- فيه إطناب بالتكميل، بذكر «من الحياء»؛ لدفع توهّم أنّ قلة الكلام بسبب العِيّ

9- فيه إطناب بالتوشيع؛ لغرض الإيضاح بعد الإبهام.

10 - فيه إطناب بالإيضاح بعد الإبهام؛ لعرض المعنى في صورتين مختلفتين.

المحتويـــات

رقم الايداع
بدار الكتب الوطنية بنغازى
٩٣/١٧٥٤
فى ٩٣/١١/٦
الطبعة الأولى

دار الهناء
طباعة أوفست - تجليد
٣ ش أبى بكر الصديق
محرم بك - نادى الصيد
ت: ٤٢٠٥٨٧٥